ترجمة : برهان الخطيب

С. АЙНИ

Бухара

Избранное

На арабском языке

© Издательство «Прогресс», 1978 г.

© الترجمة الى اللغة العربية ، دار التقدم ، ١٩٧٨

طبع فى الاتحاد السوفييتى

A $\frac{70303-313}{014(01)-78}$ 562-78



صدر الدين عينى مغنى الشعب الناهض

ورث كتّاب طاجيكستان السوفييتية تقاليد الادب الفارسى-الطاجيكى الكلاسيكى الحائز على الشهرة فى مختلف انحاء العالم ، والذى بدأت تقاليده تترسخ منذ اكثر من الف عام ، وكانت هذه التقاليد رافدا ليس فقط للحياة الثقافية لبعض شعوب الشرق على مدى العديد من القرون ، بل وللادب الغربى ايضا . ولقد اصبح معروفا التقدير الكبير الذى كان يكنه غوته العظيم للادب الفارسى-الطاجيكى الكلاسيكى . بل وكانت تنبعث رائحة الشرق احيانا من مؤلفات مونتسكيو وهاينه وبوشكين وميتسكيفيتش وهيغو وبلوك والعديد من ادباء اوربا الكبار . وهكذا كان الادب الكلاسيكى المكتوب بالفارسية يشغل مكانة عالية بين نفائس الثقافة العالمية ، وظل يحتفظ حتى هذا اليوم بقيمة انسانية شاملة .

ساهم بانشاء وتطوير هذا الادب عديد من اجيال مختلف الشعوب المرتبطة بتاريخ وثقافة مشتركين كالطاجيك والفرس والاوزبكيون والاذربيجانيون والهنود والافغان .

وكان صدر الدين عينى (١٨٧٨ – ١٩٥٤) ليس فقط وارث تقاليد هذا الادب الكلاسيكى ومطوّره ، بل ونفح فيه روحا وحياة

جديدتين . وقد صنـــع من اعماله جسرا ربط به ارث الماضى الثقافى بثقافة العصر الجديد ذات الطابع الاشتراكى .

تشرب صدر الدين عينى قبل الثورة ومنذ طفولتـــه بروح تقاليد شعبه الفنية . فاحب وهو الصبى القروى الاغانى والحكايات التى كان المغنون الشعبيون يترنمون بها فى الاعياد والاجتماعات العامة . واكتسب من والده الحب الشديد للشعر . واستمـــع لقصائد الشعراء القدامى . فقد صدر الدين كلا والديه منذ الثانية عشرة من عمره ، وآنذاك ودع ساكتاره ، القرية التى ترعرع فيها ، مستجيبا لوصية والده الذى حلم ان يرى ابنه متعلما ، وتوجه الى بخارى طلبا للعلم .

بدا صدر الدين فى ذلك الحين بتجربة كتابة الشعر . فكان اغلب ما نظمه قصائد غزلية كتبت بالاسلوب الكلاسيكى القديم ، ترشح بالعواطف المشبوبة والقنوط اللذين تميز بهما هذا الشعر . هناك فى ارث الماضى كما هو معروف ملامح تشحب وتشيخ حتى يصبح ذلك كما يقال شكلا دون مضمون حى . والمبتدئ بالطبع لا يستطيع ان يفهم منذ البداية ذلك فيميز بين مثل هذه الاشكال وبين الاشكال الحية القابلة للتطور . وهكذا كان الحال الى حد ما مع صدر الدين ولكن العارفين بالامـــور ميزوا فيه مباشرة موهبته الفطرية الاصيلـــة وتمكنه البديـــع من تكنيك الشعر الشرقى .

ومع زيادة معرفة صدر الدين عينى بالحياة ووعيه بلا عدالة النظام الاجتماعى الذى عاش فى ظله يتميز شعره اكثر فاكثـــر بالاحتجاج والتمرد عليه . وكانت قراءة صدر الدين لمؤلف احمد دونيش «احداث نادرة» ، الذى يفضح الكاتب فيه رذائـــل امارة بخارى ، كما يصف فيه ايضا سفرته الى بيتربورغ بانبهار ، نقطة تحول بالنسبة لصدر الدين . فهى حسب كلماتـــه : «اول ثورة روحية» له . ويخرج صدر الدين عينى عن مرحلة التتلمذ طامحا بقوة ان يكون نافعا لشعبه ، الى درب العمل الحقيقى من اجـــل تنوير شعبه وتطويره ، فينظّم المدارس الجديدة ، ويعلّم فيها ، ويكتب لها الكتب ، وينظم الاشعار ويصيغ الاقاصيص مؤكدا فيها اهمية المعرفة .

غيّرت ثورة اكتوبر الاشتراكية حياة صدر الدين عينى من الجذر . وكان قد ايدها مباشرة منذ البداية ودون تردد او تلكؤ . فقد كانت الثورة ثورته . فتحت له ابواب السجن الاميرى الذى كان مرميا فيـــه نصف حى على ارض عاريـــة بامر من الاميـــر بعد تعذيب وحشى * . فاعاد الجنود الثوريون الروس له حريتـــه وحياته .

ومنح صدر الدين عينى جماع نفسه للسلطة الشعبيـــة الجديدة .

وفتحت ثورة اكتوبر امام صدر الدين ، وهو الرجل المنتمى لطبقة المثقفين الطاجيك القديمـــة ، الطريق واسعا لفهم جوهر التحولات التى تجرى فى المجتمعات ، فكان تعرفه بقوانين الصراع الطبقى سبيلا لتجاوز افق المستنيرين الضيق .

اتاحت الحياة لصدر الدين عينى ان يخوض غمار تجارب غنية خرج منها بانطباعات وملاحظات كثيرة ، ما كان صدر الدين او اى فنان حقيقى غيره ليصبح فنانا من غيرها . وكانت هذه التجارب بالذات ، والتى اتسعت اعوام البناء الاشتراكى ، الدعامة الرئيسية لنثره الواقعى . وقد قدّر لصدر الدين ان يكون رائد قصة ورواية فى الادب الطاجيكى ، وخالق شكل شديد الواقعية فى فن كتابة السيرة بطريقة فنية . لقد ارسى صدر الدين عينى بهذه الانواع الادبية فى حقيقة الامر اسس تصوير الواقع بشكل فنى ادبى واقعى لاول مرة فى تاريخ الثقافة الطاجيكية .

لقد توازى تاثير الادب الروسى ، بخاصة اعمال مكسيـــم غوركى ، مع اسلوب وطريقة تفكير صدر الدين عينى فعجّل وعمّق ذلك عملية نضوج الكاتب فنا وفكرا .

اعتبر صدر الدين عينى مكسيم غوركى معلما له ، مؤكدا بذلك لا تاثير الثقافة الروسية الايجابى على تطور ثقافة الشعب الطاجيكى الجديدة وحسب ، بل وقرابته الداخلية الروحية بذلك الكاتب الكبير .

---

* فى نيسان ١٩١٧ نال صدر الدين عينى خمسا وسبعين جلدة بامر من الامير .

تبوأ صدر الدين عينى مكانة مرموقة ايضا بين مؤسسى الواقعية الاشتراكية ، الى جانب غيره من فنانى جيل الكتاب السوفييت الاول .

لم يكتف صدر الدين عينى مطلقا بالوقوف مكتوف اليدين امام ما يمر امامه فى الحياة ، بل كان على الدوام فى بؤرة الاحداث . كان من اوائل مؤسسى الصحافة الوطنية الطاجيكية ورائدا من روادها .

ومنذ اول ايام ثورة اكتوبر العظمى انخرط صدر الدين عينى يكتب فى الصحف بقلم مفعم بالحماس لها ، وظل هكذا صحفيا ثوريا ، حتى آخر يوم فى حياته . وكان بتلك المقالات واللمحات والاشعار التى كانت بمثابة منشورات دعائية ، يشرح جوهر سياسة السلطة السوفييتية للفلاحين والفقراء باسلوب ساخن مفحم ، وهكذا استطاع ان ينقل حقيقة الافكار الاشتراكية الى جماهير عريضة من الناس .

كل ما كتبه صدر الدين فى فترة بدء انهيار النظام الاقطاعى ينضح بكراهية شديدة لاتباع الامير الذين كانوا يحكمون بخارى القديمة بتعسف ، سواء كان ذلك منشورا يدعو جنود الامير للانضمام الى صفوف الثورة او كان ذلك تحقيقا وثائقيا فنيا عن التاريخ الدموى لآخر سلالة اميرية حاكمة فى بخارى ، او كتابا مثل «جلادو بخارى» ، او قصة «اودينا» — («مغامرات طاجيكى فقير») — وهى اول قصة طاجيكية واقعية . لقد تربى على هذه الاعمال آلاف الفقراء ونضج وعيهم الطبقى كما ساعدت هذه المؤلفات على انتشار واتساع صفوف المؤيدين للسلطة السوفييتية .

وفى سير التغيرات الاشتراكية التى اعادت تشكيل وجه الحياة نما عود الكاتب واشتد فكره السياسى وتطور كثيرا .

لاعمال صدر الدين عينى جوانب متعددة مدهشة ، مستوعبة جميع التقاليد الفنية الفولكلورية والادبية لشعبه ، تعكس تجربة البناء الثورى فى بلده وروح العصر اجمعها . يرسم لنا صدر الدين عينى فى اعماله صورة آسيا الوسطى فى الماضى بدقة كاتب السير ، وبعمق ورهافة الفنان الكبير ، فيعرض امام اعيننا كيف تتالق روح الانسان الشغيل فى جو الظلم الاجتماعى الى جانب حماقة وفظاظة وعنجهية المترفين ، ثم كيف تنضج قوة غضب الشعب . نستطيع

نحن القراء ان نرى بأم اعيننا فى قصته المذكورة آنفا «اودينا» ، او فى روايته «داخوندا» — وهى بداية الرواية الطاجيكية عموما — ثم فى روايته التاريخية الكبيرة «العبيد» واخيرا فى سيرته الملحمية «مذكرات» («بخارى») ، نستطيع ان نرى مختلف جوانب تطور حياة الناس ، مادية وفكرية ، وكيف كانت الجماهير تصل تدريجيا الى فهم ضرورة بداية الصراع المكشوف مع النظام المتهرئ . ان ابطال صدر الدين لا يعكسون خلال حياتهم ، شأنهم شأن الكاتب خالقهم ، اعماق معاناة الشعب والكاتب نفسه وحسب ، بل ونرى من خلالهم ايضا كل متاعب البحث عن الحقيقة ، وطريق الكفاح الطويل ، وسعادة الحصول على الحرية .

لقد انشأ صدر الدين عينى باعماله معرضا كاملا قدم فيه العديد من النماذج الجديدة ، من المكافحين من اجل سعادة الشعب ، بحيث اصبحت هذه النماذج امثلة تحتذى لاكثر من جيل من القراء الطاجيك .

آمن كاتبنا بطبع بطولى ظل ملتزما به فى جميع اعماله الادبية ، وقد عرضه بقوة خاصة من خلال شخصياته النسائية فى رواياته وقصصه ، شخصيات مثل جلنار فى روايته «داخوندا» ، محبة وفاطمة فى «العبيد» ، وحبيبة فى «مذكرات» . ظهرت هذه النماذج النسائية الجديدة فى الادب بشكل طبيعى ، فقد كانت نساء طاجيكستان المناضلات فى العهد السوفييتى هكذا فى الواقع ، وهكذا صورهن صدر الدين بحب كبير على صفحات كتبه .

ان الشخصيات التى خلقها صدر الدين عينى قريبة وسهلة الفهم بالنسبة لقراء مختلف الشعوب ، وهذا هو السبب الذى جعل اعمال كاتب طاجيكى تتعدى حدود طاجيكستان ، بل وحدود بلدنا الاتحاد السوفييتى كله . ترجمت افضل اعماله الى كثير من لغات العالم ، وكتب عديد من العلماء بحوثا عنه . كما نشرت الصحافة الاوربية والشرقية تحقيقات ومقالات نقدية عنه .

ساعدت معرفة الكاتب الموسوعية ، وحسه البليغ بلغته القومية ، وذاكرته المدهشة التى حفظت العديد من الحقائق المعاشة والمروية له ، ومعرفته الجيدة للمراجع القديمة ، على دفعه فى مقدمة كبار علماء طاجيكستان الانسانيين .

كانت اهتماماته العلمية متنوعة الى درجة مذهلة . وقد الم بمختلف جوانب ثقافته القومية . ويمكن القول بحق انه مؤسس علم التاريخ الطاجيكى السوفييتى ، فقد وضع بداياته ببحوثه وتحقيقاته عن تاريخ سلالة مانغيت الاميرية ، وتاريخ ثورة بخارى . وبالمناسبة ، فان الكثير من اعماله الادبية تمتاز بقيمة فنية بمثل ما تمتاز به من قيمة تاريخية ، فهى تحتوى على حقائق كثيرة ثمينة ومواد موثوقة عن العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى آسيا الوسطى فى فترة قبل الثورة ، وما بعدها ايضا .

ولقد اضاف صدر الدين عينى بتحقيقه الفنى-التاريخى عن «تيمور مالك بطل الشعب الطاجيكى» لبنة هامة محسوسة فى مجال دراسة تاريخ الحركات التحررية للشعوب ، وكذلك شان عمله الآخر «انتفاضة مقنا» . وكان قد كتبهما فى اعوام الحرب ضد المعتدين الفاشست الالمان ، عندما كان الطاجيك يقاتلون جنبا الى جنب مع بقية شعوب بلدنا من اجل حرية واستقلال البلد السوفييتى .

فقد كان صدر الدين عينى متعرفا على الادب الكلاسيكى بشكل ممتاز ، وكان اول الباحثين فى هذا المجال . وضع عام ١٩٢٥ مختارات تحوى على «نماذج من الادب الطاجيكى» كانت اول تاريخ مدروس مفصل عن الادب الطاجيكى منذ نشاته . قدّم صدر الدين عينى فى كتابه هذا ولاول مرة العديد من الاسماء الادبية المجهولة والقليلة الشهرة ، معطيا من خلالها فهما جديدا لعملية تطور الادب الطاجيكى . ولقد عمق صدر الدين عينى اتجاهه هذا فى بحوثه التالية التى كرسها لدراسة الكتاب الكلاسيكيين الكبار امثال : رضاكى ، ابو على بن سينا ، الفردوسى ، سعادى ، بديل . وكان الاول الذى درس تراث وصيفى وكشف اهميته . ولريشته ايضا يعود فضل اول الكتابات عن «الخماسيات» التى ابتكرها مؤسس الشعر الاوزبكى عليشير نافوى ، وكذلك البحث الكبير الذى كتبه عينى عنه ، ومجموعة المقالات المكرسة لآثار سمرقند المعمارية القديمة ، وكذلك للموسيقى الطاجيكية واشهر عازفيها القدماء . وكذلك كان لصدر الدين عينى شرف وضع اول قاموس لغوى للغة الطاجيكية .

كتب صدر الدين عينى كثيرا من اعماله الفنية ، ونشرها

باللغة الاوزبكية . وقد ساهم بنشاط بخلق صحافة ادبية وانواع ادبية اخرى باللغة الاوزبكية ايضا . وهكذا كان صدر الدين عينى واحدا من اوائل رواد النثر والشعر الاوزبكيين . وقد اعترف به ، الى جانب حمزة حكيمزاده نيازى ، مؤسسا للادب الاوزبكى السوفييتى . وصل صدر الدين عينى ذرى المجد لا باعتباره داعية من دعاة الاممية السوفييتية وحسب ، بل لانه ايضا مواصل للتيار التقدمى فى ادب شعوب الشرق السوفييتى ، والذى يعكس الصداقة القديمة القائمة بين الشعب الطاجيكى والشعوب الناطقة باللغات الطورانية .

منح صدر الدين عينى درجة دكتوراه علوم لجهوده الكثيرة التى بذلها فى مجالى علم التاريخ وتاريخ الآداب واللغات . ثم انتخب عام ١٩٥١ اول رئيس لاكاديمية العلوم الطاجيكية عند افتتاحها لاول مرة ذلك العام ، وظل فى منصبه هذا حتى آخر ايام حياته . كما كان صدر الدين عينى عضو شرف فى اكاديمية علوم اوزبكستان .

سطعت شخصية صدر الدين عينى وارثه الادبى والعلمى العظيم كما لو انهما تجسيد لعراقة الشعب الطاجيكى ، ولثراء الثقافة الشعبية والادب واللغة الطاجيكيين . كما ان تلك الشخصية وذلك الارث بالنسبة لنا لهما مرآة ينعكس فيها مصير شعبنا السعيد ، الذى حررته ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ، وبعثته من جديد ليكون امة طاجيكية اشتراكية .

محمد عاصمى

في القرية







البداية

عشت طفولتي في احضان قريتين متباعدتين بعضهما عن بعض بمسافة لا يستهان بها . كانتا تختلفان بشكل ملحوظ من ناحية المظهر والتقاليد . وقبل ان اتحدث عن نفسي اذكر لكم شيئا عن هاتين القريتين ، لتصبح ساحة الوقائع التي اريد تذكرها هنا مرئية امامكم .

تقع قرية ساكتاره من توابع غيشدوفان على شاطئ زرافشان ، على مبعدة ثمانية فرستات * شرقي غيشدوفان . تقطع القرية قناة مازرانغان . فكانت المياه الوافرة في ارضنا تتيح لاهالي ساكتاره انشاء حدائق غناء ومزارع للكروم وحقول للخضر ، فينمو فيها كل شيء ببحبوحة وسعة بدءا من الثمار والخضروات الى الرز المحب للماء .

منذ قديم الزمان عاشت في هذه القرية اقوام مختلفة : طاجيك ، عرب – من احفاد النازحين الاوائل ، مهاجرون من اورغينج ، فرس من مشهد الايرانية ، بعض من سكان قلعة غيشدوفان القديمة ، واوزبك من منطقة سعيد شافريكان . في ساكتاره كانوا

---

* الفرست – وحدة طول روسية قديمة تساوي ١،٠٦٦٨ كم . المترجم .



يتحدثون عادة اللغة الطاجيكية ، اما العرب وابناء سعيد شافريكان فقد كانوا يفضلون التحدث باللغة الاوزبكية . كان الفلاحون من اصحاب الاراضى الصغيرة او لا يملكون شيئا على الاطلاق . اما القسم الاكبر من ارض ساكتاره فقد كان يملكه اثنان من الفرس ، يدعون بابنى القاضى الخيرين .

كان اهالى ساكتاره على العموم يعملون اما فى فلاحة الارض بالمحاصّة او يمارسون احدى الحرف اليدوية . فكان الطاجيك يعملون فى الاراضى الاميرية ، فيما كان اهل اورغينج يفضلون ممارسة البقالة فى الدكاكين الصغيرة . اما الخوجات على اختلاف انحداراتهم فقد كانوا يفتحون البخت ويكشفون الغيب ويقومون باعمال السحر للقادمين اليهم من مختلف الاصقاع ، جالبين اليهم مرضاهم ومجانينهم ، فيقرأون لهم تعاويذ غامضة فوق رؤوسهم لاشفائهم . كان الخواجات المسنون يبقون فى الجامع بعد صلاة الصباح لانشاد «سيرة النصر» فكان المرضى من القرى المجاورة ياتون اليهم فى الصباح للاستماع آملين بالشفاء .

كانت هناك مدرسة فى القرية ملحقة بالجامع تجرى الدراسة فيها صيفا وشتاء ، كما كان هناك بيت للعلم يقدم لطلابه مبادئ المعرفة ببرنامج مفصل بعض الشيء ، ولهذا فقد كان فى ساكتاره من المتعلمين والمثقفين اكثر من كل ما كان فى سواها من المناطق المحيطة .

كانت شؤون الدراسة فى المدرسة والجامع وبيت العلم فى ايدى الوجهاء من ملاك الارض ، اما رجال السلطة المحلية فقد كانوا يختارون من بين الطاجيك الاغنياء .

كان والدى وجدى من خوجات ساكتاره .

اما القرية الاخرى التى ترعرعت فيها فقد كانت على مبعدة فرست واحد شمال غرب قلعة غيشدوفان ، على حافة بحر الرمال المتصل بصحراء قزيل قوم ، وهى قرية محلة بالا من توابع شافريكان .

هنا كانت الحاجة الى الماء دائمة باستمرار . وكانت القرية تبقى دون ماء تماما عندما تزحف عليها الرمال المتحركة فتطمر جدول شافريكان القديم .

لم تكن فى هذه القرية حدائق ، وليس غير تفاح خوجيخونى

الحامض كان ينمو فى اراضيها ، اضافة الى نوع من الكروم كان يتألق بشدة بين الرمال الحارة ، وبعض المحاصيل الخضراء بندرة شديدة .

وبسبب قلة المياه كانت الخضر لا تزرع هنا تقريبا . ولكنهم كانوا يزرعون الحنطة والشعير والفول والدخن . وحتى القطن الخشن – الغوزا – كان ينمو بشكل سيىء بحيث لا تتفتح من جوزاته فى شجيراته الجافة الجرداء الا واحدة فقط ، وفى حالات نادرة جوزتان لا اكثر !

كانت القرية فقيرة ، بيوتها الصغيرة مبنية بالطوف . ورغم ان الجميع هنا كانوا يمارسون الزراعة الا ان احدا منهم لم يكن يستطيع التعيش من وراء ذلك . بل ان الكثيرين منهم كانوا يجدون انفسهم فى حالة لا يكفى فيها محصولهم لدفع الضرائب الملقاة على عاتقهم ، فيما ينتزع ملاك الارض بالاكراه حصة الاسد من هذه المحاصيل ، رغم انها محددة اسميا بالعشر منذ قديم الزمان .

اغلب الاراضى هنا كانت تابعة للامير ، اما القسم الآخر منها فقد كان يعود لمدرسة مير عرب فى بخارى ، فكان الفلاحون يدفعون اذن عشر الحاصل الذى يجنونه من هذه الارض الى الامير والمدرسة . اما الاغنياء من ملاك الارض هنا فلم يكونوا يدفعون شيئا لاحد . فقد كانوا مقربين من الحكام فى بخارى ، فكان كل ثقل الضرائب مسلط على كاهل الفقراء . وكان هذا يزيد من تعاسة اهالى محلة بالا .

لم يكن فى محلة بالا الكثيرون من اصحاب الحرف الماهرين ، كان هناك حسب رقاعون مساكين يعيشون على تقديم خدماتهم للجياع الفقراء امثالهم . وفى مركز القرية كان يعمل رقاعون يجيدون تركيب خفاف وخياطة الاحذية العتيقة ، ولكن المتاجرين بها هنا كانوا يختطفون منها لانفسهم ايضا نصيبا كبيرا من الارباح .

كان بعضهم ايضا يعمل فى رعى دواب الاغنياء ، او يفلح فى حقولهم او يكدح فى جمع الاحطاب . وفى الشتاء كان الجميع تقريبا يعملون فى تنظيف القطن بعد اخذه لذلك من تجاره . فلا يستلمون مقابل ذلك العمل الا قروشا معدودة ، فقد كان يؤخذ فى الحسبان

ما يتبقى لهم من جوزات القطن بعد تنظيفه ، لفائدته فى تدفئة مواقدهم .

كانت امى تنحدر بالاصل من هذه القرية .

كان بين قريتى ساكتاره ومحلة بالا مسافة تقدر بستة عشر فرسخا . وكانتا تقعان على مبعدة واحدة من بخارى ، بمسافة تقارب الاربعين فرسخا . كانت ساكتاره تقع شمال شرقى هذه المدينة ، اما محلة بالا فكانت على الشمال منها .

* * *

كان جدى سيد عمر خوجا ، على قول والدى سيد مراد ، رجلا متعلما ، اجاد حرفة الحياكة والنجارة ، واشتهر كنجار جيد بين من يعرفونه .

فى احد الايام انهار جامع محلة بالا بعد تقادم العهد عليه فراحوا يبحثون لهم عن نجار جيد يعيد انشاء الجامع فكان ان دعى جدى لهذه المهمة .

انجز جدى ما اوكل اليه ، ثم نقش على احد اعمدة الجامع : «صنع سيد عمر خوجا من ساكتاره» .

لم تكن مدرسة جامع القرية تستقبل احدا آنذاك فلم يكن فى القرية من يعرف القراءة والكتابة ، فلما راى اهاليها حرفيا متعلما دهشوا الى درجة انهم طلبوا من جدى البقاء فى كنفهم ليصبح إماما لجامعهم الذى اعاد ترميمه بنفسه ، وليكون فى قريتهم على الاقل شخص واحد متعلم . لم يكن إمام جامعهم السابق يعرف القراءة والكتابة ، كان يحفظ غيبا بعضا من سور القرآن وحسب ، وكذلك الصلاة . بالاضافة الى ذلك كان بامكان جدى ان يعمل ايضا نجارا عندهم فقد كانت حاجتهم ماسة الى ذلك ايضا .

اعجب جدى هذا العرض . كان دخله فى ساكتاره واطئا رغم خبرته الجيدة ، فقد كان هنالك الكثيرون من النجارين الجيدين من بين اترابه . اما هنا فلم يكن غير اولئك الذين يصنعون المغازل والدواليب المستعملة فى تنظيف القطن ، وغيرهم لم يكن ثمة من يمارس مهنة النجارة . وكذلك كان حال القرى المجاورة ، ورغم

الطواحين التى فيها فلم يكن هناك من يستطيع صنع الدواليب الخشبية . اما جدى فقد كان حاذقا فى هذا المجال ايضا . فقرر ان هذه المهنة ستدر عليه هنا مدخولا اضافيا ، اما دخله الرئيسى فسيكون من عمله فى الجامع كامام له . وهكذا قبل بعرض اهالى محلة بالا .

اسكن جدى قرب الجامع بقسم الرجال فى بيت احد الفلاحين ، وكان يدعى خامراخان . فعاش جدى فيه سنوات عديدة ، وكان فى الامسيات ، بعد عمله ، يعلم ابن صاحب البيت القراءة والكتابة . وكان ابنه الكبير — والدى — فى هذا الوقت يدرس فى احد بيوت العلم فى بخارى ، اما بقية اولاده فقد كانوا يعيشون فى ساكتاره .

ضجر جدى من وحدته فاشترى لنفسه قطعة ارض صغيرة فى مشارف القرية الغربية ، وبنى عليها بيتا . زرع حول البيت اشجار مشمش وهى لا تحتاج الى كثير من الماء كما هو معروف . ثم نقل عائلته من ساكتاره الى هذا البيت .

بعد عدة سنوات لاحظ جدى ان بيته فى ساكتاره يتداعى ، وان ارضه التى اهملها طويلا هناك يصيبها البوار ، ولم يعد هو نفسه فى قواه السابقة . وهكذا قطع دراسة ابى واستدعاه من بخارى مقررا تزويجه .

وما كاد جدى يحدث جيرانه بنيته على تزويج ابنه حتى اسرعوا بالبحث ، وعثروا على خطيبة له : ابنة خامراخان الثالثة زيفار . كان خامراخان انسانا بسيطا متوسط الحال ، فكانت حفلة زواج والدى متواضعة .

وعندما كان والدى يحدثنى فيما بعد عن هذه المرحلة من حياته كان يضيف :

— كنت ارغب جدا بمواصلة دراستى ، ولم ارد ابدا ترك المدرسة لانشاء عائلة . ولكن والدى ووالدتى كانا قد اصبحا عجوزين وكان من الصعب عليهما ان يعيشا من غيرى ، وهكذا اضطررت الى قطع الدراسة والعودة . فى الصيف عشت مع امك فى ساكتاره نعمل فى الفلاحة ونجنى محصول البستان . اما الشتاء فقد كنا نقضيه فى محلة بالا نصنع عجلات للمطاحن ، او نغزل ، او ننسج . ولكننى كنت ما ازال ارغب بمواصلة الدراسة . ولما لم

تكن عندى الامكانية لذلك فقد قمت بتعليم الآخرين ، ومنهم خالك ملا ديكان وغيره من ابناء الفلاحين . ولما انتهيت من تعليمهم الحروف الابجدية ارسلتهم الى بخارى ، الى احدى المدارس الدينية هناك . كنت آمل ان يصبحوا شيئا يذكر ان لم استطع انا ان افعل ذلك . واصل خالك الدراسة اما الآخرون فقد عادوا ادراجهم بعد عامين ، ثلاثة . واصبحوا أئمة فى الجوامع .

جاء تلاميذ والدى هؤلاء الى بيتنا فى احد الايام ، ملا باباجان ، ملا خامراخ ، ملا عبد الوحيد ، وملا ثابت .

كان باباجان قد اصبح اماما فى قرية روباخو جنوب قرية محلة بالا . قال له والدى :

– العجيب ان الجميع ما عداك انت كانوا من ابناء الاغنياء ، وهؤلاء وجدوا حياة العلم حياة صعبة ، فما هو شانك انت ، وانت ابن الرجل الفقير ، تفشل هكذا ؟ كنت اعتقد انك ستتغلب على الصعاب مثل الاسد ، ولكن ما اضيع ثقتى فيك !

اراد والدى ان يخجل اولئك الذين يتركون الدراسة رغم توفر الظروف الملائمة لهم .

بعد وفاة جدتى ، وبعدها وفاة جدى بعامين ، ظل والدى يعيش فى بيتين ؛ الصيف فى ساكتاره يمارس الفلاحة والنسج ، والشتاء فى محلة بالا يصنع اجرانا للمطاحن .

كان والدى يمارس مهنة النسج من اجل احتياجات بيته حسب ، فكان يصنع بيديه ملابسنا وبطانياتنا ومخداتنا ، اما اجران المطاحن فقد كان يعدها للبيع .

هكذا مرت طفولتى ، الصيف فى ساكتاره حيث ولدت . والشتاء فى محلة بالا .

الختان

كانت باحة بيتنا فى محلة بالا مسيجة بجدران طوف عالية من ثلاثة جوانب ، يبلغ ارتفاعها اربعة امتار . اما الجهة الرابعة فقد كانت مباحة لبستان يعزله جدار آخر غير عال عن الحقول .

امام البوابة زريبة من الطوف ، الى جانبها سقيفة للدواب ،

امامها غرفة الضيوف ، التى كانت – فى جميع البيوت الاسلامية – بمعزل عن غرف النساء ، قربها كان والدى يعمل بدواليبه الخشبية ، وقربه حديقة اشجار المشمش . اما الى الجانب فقد كانت هناك فسحة عالية للراحة مبنية من الطوف تسمى عندنا «الصوفى» ، تختفى فى ظلال شجرة توت كبيرة كريمة الاغصان .

ذلك كان باحة البيت الخارجية .

اما فى الداخل فقد كان هناك بيتان من الخشب يقعان خلف الزريبة وسقيفة الدواب . امام الباب الجنوبى كانت هناك حديقة اوراد ، اما الشمال فقد كان متروكا للحائط المطل على الشارع . وبين البيتين باحة تغطيها اغصان شجرتى مشمش كبيرتين . فى زاوية الباحة الشرقية يقع المطبخ ، وفى مدخل البيت الشمالى كان نول والدى .

هكذا كان البيت الذى نشأت فيه .

واليكم اول ذكرياتى عنه . .

. . البيت الجنوبى والفسحة المرتفعة تحت شجرة التوت مليئان بالضيوف من جنس الرجال . فيما يمتلئ البيت الشمالى بضيوفه من النساء . وثمة قدر نحاسى كبير يتربع فى الباحة بين المطبخين ، كان طباخه يصب منه الرز باللحمة فى اوان من الفخار فيحملها الفتيان مفعمة الى الضيوف ، ويعيدون الفارغة منها الى الطباخ . وفى قسم النساء كانت امراة عجوز تقوم بمهام الضيافة ، يطلقون عليها تارة كنية «المدبرة» وتارة اخرى «ام البيت» ، وكانت هناك عجائز اخريات يقمن بمساعدتها فى هذا الشأن .

كان والدى وجدى عن امى واخوالى يستقبلون الضيوف الرجال ، فيما كانت والدتى وجدتى وخالاتى يستقبلن النساء .

فى زاوية من الفسحة المرتفعة كانت جوقة صغيرة ، مؤلفة من طبال وزمار وعازفين على الدفّ ، تعزف الحانها فيما كان عازفا الدفّ يغنيان ، سوية او كل فى دوره . وكان ثمة شاب ممشوق القوام يقف امام افراد الجوقة ممسكا بيديه بحجرين صغيرين فيطقطق بهما على ايقاع الدفّ ويغنى ويرقص معه .

لم نكن نحن الصغار لنقترب من هذه الجوقة ، بل كنا نتفحص افرادها ونتصنت الى اغانيها والحانها .

كنت آنذاك سعيدا ، ممتلئا بسعادتى ، اشعرنى كما لو انى اسعد حالا من كل الاولاد ، كنت ارفل بملابس رائعة لم ارتد مثلها من قبل ، سروال وقميص ابيضان ، وفوقهما صاية مزينة بالازهار ، وعلى راسى طاقية طرزتها امى بيديها .

لم تكن الملابس تسعدنى وحسب بل كانت مبعث اعجاب جميع الاولاد . صبى يتجاوزنى بعمره قليلا امسك اطراف قميصى بيده بقوة ونادى على فتى من معارفه متسائلا :

– ما نوع قماش هذا القميص ؟

فالقى الفتى نظرة غير محبذة عليه واجاب :

– شيت .

فاعلن الصبى بافتخار آنذاك :

– ولكن والدى اشترى لى قميصا من الحرير .

لم اكن اميز بين الحرير والقطن فى ذلك الوقت ، ولكنى كنت اعرف انهم خاطوا لى ملابسى ذلك اليوم من قماش ابيض اكثر نعومة من القماش الذى كان والدى ينسجه لنا . ولهذا فان سؤال الصبى لم يكدر سعادتى . كنت غاضبا عليه وحسب لانه كان يضربنى اثناء لعبنا فى الشارع .

وعندما تهيأت الجوقة للمغادرة لاحظت ان الضيوف ايضا اخذوا يذهبون الى بيوتهم . ولم يبق غير الاقارب .

دفع والدى للجوقة استحقاقهم واوصلهم الى الباب ، فتوسلت اليه ان لا يدعهم يخرجون فقد كانوا قد سحرونى بعزفهم .

قال لى احد افراد الجوقة :

– نحن ذاهبون الآن الى مادبة اخرى ، وفى طريـــق العودة سنمر عليكم .

ركبوا على الحمير ومضوا فى سبيلهم فجريت وراءهم اصيح :

– وانا ، وانا ايضا اذهب معكم الى تلك المادبة !

الا ان والدى امسكنى من يدى بقوة فانخرطت فى البكاء ودبكت بقدمىّ صارخا :

– اريد ان اذهب معهم ، اريد ان اذهب . .

وهتف بى بقية الاولاد الذين جروا وراء الجوقة لاتبعهم . لكن جدى تقدم منى قائلا :

– لا تذهب . سنعزف سوية على الطبل والمزمار ، انت على الطبل وانا على المزمار .

راق لى هذا فكففت عن البكاء وعمّ السرور قلبى . بدا لى ان الضرب على الطبـــل بنفسى حتى اكثر متعة من الاستماع الى عزف الجوقة . ولكننى لم اكن مصدقا ان يعطينى جدى طبلا :

– اوخ ، انت تخدعنى ، فمن اين لك طبل ؟

رفع جدى على راحة يده لحيته البيضاء الطويلة التى كانت تغطى صدره وقال لائما :

– وهل استطيع ان اخدعك وانا بهذه اللحية البيضاء ؟

جمد قلبى من التوقع والانتظار !

ذهب جدى الى قسم النساء وجلب من هناك صينية معدنية غير كبيرة ، ثم اخذ من المطبـــخ عودا من القصب ، وكسر من شجرة المشمش غصنين . وضع كل هذه الاشياء امامى ، على الفسحة العالية التى كانت الجوقة تجلس عليها قبل قليل . ثم اجلسنى الى جانبه واعطانى الصينية والغصنين بينمـــا وضع هو عود القصب بين شفتيه . فرحت اضرب على الصينية بالغصنين بشدة . . دان غار ! دان غار ! ، وجدى ينفخ فى عود القصب كما لو انه ينفخ فى مزمار . الا ان غياب اخوىّ الاكبرين : محى الدين وايرغاش ، وبحث الآخرين عنهما نغّص على ذلك فقد كنت اظن انهما ذهبا مع الجوقة وتركانى لوحدى .

الا انهم سرعان ما عثروا عليهما فوق شجرة المشمش ، فهرعت الى الحديقة لارى كيف سينزلان منها . راح والدى يعنف اخى :

– الا تخجل يا محـــى الدين ؟ لم تخف من الدراســـة فى المدرسة ؟ انت كبير ولكنك تتخفى مثل الاطفال ! هذا هو اخوك اصغر منك بثمانية اعوام ، لا يشاكس ، بل يضرب على الطبل ، ويضرب جيدا ايضا ! انزل من الشجرة ، هيا انزل بسرعة !

– انه صغير ولا يفهم شيئا . اما انا فلن انزل !

كان خالى قربان نياز رجلا قويا شابا ، صعد الى الشجرة بسرعة وتناول اخى محى الدين من الاغصان مثل ثمرة كمثرى ناضجة وانزله حاملا اياه بيده فتناوله الواقفون على الارض منه ، وهكذا انزلوا ايرغاش ، ثم اقتيدوا الى البيت الجنوبى دون ان تحرر ايديهم خشية

هربهم وافلاتهم . اما انا فقد ركضت الى طبلى عائدا اليه وقد اسكرنى مدح ابى لى . كان جدى ما يزال يجلس فى مكانه السابق ، فنادانى قائلا :

– تعال بسرعة فالمزمار من غير الطبل لا يفعل شيئا !

فتناولت العودين من جديد ورحت اقرع بهما الطبل بقوة . وبعد عدة دقائق خرج قربان نياز من البيت الجنوبى ودعانى اليه لاقرع الطبل فى ذلك المكان فاعترضت عليه :

– لا توجد هناك فسحة عالية !

– لقد هيأنا لك مكانا مرتفعا ممتازا !

فنظرت نحو جدى مستشيرا ، فقال لى :

– هيا لنذهب ، هناك يستطيع اخوك ان يسمعك ايضا .

كان هذا السبب كافيا لاقناعى تماما فقد كانت رغبتى لاظهار كفاءتى امامه جد شديدة .

فحملت الطبل والعودين وركضت الى البيت ، فيما لحقنى جدى وخالى . اما والدى فقد مكث فى مكانه على الفسحة العالية .

كانت الغرفة مفروشة بثلاثة فرش ، على اثنين منها تمدد اخى وايرغاش ، اما الثالث فقد اعد لاستقبالى وطبلى .

عندما توجهت الى مكانى التقت عيناى بعينى اخى المحمرتين . كان قد كف عن البكاء ، لكنه كان ينظر الىّ بسخرية وابتسامة هازئة ترتسم على شفتيه ، فعبست فى وجهه وانا اشعر بالاطمئنان والرغبة للتطاول عليه بعزقى . ذهبت الى مكانى دون تلكؤ ، وجلس جدى الى جانبى قائلا :

– لا يحسن ان تقرع الطبل على بطانية وثيرة فالصوت سيكون مكتوما . الافضل ان تضطجع على ظهرك على الارض وتمسك العودين بيديك . اما انا فسأمسك لك الصينية امامك لتضرب عليها ، آنذاك يصدر عنها رنين جميل يضاهى ما يصدر من اجراس بعير عبد الرحيم باى * .

تصنت لوقع الضرب على الصينية فكان اشبه بصوت الاجراس فعلا .

---

* باى : لقب يطلق على الوجهاء للتكريم . **المترجم** .

امسك بقدمى فى هذه الاثناء احد ما بقوة وثبتهما على الارض . وفى نفس اللحظة ضغط جدى على صدرى بالصينية بحيث لم اعد استطيع الحراك . وفجأة شعرت بألم فظيع لم استطع معه التقاط انفاسى . جمعت قوتى كلها فى اصابعى وتشبثت بلحية جدى بعنف شديد ، ثم جذبتها نحوى بكل ما عندى من قوة وصرخت منخرطا فى البكاء :

– لقد خدعتنى بلحيتك البيضاء !

انفجر الجميع بالضحك فجأة حولى ، ورغم الدمع فى عينىّ فقد ابتسمت بدورى وانا ارى جدى يتأوه والدموع تكاد تطفر من عينيه من الالم الذى سببته له ايضا .

ذلك كل ما اتذكره من ختانى .

وتلك هى ابعد الذكريات الباقية فى ذاكرتى . كنت آنذاك جد صغير ولكننى اتذكر حتى الآن بوضوح فرح الضرب على الطبل ، الالم الشديد ، وحلاوة الانتقام من الخائن .

بعد المادبة

حلّت فى بيتنا ايام عصيبة بعد حفل ختاننا . لم تمسنى مباشرة ولكننى كنت افهم ذلك من خلال احاديث ابى وامى . كانت هذه الاحاديث تتكرر كل مساء . وفى احد الايام قال والدى اثناء حديثه مع امى عن ديوننا :

– لحسن الحظ اننى غير مدين للمرابين ، ولم استمع لنصح الاصحاب برهن ارضنا فى ساكتاره عندهم . لكنا بقينا غرباء فى هذه القرية الفقيرة الى الابد .

– اذن فقد استدنت النقود دون فوائد !

– بالطبع ! استدنتها بمبالغ صغيرة ، عشرين تينغا او ثلاثين تينغا من هنا وهناك . اكبرها خمسون تينغا اخذته من ابيك ، كان قد جمع له هذا المبلغ من اجل دفنته وكفنه .

– اوخ !

– قال لى ابوك ان لا اعبأ بشأن هذا المبلغ : «واذا ما دفعته

لى قبل مماتى فذلك خير ! على ان لا يعرف بذلـــك على خان ابنى الاصغر» .

ثم حذر والدى امى قائلا :

– اما انت فامسكى لسانك ولا تتحدثى بهذا الامر لاحد .

وكررت امى سؤالها دون ان تفهم على وجه اليقين :

– وهل سلفك الجميع حقا نقودهم دون فائدة !

– لم استدن من الغرباء . بل استلفت من الاقارب فى ساكتاره ومن الاصدقاء القريبين . قالوا لى : «لا تأبه للامر فهو لا يستحق الذكر . فلتكن هذه الدراهم هدية منا» . اما انا فقد قلت لهم : «لقد اعطيتمونى نقودكم دون فائدة فى وقت حرج ، وهذا وحده ليعتبر هدية كبيرة ، فانتم لستم اكثر غنى منى !»

فقالت امى بعدم ارتياح :

– كان الافضل ان تقيم المأدبة فى ساكتاره ، كنا خسرنـــا عليها هناك اقل مما خسرنا هنا . فالناس هنا جياع فلو طبخت لهم مائة قدر من الرز باللحمة فلن تكفى ولن تسد جوعهم .

فاعترض والدى :

– لست على صواب ! فالمصاريف لا علاقة لها بشهيـــة المدعوين بل بوضعهم وغناهم . الفقير يأكل كل ما يقدم اليه ويشكر على ذلك . بل انه لا يلومك ان لم تقدمى له شيئا . اما الاغنياء فلا تستطيعين تقديم نوع واحد من الاطعمة لهم ، بل يجب تقديم ثلاثة انواع ، والا فانهم سيغضبون عليك لانهم سيعتبرون ذلك عدم احترام وقلة تقدير لهم . وهكذا ، حتى لو كنا صرفنا فى ساكتاره الشبعانة ثلاثة اضعاف ما صرفنا هنا فان الوجهاء هناك لكانوا ظلوا غير راضين عنا . فانهم لا يأتون الى الدعوات لكى يأكلوا بل لكى يحظوا بالاهتمام والتقدير المعبر عنهما باتلال الرز ورؤوس القند ، وللحصول على الصايات الجميلة ايضا ! فهل كان بامكاننا تحمل كل تلك النفقات ؟ هيا احسبى ! . .

صمت والدى برهة ثم اضاف :

– بل تذكرى ايضـــا اننى لا ازور احدا فى ساكتاره غير الاقارب . ونحن لا نعيش هناك فى الشتاء ، فى الوقت الذى تقيم الغالبية فيه مآدبها . اما هنا فاكاد ازور الجميـــع واحضر كل

المآدب . اما اقاربنا فى ساكتاره فكان بامكانهم المجىء الى هنا ايضا .

وسألت امى :

– عام مضى على المأدبة تقريبا فمن وفيت من دائنيك ؟

– بعضهم فقط . دين ابيك سددته . ودفعت لاثنين كانا بحاجة ماسة لنقودهما .

– ولمَ تعجلت الدفع لوالدى ؟

– ومن يدرى من منا سيموت قبل الآخر ؟ للنقود عند الكبار فى السن حلاوة ما بعدها حلاوة ، ولربما تجدينه كان يفكر بها كل ليلة ، ولهذا تعجلت لادخال الاطمئنان الى قلبه .

صمت والدى طويلا وهو يقلب فكره . ثم قال :

– اننى لا اتحدث عن هذا لارباكك ، بل لاضع فى علمك ان لا تتأثرى اذا اضطررنا الى التقتير بعض الشىء فى هذا الوقت . اللحم قللى من شرائه من السوق ، بل وامتنعى عنه احيانا . ولنعش على الحليب ما دمنا لم ندفع ديننا بعد . سنشترى قليلا من الرز تحسبا للطوارئ ، نسلقه بالحليب ونقدمه الى الضيوف .

– لسنا بحاجة للرز الآن .

فدهش والدى :

– لماذا ؟

– عندنا موجود .

فانتصب والدى من دهشته :

– ومن اين جاءنا !

ابتسمت امى :

– موجود حسب ! اقتصدته مما خصص للمأدبة آنذاك واخفيته منذ ذلك الوقت فى الصندوق للايام السوداء ! المهم ان تدفـــع ديوننا .

فامتدحها والدى :

– عفارم عليك يا ذكية ! ليس عبثا يقال «اقتصد امام الموقد تصبح تاجرا فى الهند» .

كان اخى ينام معى . كنت اعتقد اننى اسمع حديث والدىّ وحدى . فجأة اخفى وجهه فى المخدة وانخرط فى بكاء عال . فهرع والدى ووالدتى اليه قلقين :

– ماذا بك ؟ ما الذى حدث ؟ . .

– كيف استطيع الذهاب الآن الى المدرسة ؟ الم يكن بالامكان اجراء الختان دون مأدبة ؟ . .

– لا تبـــك يا بنى . عندما يحين الوقت آخذك بنفسى الى بخارى !

– كيف تأخذنى ولا نقود عندنا !

– اوخ ، هناك عامان حتى بخارى ، خلالهما نستطيع اكثر من دفع ديوننا وارسالك اليها . .

* * *

حضرت امى فى اليوم التالى حلاوة ، ساعدتها فى اعدادهـــا . قلّت فى البداية الطحين بالزيت فى قدر معدنية ، ثم اخرجت قدحا من دبس التوت ، كان قد جلب من ساكتاره ، وراحت تغليه .

وعندما اصبح الدبس اشبه بالعصيدة اضافت له الطحين المقلى ، فكثف الخليط حتى اصبح مثل العجين . اهالت امى الطحين فى الماعون ثم صبت عليه العجينة ، وعندما بردت واصبحت اكثر صلابة اقتطعت لى منها قسما ثم قطعت الباقى بالسكين قطعا متساوية ، اهالت عليها الطحين ثم وضعتها فى المجر .

امسكت قطعة الحلاوة بيدى ورحت امضغها متلذذا خارجا بهـــا الى الشارع ، واذ رآنى اخى ابتدرنى قائلا :

– اية حلاوة هذه ! انها حجر . الحلاوة الطيبة عندما تكون دهينة !

– واين اكلت انت حلاوة دهينة ؟

– جدى اعطانى ، جلبها له خالى قربان نياز ، هل كنت تأكلها لو حصلت عليها ؟ انها طيبة جدا .

– ان اعطونى اكلت . اما الآن فاننى آكل هذه !

– واذا حصلت لك على شىء منها ؟

– آكله .

– اذهب اذن الى والدنـــا واطلب منه ان يشترى لنا حلاوة دهينة .

– ولماذا لا تذهب اليه بنفسك ؟

– اخشى ان يقول انه صرف علىّ من النقود ما يجعله اعجز عن ارسالى الى بخارى .

– وانا ايضا اريد الذهاب الى بخارى .

– انت ما تزال صغيرا ، وحتى يحين وقت ذهابك الى بخارى يحصل والدنا على الكثير من النقود . وحتى ذلك الوقت ينسى والدنا امر الحلاوة .

– اذن ساذهب اليه .

رحنا سوية الى ورشة الوالد وقبل ان انهى حلاوتى قلت له :

– اشتر لى حلاوة دهينة !

فاجاب والدى دون ان يرفع عينيه عن المكوك :

– عندك حلاوة فيها دهن ايضا ، فماذا تريد بعد ؟

– اريد حلاوة دهينة طيبة ، لم آكلها من قبل ابدا !

– ان لم تكن قد اكلتها من قبل فكيف تعرف انها طيبة ؟

– اخى قال هذا .

قفز محى الدين هاربا من الدكان وقد وشيت به دون ان ادرى ، فابتسم والدى :

– اذهب وقل لامك ان تأتى باخيك الى هنا .

ذهبت الى امى وقلت لها ذلك . كان اخى لائذا بها فسألنى متوعدا :

– لماذا وشيت بى امام والدنا ؟

عرفت انه كان محقا فى لومه لى ولكن كبريائى لم تسمح لى بالاعتراف بذلك فسألته :

– وكيف كان بامكانك الرد على والدنا ؟

احمر اخى دون ان يعرف كيف يرد علىّ ، اذ لم يكن بالامكان العثور على رد آخر . اقتادت امى محى الدين الى والدنا رغم عناده . وفكرت : بماذا سيعاقبه ابونا على شيطنته ؟

ضحك والدنا وهو يخلع نظارته ويمسحها ، وسأله :

– هل تعرف يا محى الدين الطريق الى قرية بالاى رود ؟

– اعرفها .

– وهل تعرف اين تقع طاحونة الشاطئ ؟

– اعرف .

– هل تعرف ؟

هز اخى راسه بالايجاب . فنظر والدنا نحو امنا :

– طلبا منى اليوم حلاوة دهينة . واليوم هو يوم السوق . لا داعى لتحضير شىء . كنت اخشى ان لا يعرف محى الدين الطريق الى بالاى رود فاضطر الى الذهاب بنفسى لجلب الحلاوة . اما وهو يعرف الطريق فليذهب بنفسه لجلبها . واما انت فاجلسى للف الخيوط فهى تكاد تنتهى عندى .

اخرج والدى من جيبه تينغا واحدا واعطاه الى اخى :

– عندما تصل النهر ترى الجسر ، تعبر الجسر فترى بيتا كبيرا . هذا هو بيت الاسطة باروت ، هناك يصنع الحلاوة ايضا . ادخل البيت وانقل له تحياتى ، ثم قل له ان يعطيك عمود حلاوة ، لفّه بورقة وتعال به الى البيت .

– وما كبر عمود الحلاوة هذا ؟

– قطعة كبيرة .

– وهل سآكل انا هذه القطعة ام اخى ؟

جعل والدى يديه بشكل زورق واشار له :

– قطعة كبيرة هكذا تكفى الجميع .

استعد اخى للذهاب ، وتوجهت معه ، الى قرية بالاى رود لشراء الحلاوة .

قطعنا الطريق التى نزل عليها الثلج بمرح حتى وصلنا الجسر . كانت قرية بالاى رود تقع على الشاطئ الشمالى لنهر شافريكان . وكانت الطاحونة تنتصب امامنا على النهر ، حيث كانت دواليبها تدور عندما يرتفع ماؤه . ولكن النهر كان خاليا من الماء آنذاك تماما ، تلتمع فى قاعه برك جامدة هنا وهناك .

البيت الذى تحضر الحلاوة فيه

تفرجنا على الطاحونة برهة من الزمن ثم واصلنا سيرنا وبدل ان نعبر القناة بواسطة الجسر رحنا نتقافز على الجليد الذى غطاها متزحلقين عليه .

ثم خرجنا الى الشاطئ ، واقتربنا من البيت ، كان مبنيا من الطوف ، تحيطه باحة تطل بوابتها على الجسر ، فتحنا احد مصراعيها

ودخلنا اليها . ثم فتحنا احد ابواب البيت ودخلنا غرفة وجدنا فيها عدة مواقد تعلوها قدور ، يغلى فى بعضها الدبس ، وفى البعض الآخر عصير عروق الحلاوة ، وكذلك الزيت فى قدور اخرى .

كان هناك شخص يصب طحينا مقليا فى احد القدور يعينه شخصان آخران على خلطه بمغرفين خشبيين كبيرين ، كانا يرفعان بهما الخليط الى اعلى ثم يهبطان به بقوة الى القدر . وكان ثمة شخص آخر ، مرتفع القامة ، اسود اللحية طويلها ، يقوم كما يبدو بادارة الاشغال هنا .

وكانت هناك دكة واسعة تشغل القسم الآخر من الغرفة يعلوها طبق خشبى كبير يقارب طوله المترين ، وحوله بضعة جلدات ماعز . وغير بعيد من الدكة كان هناك مخزن للطحين .

اقترب الاسطة منه وغرف بمغرفة معدنية حفنة منه ، ثم راح يهيله على ذلك الطبق الخشبى . ثم ذهب من بعد الى القدر الذى كان يخلط فيه الطحين المقلى بالدبس الفائر فراقب العمل هناك برهة ، وعندما اصبحت العجينة كثيفة ، صاح :

– يكفى ! هيا بها الىّ !

وراحوا يصبونها بمغارفهم الخشبية على الطبق الكبير .

وهنا انتبه الاسطة لوجودنا فسألنا :

– ما الذى تريدانه ؟

مد اخى يده بالتينغ اليه ونقل له تحيات والدنا :

– ارسلنا والدى لآخذ عمود حلاوة .

– حلاوة الصباح بعتها كلها فى السوق . انتظرا ريثما ننتهى قريبا من تحضير حلاوة طازجة . اما الآن فاجلسا هناك لتريا كيف يجرى تحضيرها .

كانت العجينة تنفرش على الطبق الخشبى .

وذهب الرجال الذين كانوا امام القدور فغسلوا اذرعهم حتى مرافقهم ثم جاءوا وجلسوا على الجلدات حول الطبق الخشبى ، وبينهم الاسطة ايضا ، بينما وقف شاب قرب مخزن الطحين وفى يده المغرفة .

فتل الرجال العجينة حتى احالوها الى قصبة طويلة ، ثم ربطوا نهايتيها فاصبحت حلقة دائرية ، وظل الرجال فترة طويلة منحنين

على الطبق الخشبى يعجنون فيها حتى انبسطت وكادت تصبح بمستوى الطبق . فحمل الشاب مغرفة طحين آنذاك واهالها على الحلقة . لف الرجال الحلقة وجعلوها طبقتين . فرش الشاب مرة اخرى الطحين عليها . ثم لفها الرجال ثانية وجعلوها اربع طبقات ، ومرة اخرى جلب الشاب مغرفة طحين ورشها عليها . واستمر الرجال فى عملهم هذا والحلقة تضيق وتزداد سمكا ، فى المرة الثالثة اصبحت الحلقة من ثمانى طبقات ، فى الرابعة من ست عشرة طبقة ، فى الخامسة من اثنتين وثلاثين طبقة ، فى السادسة من اربع وستين طبقة ، فى السابعة من مائة وثمانى وعشرين طبقة ، فى الثامنة من مائتين وست وخمسين طبقة ، فى التاسعة من خمسمائة واثنتى عشرة طبقة ، وفى العاشرة من الف واربع وعشرين طبقة !

هكذا كانت الحلاوة تحضر طبقة فوق طبقة . . مكررين ذلك خمس وعشرين مرة .

وليس الا بعد ذلك اعلن الاسطة متخففا :

– كفى !

ثم تناول سكينا وراح يقطع هذه الحلقة قطعا الواحدة منها بطول الذراع تقريبا .

وضع احدى القطع فى كفة الميزان المنصب على زاوية الدكة فلم تنزلها ، اقتطع لها اضافة ، فكان الوزن مضبوطا الآن .

ثم لف القطعة الكبيرة فى ورقة واعطاها الى اخى :

– خذها الى ابيك .

اما القطعة الصغيرة فقد اقتسمها نصفين واعطى كل منا احدهما :

– وهذه لكما .

فاسرعنا الى البيت عائدين والمساء يحث خطاه امامنا .

الرمال المتحركة

وكان الربيع . واشجار المشمش ازهرت فى حديقتنا .

وراح فلاحو محلتنا بالا يعزقون الارض ويحفرون الجداول ويشذبون الكروم .

والاولاد يرعون قطعانهم او قطعان مخدوميهم ، المكونة من الابقار والثيران والخراف ، فى الشواطئ والحقول المزهرة التى لم تحرث بعد .

وفى احد هذه الايام تقت الى الخروج من حديقتنا الى خلاء البادية الشاسع . فدعوت اخى لمشاركتى بهذا فوافق ، الا انه ارسلنى انا لآخذ السماح لذلك من والدى ، فالتمستـــه فى البدء من والدتى فقالت :

– اذا سمح لك ابوك فلا مانع عندى .

ذهبت الى والدى .

كان يعمل فى دولاب طاحون تحت الستارة ، يضع نظارتيه امام عينيه ، ويحفر فى الدولاب بانتباه شديد مكانـــا للريش . فبادرنى بالسؤال :

– ها ، ماذا عندك من اخبار ؟

– نريد الذهاب الى البادية ولقد جئت اطلب منك السماح .

– مع من ؟

– مع اخى .

– لن يذهب اخوك الى اى مكان ، فهو لم يدرس طيلة اسبوع كامل . ومن غير ان يفعل ما عليه لا نزهة له ولا لعب . اختبره ثم ليذهب اينما شاء .

– وهل تستطيع ان تاتى انت معى ؟

– اذهب لوحدك . لا تخف ، الذئاب لن تاكلك . وفى الحقول هناك شباب كثيرون . واخوك ايرغاش يرعى القطيع على الشاطئ .

وخرجت الى البادية حيث الفضاء والاتساع ، بل حتى الهواء بدا لى هنا اكثر عذوبة مما هو فى حديقتنا . كانت الانسام الباردة محملة بشتى الروائح العبقة . وبواكير الشعير والحنطـــة تفرش الارض القائمة بالخضرة . والعشب الطازج وكثبان الازهار البرية تحتفل متالقة على الشواطئ بكثافة شديدة .

وكان الشباب الذين عادوا بحميرهم من الحقول بعد ان افرغوا احمالها هناك من السماد يقيمون سباقات الجرى ، او يتركون حميرهم على الشاطئ تتلذذ بالعشب فيما ينطرحون هم للراحة قرب الماء .

ذهبت الى الشاطئ مباشرة . وكان بيتنا يرى من خلال اغصان شجرة توت مشذبة . لم يكن حولى احد ، ليس غير طيور السنونو تحط على الاغصان الخضراء ، فيما تزقزق العصافير بين الاوراق المتفتحة فى التو . ذلك الهمس الذى تتبادله الطيور فيما بينها ، والنسيم البارد الفواح ، كانا مبعث سرور عظيم لقلبى .

كان الرعاة الصغار يتبارون فيما بينهم على تلال الرمال العالية فى الجانب الآخر من القناة ، وبينهم اخى الكبير ايرغاش . كنت انظر نحوهم من هذا الجانب ، وكان الماء عاليا فى القناة يخشى اجتيازه . الا ان ايرغاش ناداني صائحا :

– تعال الى هنا ! تعال !

وركض حتى الشاطئ ثم وقف امامى داعيا :

– هيا ، الماء هنا لا يصل الركبة ، لا تخف !

شمرت اذيال سروالى الى اعلى وعبرت القناة خوضا . ثم ذهبت مع ايرغاش الى الشباب . كانوا قد كفوا عن المباراة بالمصارعة وبدأوا لعبة اخرى . الا ان الرمل الناعم الاحمر شبيه الطحين كان رخوا لدرجة ان الاقدام كانت تغوص فيه عميقا ، فكان الشباب يخوضون فيه ويتساقطون عليه . سرعان ما اتعبتهم هذه اللعبة فتمدد البعض على الرمل تحت شمس الربيع الدافئة فيما مضى البعض الآخر وراء قطعانهم .

كان يعجبنى التمتع بمنظر الحملان وصغار الماعز ، كانت تتقافز على الرمل بهدوء مثلما يفعل الصبيان ، فيرتمى احدها على الآخر ، ويطارد بعضها بعضا . اما الحملان التى تتأخر عن امهاتها فقد كانت تجرى وراء القطيع وثغاؤها يتصاعد منها متشكيا .

سأل ايرغاش :

– هل تريد ان تحمل شيئا لوالديك من هنا ؟

– وماذا استطيع ان احمل لهما من هنا ؟

– هل ذقت الفطر مرة ؟

– لا ، لا اذكر .

– الفطر الآن موجود على الرمل بعد مطر الامس بكثرة . لقد جمعت كيسا منه للبيت ، هل تريد ان نجمع لك ايضا ؟

افرحنى ذلك وهتفت :

– هيا !

اخذ ايرغاش عصاه وسرنا سوية .

مررنا بتلين من الرمال ، وعلى التل الثالث راينا الرمل وقد انتفخ وارتفع قليلا . اخترقه اخى بنهاية عصاه فتكشف الرمل عن الفطر ، جمعت منه ما ملأ رفرف صايتى ، فقال لى ايرغاش :

– هيا ارنى ما جمعت !

والقى نظرة ثم قال :

– هيا ، اطرحه على الارض !

طرحته على الارض فصنف الفطر الى قسمين . الفطر اللحمى ذو الساق القصيرة الى جانب ، والآخر الرقيق الطويل الساق ذو القبعة العريضة الرقيقة الى جانب آخر . الفطر اللحمى كان قليلا ، اشار ايرغاش نحوه وقال :

– هذا يمكن اكله ، وهو لذيذ . اما تلك فهى مرة وسامة ، لا تؤكل .

مررنا بتلين آخرين جمعنا منهما ملء طاقية فطرا جيدا . كانت الريح فى هذه الاثناء قد اخذت فى الاشتداد وما كدنا نصل القناة حتى كانت تثير الغبار .

بدأت الدواب تتململ وتفقد سكينتها . جأرت الابقار وبالكاد استطاع الرعاة لمّ قطعانهم ومنعها من الجرى .

جمع ايرغاش قطيعه وساقه الى القناة فيما صاح احد الرعاة وهو يقف على التل :

– الرمال بدأت تتحرك !

ركض ايرغاش الى التل ، فجريت فى اثره .

كانت الريح تهب من جهة الشمال الشرقى . ادرت ظهرى لها حتى استطعت بلوغ التل بصعوبة شديدة . وتحرك الرمل ، كماء آسن ، وقد ايقظته الريح نحونا شيئا فشيئا . زحفت طبقاته العليا نحو الشاطئ وانزلقت الى المياه . ثم بدأت طبقات تلال الرمل السفلى بالتحرك والزحف ايضا .

تصاعدت الريح واظلمت السماء من الغبار .

ساق الرعاة قطعانهم الى القرية ، وركضت الدواب الى مهاجعها يلفها رعب فظيع ، كأن وحوشا تطاردها .

وجريت بدورى الى البيت ممسكا بقوة بالطاقيـــة المملوءة بالفطر . لم تكن ارض الحقل رخوة مثل الرمال ، كما ان الريح كانت تضرب الظهر بقوة ، ولذلك فقد سهل السير علىّ . الا انه لم يتبق حولى شىء من ذلك الجمال والهدوء اللذين استقبلنى بهما الحقل فى الصباح . فقد عتمت الخضرة وذوت بواكير الزرع .

عدت الى البيت ووالدى ما يزال يواصل الحفر فى مواقع ريش الدولاب ، كان منهمكا فى عمله بحيث لم يجد الفرصة ليسألنى اين كنت ، ماذا رأيت ، وهل تمتعت بنزهتى . وقفت الى جانب والدى برهة ، ثم مضيت الى والدتى واعطيتها الفطر .

– قلّيها بسرعة ، اريد ان آكل .

فهتفت امى :

– ما اكثر هذا ! انه يكفى الجميع .

كان اخى يجلس فى الزاوية يحضر دروسه فرفع رأســـه وحذرها :

– لعله جمع فطرا ساما !

فرددت عليه متفاخرا :

– اننى اميز جيدا بين السامة والتى تؤكل .

واكدت ذلك امى :

– كلها جيدة ، كلها تؤكل !

حملتها الى الموقد ، ثم نظفتها هناك وقلتها بالدهن .

عندما اوشك المساء على الهبوط كان والدى قد انتهى مـن عمله ، الا ان المساء هذا اليوم جاء مبكرا . اشتدت الريح . وبدأ مطر الرمال . وسرعان ما غطى الارض . اغلقنا الباب بقوة واضأنا الفانوس . ورغم ذلك فقد كان الرمل يندفع من خلال شقوق الباب كأنه الماء .

فى ذلك المساء تمتعت عائلتى لاول مرة بثمار عملى . وما ان اكلت الفطر حتى اخذتنى سنة من النوم فقد كان تعب النهار شديدا .

استيقظت فى الصباح على صوتى والدى ووالدتى ، كانا يتحدثان بانفعال عن الرمال التى غطت الكثير من القرى واهلكت الكثير من

الزرع . ثم اتضح ان كروم جدى قد زحفت عليها الرمال ايضا .

قال والدى لامى :

– هيا حضرى الشاى بسرعـــة . يجب الاسراع بالذهاب الى ابيك .فلعلنا ننقذ بعضا من كرومه . بل يجب تحصينها ضد ما سيحدث فى المستقبل ايضا .

جريت الى الشارع .

كان الصباح هادئا مشرقا والريح تهب رخية ناعمة . ولكن حديقتنا كلها والباحة تحولتا الى صحراء تنغرس الاقدام فى رملها .

اما ازهار المشمش فقد كانت تذكر النحل الميت . كانت الخضرة غارقة فى الرمل ، والحديقة التى كانت تبهج العين امس وحسب بدت الآن وكأنها تتشح بالسواد حدادا .

طلب والدى من امى ان تحضر له الفأس والمنشار والمعزقة . ثم ارتدى صاية الشغل وتهيأ للخروج فالتمست منه ان اذهب معه . وافق والدى قائلا :

– حسنا ، امس رأيت الارض حية واليوم ستراها ميتة . مفيد ان ترى هذا وذاك فى الحياة .

ذهبنا الى جدى .

وجدنا هناك اخوالى : قربان نياز ، روشان نياز ، ونياز خان . وكان خالى على خان يتهيأ لتحميل حماره بكيس من الشاى لاخذه الى السوق وبيعه هناك . فقال له والدى :

– لماذا لا تبقى معنا نكافح مصيبتنا المشتركة ؟ ايمكن فى مثل هذا اليوم التفكير بالسوق ؟

فاجاب على خان :

– لا ناقة لى بالحديقة ولا جمل ، المهم السوق !

دمدم والدى بصوت واطئ :

– ما اسود قلبك يا اخ !

صاح جدى على والدى من البيت :

– عمّ تتحدث معه ؟ وهل يمكن الحديث مع هذا الشخص ! انه ليس انسانا بل خنزيرا !

بدا ان جدى وخالى قد تخاصما بسبب حديقة الكرم .

تناول بقية اخوالى الفؤوس والمعازق والرفوش ومضوا الى

عملهم . ثم اجلسنى جدى خلفه على الحمار بعد ان وضع الخبز والشاى والابريق والاقداح فى الكيس امامه . وسار الجميع الى البادية .

كانت جدتى تقرأ الادعية والصلوات وهى تودعنا ، سائلة المولى ان يعيننا على رفع البلاء عنا ويسدد خطواتنا فى طريق الفلاح .

صراع مع الرمل

حديقة جدى وحقله يقعان على حافة بادية كوكو . تمتد بادية كوكو من قرية محلة بالا الى الشرق حتى تلامس حقول قرية قره خانى . وهى واقعة الى جنوب وادى شافريكان القديم ، ومن قبل كانت تعتبر من المناطق المزودة بالمياه جيدا . عندما وصلنا البادية لم نر شيئا غير الرمل . وفى الشمال الشرقى ظهرت تلال رملية كبيرة كانت تتدرج بالصغر الى الجنوب الغربى . وبعد ذلك كانت طبقات الرمل مترسبة بعمق يصل حتى الركبتين .

كان الناس ينتشرون فى البادية مثل النمل ، يعيدون ربط اغصان العنب ، وكانوا قد ازاحوا الرمل عن مزارعهم مرتين ، ومرتين كان الرمل يعود فيغمرها مجددا . اما الآن فكانوا ينقلون الرمل مرة اخرى من اراضيهم بعيدا عنها باكياس على ظهور حميرهم وعلى العربات اليدوية وعلى ظهورهم .

وصلنا مزرعة كروم جدى . كانت عنده مزرعتان ، الاولى بلا سياج مساحتها نصف ديسياتين* . اما الثانية فقد كانت مسيجة بطوف ارتفاعه متران تقريبا بمساحة تبلغ نصف مساحة الاولى .

اتضح ان المزرعة الاولى لم تعد غير تل رملى كبير . وكان الرمل فى المزرعة الثانية المسيجة قد غطى جدولها ثم استقر على جوانبها متصاعدا بالتدريج حتى اخفى سياجها وتجاوزه مغطيا ثلث مساحتها .

ورغم ان الريح كانت هادئة الا ان الرمل كان يواصل الزحف ،

---

* وحدة قديمة لقياس المساحة تساوى ١,٠٩٢٥ هكتار . المترجم .

ولو ببطء ، منتشرا كالماء اكثر فاكثر ، غامرا بمده الناعم اغراس الكروم الفتية .

بسط جدى بطانية واكياسا تحت شجرة صفصاف كبيرة تطل على حفرة كانت من قبل بركة مياه . لم يكن قد مضى غير يومين وحسب على تمتعه هنا بمنظر المياه وهى تتلامع بين الاغصان . اما الآن فقد اندثرت البركة ، كما اندثرت القناة . فيما ارتفع مكانهما تل رملى كبير تلامس قمته اغصان الشجرة .

طلب والدى من اخوالى ان يقتطعوا اغصان اشجار الحور والصفصاف والتوت ، ويجلبوها نحو سياج المزرعة ، وينقلوا جزءا منها الى المزرعة الكبيرة التى بغير سياج .

نظف والدى الاغصان بسكين ، ثم جمع اعوادها الطويلة وغرسها فى صف واحد بين سياج المزرعة والرمل من الخارج . اما الاعواد الصغيرة والالياف فقد ضفرها بعضها مع البعض صانعا بها ما يشبه السلة ، بعد ذلك قال والدى :

— اذا استطعنا اخراج كل الرمل هذا اليوم فالمزرعة تسلم من الهلاك .

ذهب والدى الى المزرعة الكبيرة ، وانا وراءه بالطبع .

فغرس الاعواد هنا ايضا فى الرمل . اما اخوالى فقد ضفروا الاغصان .

استغرق هذا العمل فترة طويلة ، وليس الا بعد الانتهاء منه اجتمع الجميع حول جدى وبدأوا ياكلون .

واعلن والدى عازما على الرجوع الى البيت :

— يمكننى الآن ان اذهب . باستطاعة ابنائك الآن ضفر اعواد السياج ، يمكنهم ان يفعلوا ذلك من غيرى . اما اخراج الرمل كله من المزرعة فهذه شغلة طويلة متعبة . اجلس انت وارتح وابناؤك سيقومون بذلك وحدهم .

شكر جدى الطاعن فى السن والدى على مساعدته له وودعه . اما خالى قربان نياز فقد قال لوالدى :

— يا ليتنى كنت فى مثل صلابتك ومثابرتك !

فرد والدى :

— هذا عمل بسيط ! وما دامت الرغبة الخيرة موجودة فان كل

الصعاب تذلّل بالعناد . التنابلة والكسالى لا يعرفون كيف يجعل العمل الانسان قويا ، واى سعادة يجلب له . لو عرفوا ما تقاعسوا !

عدنا الى البيت . اختار والدى طريقا اخرى للعودة . فقد سرنا اعلى القناة التى غمرتها الرمال ، حتى وصلنا الى قرية بالاى رود . . وبدل القرية ، الجميلة البناء ، التى رأيناها فى الامس راينا بيوتا مهدمة ميتة دفنها الرمل . وهنا وهناك تلوح بعض سقوف البيوت بارزة فوق الرمل . وكان ثمة نساء واطفال يجلسون على اكوام الرمل ، بعد ان فقدوا بيوتهم بين عشية وضحاها . وامامهم بطانياتهم وقد شدوا بها بعض الحاجيات ، ووسائد ، وقدور ، واوان .

فقال والدى متفكرا :

– يبدوا ان الرجال ذهبوا الى القرى المجاورة بحثا عن ملاجئ لهم .

وصلنا بيت الاسطه باروت ، لم يبق منه غير سقفه ، وكان الرمل يغمر هذا البيت ، حيث كانت الحلاوة تحضر فيه ، من ثلاث جهات حتى السقف . ليس الا من جهة الجنوب ظل مفتوحا . كانت البوابة والسياج مغمورين ايضا بالرمل . فكان يمكن الوصول الى البيت من جميع الجهات بمجرد صعود الرمل المحيط به . نزل والدى الى البيت وصاح :

– اسطه باروت ! اين انت ؟

– هنا ! نجلس احياء فى القبر مع الاولاد .

خرج الاسطه ، من ذلك الباب الذى دخلنا منه عندما جئنا لشراء الحلاوة قبل فترة وقال لنا :

– عندما بدأ الرمل يزحف نحونا ، اخذت الاطفال وزوجتى وما املك من بيت السكن الى هذا المحل . ثم صعدت مع اولادى الى السقف ورحنا نقذف من هناك الرمل بالرفوش كالثلج . وهكذا استطعنا على الاقل الحفاظ على السقف فوق رؤوسنا .

كانت عيناه تتلامعان بالدموع . فطيب والدى من خاطره :

– لا داعى للتشكى فان بعضهم قد بقوا بدون مأوى على الاطلاق .

وما ان هدأ قليلا ، حتى واصلنا سيرنا . .

لم يعد بالقرب من بيت الاسطه باروت لا القناة ولا الجسر ، ولا النهر ، ولا الطاحونة ! فقد انهار بناؤها تحت ثقل الرمل ، واندفن كل شىء تحته . ولم يبق فى مكانها غير تلال الرمال الكئيبة وحسب .

فى البيت وجدنا عمى اسطه خوجا . كان قد ذهب قبل بضعة ايام الى قرية تيزغوزار المجاورة لبناء بيت ما ، وقد عاد هذا اليوم . اخبرنا :

– حقول باقى الافضال ، تيزغوزار ، قرية كاراغاج بكل حقولها ، عبد الله جان ومحمد باقى وقسم من كاجيغوران ، مدفونة كلها بالرمل . يقال ان الرمل وصل حتى قرية سعيدة وفاردانزا . قال والدى :

– والقناة ايضا لم تعد موجودة اذ انها مغمورة كلها بالرمل . ولكن حتى تلك الامكنة القليلة التى نجت ربما من شر الرمال لا يمكن احياؤها ، فمن اين تاتى بالماء اللازم لذلك ؟ يمكنك اعتبار منطقة شافريكان كلها قد اصبحت من غير ماء وتحولت الى صحراء ميتة فى غضون ليلة واحدة .

سألت امى عن وضع جدى ، ثم اضافت :

– تركت اعمالك اليوم من اجل والدى ، فى الوقت الذى اردت فيه كما قلت الانتهاء من ذلك الجرن الذى بين يديك .

ابتسم والدى لكلمات امى وقال وهو يهز راسه :

– هذا الجرن اوصى عليه الطحان واعطانى عربونا عنه عشرين تينغا . وعدته ان انتهى منه فى بحر اسبوع لكن هذه الدواليب الآن لم تعد لاحد حاجة بها . رايت الآن بام عينىّ كيف اندثرت تحت الرمال الطاحونة والجدول . والحقيقة لم اعد اعرف من اين يمكننى الحصول على النقود لارجع للطحان عربونه .

ثم راح يراجع مع اخى دروسه ، فى الوقت الذى انشغلت فيه امى باعداد الشاى له .

فى قرية ساكتاره

قبل ان ابدأ حديثى عن حياتى فى ساكتاره يتوجب علىّ ان اصف بيتنا فى هذه القرية .

يقع هذا البيت فى زقاق يمتد حتى مشارف القرية الشمالية ،

بجانب الجامع . وكان هذا الزقاق يضم ايضا حديقة تابعة للجامع ، ومدرسة ، وبعض البيوت ، وبيتنا الذى تنفتح بوابة باحته عليه .

لم تكن باحة بيتنا تعود لعائلتى فقط ، بل كان يشترك فيها كل اقاربنا واتباعهم ، طولها يقارب مائتى متر وعرضها يصل المائة وخمسين مترا . وكانت مقسمة الى اربع اجزاء ، الاول – المواجه للبوابة – يعود لنا ، والثلاثة الباقية تعود لعم والدى (اخ جدى) ولابناء عم والدى .

كانت هذه الباحة معزولة من جانب الجامع وحديقته بجدار واطئ . ومن الشرق والغرب يفصلها عن الجيران جداران من الطوف . اما من الشمال فقد كان يحميها جدار عال من الطابوق من البادية ، وكان لكل قسم من هذه الباحة بابه الخاص المؤدى الى البادية مباشرة .

جارنا الشمالى القريب كان عم والدى عبد الله خوجا ، الذى كان له من العمر تسعون عاما على قول اهلى . فى باحته يرتفع بيتان ، احدهما نصف مهدم ، تسكن فيه كنته واختها . والثانى شامخ ، على اعمدته نقوش مثلما فى الجامع ، وهنا كان يعيش هو نفسه فى غرفة الضيوف .

كان عبد الله خوجا يعمل فى السابق نجارا ، ويفلح بنفسه قطعة ارض متواضعة . اما ابنه فقد كان انسانا طائشا لا يعتمد عليه ، لم يهتم لا بحرفة النجارة ولا بفلاحة الارض . وعندما كبر عم والدى واخذ يشعر بالعجز باع مع ابنه ارضه وراحا يعيشان على ما كسباه من هذا البيع . وفى ذلك الوقت الذى اتذكره الآن لم يكن لعم والدى دخل ثابت ، بل كان يعيش على ما يمنحه اقرباؤه له . كان يجلس صامتا اياما عديدة فى غرفة الضيوف لا يخرج منها الا لماما ، وبدون رغبة منه .

اما ابراهيم خوجا ابن عبد الله خوجا فقد كان يعيش متنقلا من قرية الى اخرى . كان يعرف القراءة والكتابة . وقيل عنه انه يمارس الشعوذة والسحر ، ولكنه كان واضحا انه لم يفلح حتى فى هذه الشغلة السهلة . كان ياتى الى البيت مرة كل اسبوعين او ثلاثة . غير ان ما كان يجلبه الى البيت معه لم يكن يكفى حتى لاطعام بناته

وزوجته واخته التى تعيش معها . اما والده ذو التسعين عاما فلم يكن يعطيه شيئا . فكان والدى ينعت ابراهيم خوجا بالمتبطل التعيس . وفى احد الايام عذل والدى ابراهيم طويلا على سوء معاملته لابيه الطاعن فى السن :

– النبى ابراهيم قدم ابنه ضحية للرب ، اما انت فتضحى بابيك من اجل هواك ! قليلا من الخجل ! ولتلعن الدنيا كلها امثالك من الناس !

الا ان ابراهيم خوجا لم يرد على والدى بغير ابتسامة غاضبة . ثم ركب حصانه وذهب يتنقل بين القرى من جديد .

كانت هناك عجوز اسمها توتا-باشا * تعيش عند باب عم والدى لم اكن اعرف اسمها الحقيقى . وكان كل من يسمع بكنيتها يتصورها تجلس على جبل من البطانيات ، ترفل بالحرير والقطيفة ، وتأمر الخدم بعجرفة . ولكن الحقيقة كانت على العكس من ذلك تماما ، كانت ترتدى ثوبا مهلهلا مرقعا ، ولا شىء عندها غير جلدة عنز ممسوحة ، وبساط ممزق ، وبطانية حائلة اللون ، ومخدتين او ثلاث .

قيل عنها انها تجاوزت بعمرها الثمانين ، حتى ظهرها الكبر ، ولم تكن تستطيع النهوض تقريبا ، فكانت طيلة الوقت مضطجعة ، وتحت راسها مخدة كبيرة ، واخرى بنفس الحجم تحت قدميها ، محاولة بذلك اراحة جسمها الاحدب . كانت توتا-باشا زوجة لعم آخر من اعمام والدى ، وهو عبد القدوس خوجا الذى مات منذ زمن بعيد . اما ابنهما شرف خوجا فقد اضاع ارضه على ملاذه ، ورحل بعد ذلك الى قريب له فى مدينة كارشى . الا انه لم يكف عن تبطله حتى هناك .

ولكنه كان ياتى كل عام لرؤية امه ، اما البقاليات التى كان يجلبها اليها معه فقد كانت تكفى بالضبط على عدد الايام التى يبقى فيها معها . وبعد سفره يقوم الاقارب والجيران باطعام توتا-باشا .

فى القسم الاخير من ساحتنا عاش ابن عم والدى هدايت خوجا ، وعمره قرابة خمسين عاما . كان يعرف القراءة والكتابة ، دمث الاخلاق ، ويجيد حرفته النجارة بشكل بديع ، بل قيل انه لم يوجد

---

* حرفيا تعنى : العمة-الاميرة . **المترجم** .

من يضاهيه حتى فى بخارى نفسها . ولهذا السبب فقد كان يدعى بالاسطه خوجا .

جاءه من زوجته الاولى ابنان ، البكر سعيد اكبر ، من اتراب اخى ، تتلمذ معه على يد معلم القرية . الثانى اكرام خوجا ، لم يعرف القراءة والكتابة جيدا ، وكان يساعد والده فى اعماله . ولما ترمل اسطه خوجا تزوج امراة اخرى فجاءته منها بنتان . كانت ابنتاه آنذاك جد صغيرتين . اما زوجته فقد كانت شديدة الاعتداد بمحتدها ، بحيث لم تكن تفعل شيئا آخر غير الطبخ . كان المشمش يظل مرميا فى الباحة حتى يتعفن ولا تمد يدها اليه لتجمعه وتجففه .

ورغم مهارة اسطه خوجا الا انه لم يعش افضل منا ، ولكنه كان يساعد من كل قلبه توتا-باشا وعبد الله خوجا ذا التسعين عاما .

فى ذلك العام الذى نضب فيه الماء فى شافريكان ارسلنا والدى مبكرا جدا من محلة بالا الى ساكتاره ، رغم اننا كنا من قبل نحل فى هذه القرية منذ نضوج التوت فى اشجاره . اما فى هذا العام فلم يكن التوت قد لحق بعد حتى على الانتفاخ قليلا .

فى ساكتاره راح اخى يدرس مع سعيد اكبر خوجا عند معلم القرية ، اما انا ومن كان فى عمرى فقد كنا نقضى اياما كاملة فى القنوات والجداول التى كانت هذه القرية ملأى بها .

قرر والدى ان لا ينقلنا الى محلة بالا حتى فى الشتاء ، حيث كان الناس يسيرون مسافات بعيدة لجلب الماء من الآبار .

هدم والدى بيتنا القديم فى ساكتاره وبنى آخر جديدا ، اضاف له مرافق اخرى ، وقد ساعده فى ذلك اسطه خوجا . كما ساعده ايضا الى حد ما اخى واكرام خوجا . الا ان سعيد اكبر امتنع عن ذلك بحجة انه يريد ان يصبح خطاطا ، وانه يخشى على يديه ان تخشوشنا من العمل بالطين والطابوق فيسوء خطه .

توتا - باشا

كان شاغلنا الشاغل فى ذلك العام ، انا واصدقائى : حميد خوجا وابنتا اسطه خوجا ، زيارة توتا-باشا . كانت تقص علينا

حكايات ، وقصصا ، وحوادث غريبة ، ونحن تستمع اليها باقصى انتباه . كانت تحفظ على الغيب الكثير من الاساطير وسير المشاهير امثال رستم واسفنديار وسيافوش وابى مسلم .

كنا نحمل اليها ارغفة الخبز او المشمش المجفف او اى شىء آخر تاكله فتقص علينا مقابل ذلك اقاصيصها العديدة وهى مضطجعة على مخدتيها . اما نحن فقد كنا ننسى امام هذه الاقاصيص العالم المحيط بنا ، وجسدها الاحدب المغطى ببطانية رثة والجدران المعتمة لبيتها الخرب . كانت توتا-باشا تاخذنا بحكاياتها من ايدينا وتقودنا الى مملكتها الساحرة الخلابة .

قصت علينا فى احد الايام حكاية «الفلاح الكدود والملاك الطماع» ما زلت اذكرها حتى الآن .

قالت توتا-باشا :

«كان يا ما كان ، فى قديم الزمان ، ملاك ارض كاذب طماع . كان يجبر فلاحيه وخدمه على العمل دون مقابل . وعندما كان هؤلاء يطالبونه بدفع اتعابهم كان يحتال عليهم بشتى الوسائل والطرق فيخرجهم منه مدينين اليه . حتى لم يعد فى امكانهم التخلص من شباكه ابدا . بل حتى عندما كان احدهم يتمكن من دفع ما عليه من دين مختلق كان هذا الطماع يجد مختلف الحيل لاخافتهم وخداعهم فيشدهم اليه من جديد ، بحيث لم يستطيعوا التخلص منه حتى نهاية اعمارهم .

وعندما مات جميع فلاحيه ، وبقى وحيدا فريدا ، لم يتقدم احد منه ولم يرضَ بشر على الاشتغال عنده ، مهما احتال ومهما حلف على الدفع بالعدل كانوا يسمونه الكاذب المحتال وقد ذاع عنه هذا الصيت حتى انتشر فى كل البلاد بحيث عرف الجميع بأمره .

وفى احد الايام جمع كل فقراء القرية قرب الجامع واقسم امام الملا انه سيدفع بالعدل والقسطاط لكل من يتقدم للعمل عنده . ورغم ذلك لم يصدقه احد .

فاستدعى آنذاك الى بيته يتيما فقيرا من اهل تلك القرية . قال الملاك له :

– يا بنى ، انت بلا اب وانا بلا ابن . اذا انتقلت الى بيتى

جعلتك ابنى وزوجتك من ابنتى الوحيدة بعد بلوغها . وبعد موتى ترث كل ما عندى .

واحضر ابنته التى كانت لها من العمر خمسة اعوام وقال :

– هذه البنت الجميلة ستكون زوجتك بعد بلوغها .

وافق الشاب ، وفى نفس اليوم انتقل الى بيت الملاك ليعمل فيه .

مرت الايام والشهور والسنوات . والشاب لم يحنث بوعده فعمل عند الملاك بكل نزاهة . واعطى الكثير من اهتمامه ابنته ، فصنع لها اللّعب ، وقص عليها الحكايات ، وآنسها كثيرا .

تعلقت الفتاة بالشاب الرقيق الطيب . وعندما كبرت تعلقت به اكثر بل وحبته . اما الشاب فقد كان كلما غادر البيت الى الحقل تلفت الى الوراء وكانه ترك فيه جوهرة . وكان يعمل احسن فاحسن معتقدا ان هذا سيقرب يوم العرس الموعود .

اما الملاك فقد كان يعامله بالطيب والاحترام . عندما يرسله الى الحقل لا يأمره بل يطلب منه ذلك . وهكذا اخذت الفتاة تقنع الشاب لكى يرسل احدا الى ابيها يعجّل فى موعد الزفاف . اما الشاب فكان يقول لها ان الافضل ان ينتظرا ريثما يقيم الاب نفسه حفلة الزواج دون طلب منه .

وعندما بلغت الفتاة السابعة عشرة من عمرها راح الخطاب يتقدمون اليها من كل صوب . فاقلق ذلك الفتاة ، فأمها كانت تستمع الى الخطاب وتتحدث معهم فى امر المهر ، دون ان تخبر احدا بشأن خطبتها الى ذلك الشاب .

فهمت الفتاة ان اباها لن يزوجها ابدا من الذى تحبه ، وان والديها يبحثان عن خاطب غنى يدفع لهما مهرا عاليا . فقالت الفتاة للشاب :

– واعرف اذا اعطانى والدى لآخر فاننى اقتـــل نفسى .

فاجابها الشاب :

– واعرفى انه ان اعطاك لغيرى فاننى سوف اقتل نفسى . –

وقام فى الحال وذهب الى الملا الذى جرى بحضوره الاتفاق بين الشاب والملاك ، طالبا وساطته فى الخلاف الناشب بينهما . وافق الملا وذهب الى والد الفتاة فقابله هذا ضاحكا :

– لا تتعب نفسك بعد الآن بهذا الامر . واذا جاءك الشاب مرة اخرى قل له اننى سارد عليه بنفسى .

بعد هذا ذهب الملاك الى الفلاح قائلا :

– يا بنى لا تحشر الغرباء فى قضايانا . ولا تهتم للخطاب فالفتاة لك اولا وآخرا . وما العمل اذا جاءوا لخطبتها ؟ نحن لا نريد ان نزعل احدا ولذلك فنحن لا نرد طلبهم بخشونة وانما نسأل مهرا يدفع كل الخاطبين عنها .

اطمأن قلب الشاب ، وطمأن قلب الفتاة . منذ ذلك الحين اخذ يعمل احسن فاحسن .

وفى احد الايام رأى الشاب قافلة من الجمال المزينة تقترب من باب الملاك ، بعض الجمال محمل باكياس الرز والطحين ، والبعض الآخر محمل بالحلويات والسكر الملبّس ، والبعض الثالث بملابس الحرير والاطلس والقطيفة . اوقفوا الجمال عند باب الملاك وراحوا يفرغون احمالها الى بيته ، ففهم الجميع ان الملاك اعطى ابنته الى احد الاثرياء ، وان كل هذه الاشياء نيشان للبنت ، وان الزفة اصبحت قريبة .

فهم الشاب الفلاح هذا ايضا فشعر كما لو ان السماء سقطت على رأسه ، فقرر ان يقتل نفسه ولكنه فكر من بعد : «استطيع ان الحق لاقتل نفسى ، ولكن ما دامت الروح حية يجب ان احقق ما اريد واذا فشلت فليكن الموت نصيبى» .

وفى الوقت الذى كان الجميع فيه مشغولين بتفحص الهدايا والملابس التى جلبها العريس ، دخل الشاب الى البيت واخذ الفتاة جانبا ، كانت تغرق فى دموعها ، وارته تحت منديلها خنجرا :

– اننى انتظر اللحظة المناسبة لانزاله فى صدرى !

– فكرت انا بهذا ايضا الا اننى وجدت الوسيلة التى تنقذك وتنقذنى .

وما ان سمعت الفتاة هذا حتى ضمت الشاب الى صدرهـــا وقبلته لاول مرة فى حياتها .

– قل لى بسرعة : بماذا فكرت ؟ والا فان الفرح سيقتلنى قبل ان اعرف كيف سننقذ نفسينا !

– اصبرى ، وتظاهرى انك مسرورة بالعرس . ساختار الوقت

الملائم للتسلل اليك والهرب سوية . لن احضر هذه المأدبة ، ساعد العدة بذلك ، وبعد المأدبة ساقابل والدك واطلب منه ان يفنى حق ما عملت عنده طيلة اثنى عشر عاما ! فاننا سنحتاج لهذه النقود بادئ الامر .

اختفى الشاب بعد هذا الحديث من القرية ولم يظهر فيها الا بعد اسبوع من اقامة المأدبة .

وكان الملاك والملا وبعض الاغنياء الآخرين جالسين سوية قرب الجامع ، تقدم منه الشاب الفلاح :

– اكلت من ملحك وزادك الكثير وعملت القليل ، اما الآن فاريد ان تسرحنى . واذا اعطيتنى ما استحقه عن عملى فهذا سيكون آخر صدقة منك .

فسأله الملاك بغضب :

– وما الذى تستحقه ؟

– اجرى عن اثنى عشر عاما من الشغل . والملا كان شاهدا على اتفاقنا .

لاح الدم فى عينى الملاك ولكنه ضبط نفسه واجاب :

– وماذا فى ذلك ، وما دمت تطالب بالعدل فليكن الدفع بالعدل . اخرجت فى الصباح من العنبر نصف كيس من الحنطة لحمله الى الطاحونة ، ولكن الوقت فاتنى ، فاذهب وخذ هذه الحنطة .

– وهل من العدل ان تكافئنى بنصف كيس حنطة مقابل عملى مدة اثنى عشر عاما ؟ ارى انك لا تخشى الله ولا تهابه !

شعر الملاك بالخوف عندما سمع تلك الكلمات ونظر الى الملا مستنجدا فاسرع الاخير لتقديم النجدة قائلا :

– قل لى ، اى اجر وعدك به الملاك عند الاتفاق ؟

– وعدنى ان يزوجنى من ابنته .

– هذا الوعد لا يمكن اعتباره اجرا . وهل وعدك شيئا من النقود او الاموال ؟

– كلا . . .

وقال الملا :

– حسنا . اذا كان الامر هكذا فان كل شىء يجب ان يكون كما يراه الملاك مناسبا لدفع اتعابك . فخذه شاكرا .

كاد الشاب ان ينفجر وهو يسمع هذا . ولكنه تدارك هذا وقد خطرت له فكرة ماكرة فقال بهدوء وهو ينظر الى الملاك :

– حسنا ، سآخذ هذه الحنطة . ولكن زوجتك لن تسمح لى باخذه من الباحة .

– ان لم تسمح لك لتخرج من البيت وتنظر نحوى ، فاؤكد لها كلمتى .

هرع الشاب الى باحة بيت الملاك ، اسرج جوادا هناك وقال لزوجة الملاك :

– امرنى سيدى ان احمل الحنطة الى الطاحونة وطلب منى ان آخذ ابنتكما لتلقى نظرة على الطاحونة قبل زواجها . اذهبى وقولى لها لتستعد بسرعة .

فقالت زوجة الملاك .

– انت تكذب ! انه لا يسمح لابنته مطلقا بالذهاب الى اى مكان بعد المأدبة برفقة فلاح .

– ان لم تصدقى اخرجى من البيت واساليه نفسه .

خرجت زوجة الملاك مع الشاب من البيت . فصاح الشاب :

– انها لا تصدقنى !

اشار الملاك آنذاك بيده الى زوجته : «لا بأس ، لقد سمحت !» .

ركض الشاب الى الباحة . ورمى كيس الحنطة على الجواد ثم اعتلاه هو ، واجلس وراءه الفتاة وكانت قد استعدت .

وما كاد الشاب يتجاوز بجواده الباب حتى الهب ظهره بالسوط . وحتى انتبه الملاك لما حدث وراح يطاردهما كان الشاب والفتاة قد اختفيا عن الاعين .

وفى مكان بعيد عاشا ، وحققا ما كانا يصبوان اليه» .

كانت توتا-باشا تتحدث بلغة بسيطة سهلة واضحة تأخذ بجماع القلوب وتسيطر على انتباه المستمعين اليها .

وانني لآسف لنسياني الكامل تقريبا طريقتها في السرد فقد مضى على استماعي اليها اكثر من سنتين عاما . ولذا فانى اسردها الآن بطريقتى الخاصة ولكننى ، وانا اتذكرها دائما ، احاول طيلة حياتى ان اكتب بابسط ما يمكن .

اننى اعتبر هذه العجوز ذات الثمانين عاما اول معلم لى . وعندما اتذكرها فاننى اشعر مجددا بالاسف عليها والامتنان لها .

احد الايام ، مساء ، وقد هبطت العتمة تماما ، طلبت امى منى ان احمل قدحا من عصيدة الرز بالحليب الى توتا-باشا . وعندما اوصلته لها سألتنى العجوز ان ابقى ريثما تنتهى من تناول العصيدة فارجع القدح معى كى تستطيع امى غسله مع بقية الصحون .

جلست الى جانبها .

وفى هذا الوقت دخل غرفتها اكرام ابن اسطه خوجا وجلس الى جانبى ، ثم طلب منها ان تقص علينا شيئا ما .

تعبت العجوز بعد ان سردت علينا حكاية او حكايتين . ولكن الاولاد امروا عليها ان تسرد لنا حكاية اخرى ، وبالاخص اكرام خوجا . احيانا ، عندما تفشل كل المحاولات معها لاجبارها على سرد حكاية ، يختطف اكرام خوجا المخدة من تحت راسها ويهرب بها ، فتشعر العجوز بالم شديد فى الظهر :

– لا استطيع بعد ، اشعر بالضعف هذا اليوم ، سآكل العصيدة وانام مباشرة .

واختطف اكرام خوجا قدح العصيدة وهرب به الى جانب قائلا :

– ان لم تقصى علينا شيئا ما اعطينك القدح !

فتوافق العجوز على مضض هذه المرة ايضا . وعدتنا ان تسرد على اسماعنا قصة مسلية ، اعطاها اكرام القدح ، فاكلت ما فيه من عصيدة . وقالت :

«ها كم هذه الحكاية «لكل قضية اوان» . كان يا ما كان ، تلميذ يعيش فى احدى حجرات مدرسة من مدارس بخارى ، كان عند هذا التلميذ صديق ، يدعوه دائما الى الطعام . وكان هذا التلميذ يحلم دائما بالحصول على شيء يدعو اليه صديقه .

وفى احد الايام حطت حمامة امام حجرته فقفز التلميذ بسرعة

واغلق عليها الباب فقبض عليها وذبحها . وبعد ان نظفها وغسلها دخل على جاره وقص عليه كل شيء طالبا منه ان يعطيه سمنا لقليها .

اعطاه جاره السمن ، فقلاها التلميذ فى القدر ، وذهب الى صديقه يدعوه الى هذه الوليمة .

وما ان خرج التلميذ الى الشارع حتى اصطاد جاره حمامة ، فاخرج الحمامة المقلية من قدر صاحبه ووضع مكانها الحمامة الحية ووضع عليها غطاء القدر .

وبعد فترة من الوقت عاد التلميذ بصحبة ضيفه ، فاجلسه فى مكان بارز . وغسل يديه ، وشمر ردنيه ، مستعدا لتقديم الطعام . غسل الاوانى ووضعها قرب الموقد ، وتناول الملعقة بيمناه فاتحا غطاء القدر بيسراه .

هبت الحمامة من القدر ودارت لها دورة ثم طارت من خلال الباب . اما التلميذ فقد كاد يفقد وعيه امام هذه المعجزة المفاجئة . اسقط الملعقة من يده ورفع ذراعيه نحو السماء هاتفا :

– اوخ يا ربى ! لك الحق فى احياء ما خلقت بعد الموت . ولكن لكل قضية اوانا ! ما الداعى لبعث الروح فى حمامة تحولت الى لحم مشوى فوضعتنى كالابله امام ضيفى ؟»

وقالت توتا-باشا لاكرام خوجا بعد ان انتهت من قصتها :

– وهكذا يا بنى ، وكما قال ذلك التلميذ ، وانت ايضا كان عليك ان تفكر ، أن للحكايات ايضا اوانها ، فلا يجوز ان تعذبنى وتطلب منى حكاية فى الوقت الذى اريد فيه النوم .

الافعى ذات الرؤوس السبعة

غالبا ما كانت توتا-باشا تلجأ الى الاساطير للتخلص من الحاح الاولاد . فتبدأ بالحديث عن الجن والشياطين والارواح الشريرة . فكان الاولاد فى البداية يصنتون اليها ويهدأون وقد شلهم الرعب ، ثم يهربون بعد قليل الى بيوتهم ، فتستطيع الاضطجاع آنذاك باطمئنان ، منثنية على نفسها ، وعيناها متوجهتان الى السماء .

اكثر قصصها رعبا كانت قصة «الافعى ذات الرؤوس السبعة» . ورغم ان هذه الافعى القبيحة الوقحة ، التى كانت تأكل

الاطفال ، تموت فى الاخير على يدى رستم فى جبل كاف * ، الا ان هذه القصة كانت تلقى الرعب الاكثر فى قلبى . لم يكن احد غيرى من الاولاد يجرؤ على البقاء للاستماع الى نهاية هذه القصة .

كان لتوتا-باشا ايضا مستمعون كبار بين مستمعى حكاياتها ، واكثر من كان يحب هذه الحكايات من هؤلاء زوجة ابراهيم خوجا وام اكرام خوجا التى كانوا يطلقون عليها اسم : سلطان-باشا .

كان بيت سلطان-باشا مجاورا لبيت توتا-باشا ، وكانت فسحتا مجلسيهما المرتفعتان متجاورتين فى الباحة . فكانتا تنامان سوية فى ليالى الصيف الدافئة على هذين المرتفعين المنبسطين .

لم تكن سلطان-باشا تحب الاستماع للحكايات العادية ولكنها ما ان تسمع توتا-باشا وهى تبدأ حديثها عن الجن والشياطين حتى تهب من فراشها وتاتى لتجلس بالقرب من العجوز .

بعد الاستماع الى هذه الحكايات تولدت عند سلطان-باشا رغبة سردها ثانية على اطفال ونساء اخريات ، ولكنها كانت تدخل نفسها فى عالم السحر والحوادث الخارقة هذا عن طريق تزويق تلك الحكايات وسردها على الاسماع . حتى انها كانت تقول انها غالبا ما التقت خلال حياتها بالجن ، بل والتقت بالافعى ذات الرؤوس السبعة نفسها .

وكانت تؤكد ان الافعى ذات الرؤوس السبعة تعيش خلف بيت عمها ، كما كانت تسمى والد زوجها ، وهذه الافعى تظهر لعابر السبيل بمظهر القطة اولا ، ثم تقلب نفسها كلبا ، ثم ذئبا ، وبعد ذلك تتحول الى ذات الرؤوس السبعة بكل قبحها وسوادها . ثم تبدأ بالاستطالة ، اطول ، اطول ، اطول ، حتى تكاد تبلغ السماء . اما اذا لاح لعيونها احد ، وبخاصة الاطفال ، فى هذه اللحظة فانها تختطفه بايديها وترفعه الى الشمس لتشويه ، ثم تاكله . .

سالتها فى احد الايام :

– وكيف سلمت انت منها فى تلك المرة التى رايتها فيها ، الم تنتبه اليك ؟

---

* اسم جبل اسطورى يعيش فيه الجن والشياطين وغير ذلك من المخلوقات الخيالية . **الناشر** .

– علمنى عمى الملا تعويذة عظيمة ما ان اقراها بوجه الافعى حتى تبتعد عنى .

كانت تقصد بـ«عمى الملا» زوجها ابراهيم خوجا الذى كان يعيش متنقلا بين القرى يقرأ الادعية والتعاويذ اذا كنتم لا تزالون تذكرون ذلك .

صمتت فترة ثم قالت لى :

– لا تقص لاحد شيئا عن هذا والا فان الجن لن يتركوك بسلام ! انا وتوتا-باشا نستطيع ذلك لانه ليس هناك غيرنا يعرف بسر تلك التعويذة العظيمة ، ولهذا ايضا لا نخافهم .

ومنذ ذلك الوقت اصبحت جبانا جدا . اذ ما يكاد الليل يقترب حتى يتهيأ لى وجود الجن والعفاريت فى كل مكان . ولكننى عزمت ان لا ابوح لامى وابى بما اخافتنى وحذرتنى منه سلطان-باشا .

وعلى العموم كان يعيش فى ساكتاره ، التى كانت تعتبر منذ قديم الزمان مكانا يحفل بالسحرة ومحضرى الارواح والمشعوذين ، الكثير من الناس الذين كانوا يؤمنون بمختلف انواع القوى الشريرة .

كانت هناك مقبرة تقع على تل قريب من بيتنا تعود لاحدهم ، فيها الكثير من القبور ، وفى سفح التل كانت هناك مغارة ، قيل ان تنينا خرافيا يعيش فيها ، ما ان يلجأ الناس الى بيوتهم فى الليل حتى يخرج من مغارته ويتوجه الى شاطئ زرافشان . فينزل الى الماء ويفتح شدقيه بحيث تستقر شفته السفلى على القاع وترتفع شفته العليا فوق الماء ويظل هكذا حتى يروى عطشه ، وبعد ذلك يرجع فى نفس الطريق الى مغارته ، فاذا ما صادفه احدهم فى طريقه فانه يبتلعه حيا . وهذا الحيوان لا يخاف شيئا غير الريح ، فاذا ارتفعت راح يعوى من الرعب .

كنت اصدق بكل هذه السير والاقاصيص .

وعندما كانت الريح تهب كنت اصغى بانتباه شديد لما يحدث بالقرب من المقبرة ، واذ تشتد الريح كنت اسمع من ذلك الاتجاه عواء غريبا .

غربى المقبرة كان هناك تل غير عال ، يطلق عليه اسم مقبرة العابرين ، هناك كان يدفن الاشخاص الذين لا ينحدرون بالاصل من ساكتاره . وكان التل مليئا بالكثبان والاشجار الكثيفة فلم يكن احد

يتجرأ على الاقتراب من ذلك المكان . وفى الليالى كان يتناهى منها الى الاسماع اصوات مختلفة ، انين ، بكاء ، تاوهات . كانوا يقولون عنها فى القرية انها اصوات ارواح شريرة .

ذلك التل كنت اخافه اشد الخوف .

ذهبت امى فى احد الايام الى محلة بالا لرؤية اقاربها . اخذها اخى الى هناك ، فبقينا انا ووالدى وحدنا فى البيت . كان الفلاحون فى ذلك الزمن يطلقون المياه بسخاء على الاراضى المحصودة فى الايام التى تهب فيها الرياح العالية ، لتغسل المياه الارض وتصبح نظيفة .

وفى احدى الليالى التى كنا فيها وحدنا فى البيت هدأت الريح الهابة فى الامس . وكانت المياه لم تلحق بعد للتسرب من كل الاراضى . كنا ننام فى الباحة على الفسحة العالية . نهض والدى وسط الليل وخرج الى الحديقة يطرد الماء فيها بالاغصان .

اشتدت الظلمة حولى عندما غادرنى والدى ، وتذكرت الافعى ذات الرؤوس السبعة ، وها هى قطة تجرى بالقرب من الفسحة المرتفعة . وبعد دقيقة ظهر هناك كلب وجمد فى مكانه دون حراك . اراد ان يخدعنى ربما ويبدو ساكنا كالجماد . ولكن نظرتى شلت عليه حتى رأيت انه حمار ، كان يقف واحدى اذنيه منتصبة بينما هدلت الثانية . ولكن عينيه لم تكونا عينى حمار فقدكانتاتضيئان فى الظلمة . بدا الحمار يكبر بالتدريج حتى اصبح بمستوى السقف تقريبا ، وها هى اذنه تبدو لى بمستوى ذؤابات اغصان شجرة التوت . فتصورت ان الافعى ذات الرؤوس السبعة تقف على مبعدة خطوات منى فى تلك العتمة . فصرخت بحدة :

— الحقونى ! اننى اموت !

فرد علىّ صوت والدى :

— ما بك ؟ ما الذى حدث ؟

ما ان سمعت صوته حتى تلاشى ذلك المخلوق المرعب . وجاء والدى مستفسرا بالتفصيل عما حدث فحكيت له قصتى مع الافعى ذات الرؤوس السبعة التى كانت هنا على مبعدة خطوات ، والتى كانت قد التقت بسلطان-باشا ايضا . فضحك والدى :

— كان هنالك عالم فى قديم الزمان اسمه الشيخ سعادى * ، كان يقول «لا تخف الافعى ، الافعى لا تمس الانسان ، بل خف من الناس الذين لهم ارواح الافاعى» . واذن تذكر : الافعى لا يمكن ان تؤذى انسانا . الانسان اقوى من كل شىء ، واذا تهيأ لك شىء ما لا تخف وتذكر كلمات سعادى ، فهذا الشخص لم يكذب ابدا .

— ومن هم هؤلاء الناس بارواح الافاعى ؟ ما خطرهم ؟

— انهم موجودون فى كل مكان . وعندنا منهم فى القرية الكثير . انهم اولئك الذين يخدعون الناس ويقيمون سعادتهم ودخلهم على هذا الخداع . انهم المشعوذون والسحرة وكافة انواع المضللين .

صمت والدى ثم استأنف :

— وكذلك ايضا ابن عمى ابراهيم خوجا زوج سلطان-باشا . ولكنه احمق فحتى شعوذته هذه لا تنفعه كثيرا . زوجته تعينه فى هذا الامر على قدر استطاعتها فهى تلقى الرعب فى نفوس الناس وتحشى رؤوسهم بكل انواع السخافات . لا تذهب اليها بعد ولا تسمع اكاذيبها . اما اذا استمعت اليها فلا تصدق ما تقوله .

تبدد خوفى بعد كلام والدى . اصبحت اكثر هدوءا وجرأة . ولكن الاشجار والمغارة في التل كانت ما تزال تقلقنى ، فقد كنت اسمع بنفسى عويل المغارة ، وعواء الاشجار ، فاتحت والدى بهذا فقال لى :

— فى الاشجار تعوى بنات آوى ، هناك يوجد الكثير منها . وابن آوى الذى اختطف من عندنا هذا العام دجاجتين منها ايضا . اما من يعول فى المغارة فغدا اريك اياه .

وفى اليوم التالى جلب والدى ابريقا خاليا قبل الذهاب الى المغارة وقال :

— انفخ فى هذا الابريق وبقوة !..

نفخت فيه فصدر عنه صوت يشبه العويل .

— وهكذا لا تنسَ امر هذا الابريق عندما ندخل المغارة .

عندما اقتربنا من المقبرة رأيت فى سفح التل تجويفا غير كبير ، ولكى لا تنهار التربة أقيم عمود من طابوق مفخور فى مدخله .

* يقصد به رائد الادب الفارسى-الطاجيكى مصلح الدين سعادى الشيرازى . **الناشر** .

عبر التجويف كانت هناك المغارة ، ولربما حفرها الناس انفسهم فى زمن غابر قديم ، كانت تمتد فى عمق التل .

قال لى والدى بعد ان ارانى كل ذلك :

– عندما تهب الريح بقوة من هذا الجانب فانها تدخل المغارة ، فتدوّم فيها بكل قوتها ، فليس هناك مخرج آخر للمغارة ، وتضرب جدرانها ثم تخرج منها ثانية ، وهكذا يصدر عنها ذلك العويل الذى تسمعه .

اطرقت مفكرا . فبادرنى والدى :

– تذكر ، ما الذى حدث عندما نفخت فى الابريق ؟

فتبددت شكوكى .

وقال والدى :

– وانظر ، الريح اقوى من نفختك الف مرة والمغارة اكبر من الابريق الف مرة ، واذن فالصوت هنا اوحش واقوى بكثير .

طرد والدى بشرحه البسيط هذا الحيوان الخرافى من مخيلتى كانه قرأ علىّ تعويذة . واتضح ان المغارة خالية .

وبالمناسبة فان ابى نفسه كان يصدق بوجود العفاريت والجن . الا انه كان يعتقد بان هؤلاء لا يستطيعون اصابة الانسان باذى . ووجد تأكيدا لاعتقاده هذا فى كلمات الشاعر سعادى .

انقذنى والدى من الخوف تماما بطرده الاشباح من مخيلتى ، فلم اعد اخاف الوحدة ولا الظلام . وفى احد الايام بعد مرور بعض الوقت ، جرى نقاش بينى وبين بعض الاولاد الذين كانوا يؤمنون بوجود العفاريت والجن والحيوان الخرافى الذى يسكن المغارة ، فما كان منى الا ان ذهبت الى ذلك التل الكثيف والاشجار وجلبت لهم منه غصنا اقتطعته من احد اشجاره ، وكان ذلك عندى رمزا للانتصار على جميع مخاوف الطفولة .

ولم تعد افعى مملكة توتا-باشا السحرية ، ذات الرؤوس السبعة ، تخيفنى بعد ذلك مطلقا .

خيبر

فى خريف ذلك العام اتفق والدى واسطه خوجا على ارسال ابنيهما الاكبرين الى الدراسة فى بخارى . واخذ والدى على عاتقه مسؤولية نقلهما الى هناك .

وهكذا اقتاد والدى فى بداية ايلول ، قبيل بداية العام الدراسى فى بخارى ، اخى الاكبر محى الدين وابن اسطه خوجا سعيد اكبر الى بخارى . ووعد خالى الملا ديكان بالسهر عليهما ومتابعة درسهما .

اصبحت بعد هذا المعين الوحيد لوالدى فى البيت . اضافة الى اخى سراج الدين * الذى كان من الصغر بحيث لم يكن ليعتبر انسانا بكلمات والدى .

حاولت اساعد والدى كل جهدى كى اعوض عن غياب محى الدين . فى الخريف كانت بنات آوى تزداد يوما بعد يوم ، تأتينا من جانب المقبرة لتتعيش على دجاج القرية . وكان اول ضحاياها دجاجنا ، لوقوع بيتنا على حدود القرية ، غير بعيد عن التل . سافر والدى الى محلة بالا وجلب من خالى كلب رعى عمره ستة شهور ، وكان اسمه خيبر .

كان كلبا ذكيا جدا ، بدأ يفهم طلباتى بسرعة كبيرة ، وسرعان ما عرف جيدا المهام الجديدة الموكلة اليه . شيئا فشيئا عرف اننا نخشى على دجاجنا بنات آوى ، ولهذا كان يحرس جيدا الاشجار التى يبيت فوقها الدجاج ، ويجرى باستمرار نحو المخرج المؤدى الى الحقول ، فيشمشم الارض جيدا ، وينبح كلما وجد ذلك ضروريا .

جاء الربيع . وازهرت اشجار المشمش . واصبح لخيبر من العمر عام تقريبا . وفى احد الايام ، كان والدى قد ذهب الى الجامع مبكرا لاداء صلاته ، وكنت قد استيقظت فسمعت فجأة صوت جلبة يثيرها الدجاج ، ثم سقط فى نفس الوقت شىء ما ثقيل من السقف .

رميت صايتى على ظهرى وهرعت الى الباحة .

كل شىء كان هادئا حولى .

ناديت خيبر بصوت عال ولكنه لم يرد علىّ ولم يظهر امامى . نظرت الى الدجاج الجالس على الشجرة فتبينت نقصان احداها . فهمت ان ابن آوى امسك بها ، فخرجت الى الحقل . رأيت فى المدى البعيد خيبر يركض عائدا الى البيت ، ثم توقف وراح ينبح كانما يدعونى اليه . فناديته .

---

* اخ اصغر لصدر الدين عينى حكم امير بخارى عليه بالاعدام عام ١٩١٨ . الناشر .

رفع خيبر شيئا ما عن الارض وجرى من جديد . ولكنه لم يكد يقطع نصف المسافة بيننا حتى توقف ثانية ووضع حمله على الارض بحذر ، ثم انطلق نحوى من جديد . وما كاد يصل الىّ حتى راح يجرنى باسنانه من اذيال صايتى لاذهب معه ، وتركنى ومضى مسرعا الى الشيء الذى تركه على الارض .

ذهبت اليه ، فوجدت امام خيبر دجاجة حية تنطرح على الارض ، وعلى بطنها وظهرها وجناحيها آثار عضات وبراثن ابن آوى .

حملت الدجاجة الى البيت وخيبر يركض امامى فرحا . وعندما وصلت الى امى اضطجع على الارض ماسحا اذنيه بها وزحف الى والدتى متمسحا بها كانه يعتذر لها عن سهوه ويهنئها على سلامة الدجاجة .

لم يكن خيبر لينام فى العادة طيلة الليل وحتى يظهر والدى فى الباحة صباحا ، وآنذاك يصعد الى سقف غرفة والدى ووالدتى ، وينهبد على القش هناك غافيا .

اما ابن آوى فلم يعد يظهر امام بيتنا فى الليل وقد اصابه الرعب من خيبر . الا انه يبدو فهم عادته فراح يحاول الصيد فى ساعات الصباح المتأخرة .

غير ان خيبر اكتشف بدوره مكر ابن آوى فراح يظل يقظا حتى يستيقظ جميع من فى البيت .

كان خيبر كلبا كريما ذا كبرياء .

فى احد الايام ضربته امى بالعصا لانه شم طعاما فى اناء ، فما كان منه بعد ذلك الا ان اضرب عن الطعام ولم يعد ياكل . ولكنه ظل كالسابق ينام فى النهار على القش ويحرس الدجاج طيلة الليل .

قالت امى لوالدى ان خيبر مريض :

– ها هو منذ يومين لا ياكل !

قلقت عليه . وتناولت كسرة خبز وهرعت اليه لارى ماذا حدث له . كان نائما على السقف ، فناديته . نزل الىّ . ورميت له كسرة الخبز فالتهمها التهاما . فرحت بذلك وركضت الى البيت لاعلن ان خيبر قد اخذ ياكل . فطلب ابى من امى ايضا ان تحمل له الخبز ، ولكن الكلب لم ينظر لهذا الخبز ابدا ، اما عندما

كنت امد له يدى بالخبز فقد كان يتناوله منى ويلتهمه بلهفة .

فقال ابى لامى :

– خيبر زعلان عليك لسبب ما ، فما الذى فعلته له ؟

حكت امى له كيف ضربته ، فاعقب والدى بعد ان استمع اليها :

– خيبر على حق . فهو كلب رعاة ، وهؤلاء يسمحون لامثاله بالتقرب من اوانيهم . ولهذا فهو قد تقدم من انائك دون حرج وشمه ، اذ لم يجد فى هذا شيئا معيبا . كان عليك ان تفهّميه بهدوء ورقة خطأ ذلك . اما انت فضربته وهو قد زعل لانه اعتقد انه لا يستحق منك ذلك الزجر والضرب .

وكان زعل خيبر ليس بسيطا عابرا فقد امتنع عن تناول الاكل من يدى امى عدة ايام .

العجوز

رغم الاعوام التسعين لعمى عبد الله خوجا فقد كانت الشعرات الشائبة فى لحيته الكثة قليلة جدا . كان حاجباه من الكثافة والضخامة بحيث انه اذا اراد النظر نحو احد ما او شيء ما بانتباه فانه كان يرفعهما بيديه .

وبالمناسبة فانه لم يكن ينظر او يتحدث الى احد . كان يجلس اياما كاملة صامتا فى زاويته من غرفة الضيوف . وبالنسبة لعمره فقد كان بقوامه النحيف الطويل ، ووجهه الاسمر عجوزا قويا نشطا . كان يخرج الى الباحة بضع مرات فى اليوم يشم هواء طازجا ثم يعود الى مكانه من جديد .

قيل عنه انه لم يمرض مرة طيلة حياته .

ومنذ الايام الاولى بعد انتقالنا الى ساكتاره قال والدى لامى ان تحمل للعم عبد الله خوجا شيئا من كل ما تطبخه لنا . اما بالنسبة لى فقد طلب والدى منى ان اعتم بابريقه فلا اجعله يخلو من الماء ، فكنت اجرى فى اليوم عدة مرات الى اماك بابا كما كنت ادعو العم عبد الله خوجا .

جلبت له فى احد الايام حساء ووضعت طبقه بالقرب منه . وفى اليوم التالى حملت له حليبا وخبزا . كان يغط فى نومه . وقدح الحساء خال الى جانبه . فارجعت الحليب والخبز معى كى لا تلعق به القطة اثناء نومه فتحدثت لوالدى عن كل هذا .

واستغرب والدى وقال :

– عمى لا ينام فى هذا الوقت ابدا ، بل يستيقظ قبل طلوع الشمس بساعة او ساعتين . لاذهب فارى ما خطبه !

ذهبت مع والدى اليه ، وقبل الدخول الى الغرفة نظر والدى الى ابريق الماء قرب العتبة قائلا :

– الابريق خال ، اذن فقد استيقظ فى الصباح !

دخل الى الغرفة وانحنى على العجوز ، لمس يده فى البداية ، ثم وضع اذنه على صدره فيما بعد ، وقال لى :

– مات . مات لتوه ، بل حتى لم يبرد بعد .

ارسلنى والدى الى العم اسطه خوجا فاسرعت باخباره والمجىء به . فمددا العجوز سوية ، وغسلا جسده ، وكفناه ، كما تقتضى التقاليد تماما .

لم يكن ابنه فى القرية ، ولم يعرف احد كيف السبيل الى العثور عليه لاخباره بموت والده .

انتشر خبر موت العجوز فى القرية كلها فى الحال . وحمل جثمانه بعد ظهر ذلك اليوم نفسه الى الجامع . وبعد ان قرئت عليه كل الادعية والصلوات اللازمة ، مزق الناس غطاء كفنه الى قطع صغيرة . فسألت من والدى عن السبب الذى يحدوهم ليفعلوا ذلك ، فاجاب :

– انهم يعتقدون بان هذا القماش اصبح مقدسا وانه سيجلب السعادة لهم . لم يتذكروه ، ولم يسألوا عن احواله وصحته ، عندما كان حيا . انما جاءوا الآن للتبرك به ميتا !

العم اسطه خوجا

لم يكن الناس يعمرون بيوتهم فى الشتاء .

وكان اسطه خوجا يجلس تحت سقيفته ينجر فى باب خشبه

صلب جدا ، فشذب سطحه بحيث كان لنعومته يلمع كالمرآة فيعكس صورة الاشياء ، وان كان ذلك بشىء من التشويش .

كان ينقش بازميله الفولاذى على الواحه الصلبة كالحديد مختلف الاشكال والرسوم . وكانت هذه الاشكال والرسوم من الدقة بحيث كانت تبدو وكانما مرسومة على ورق صقيل بريشة فنان حاذق .

كان جدى ظريفا مرحا ، عنده معين لا ينضب من النكات والكلمات اللطيفة . ولكنه لم يتزلف الى احد ابدا ، كما انه لم يجرح احدا بكلمة . كان يتحدث بنفس الترحاب مع كبار القوم وصغارهم . فقد كان كل الناس بالنسبة له سواسية . وحتى بالنسبة لى – انا الولد الصغير – فقد كان يتحدث معى بجد ، شارحا لى بالتفصيل ما كان يهمنى من عمله . وكان يحاول بشتى الطرق تعريفى بالسحر الكامن فى طبيعة عمله ، ليجعلنى لا اهتم بهذه الحرفة وحسب وانما لاحبها ايضا . فبدا لى انه لا يزهق من حرفته هذه مطلقا . كان يمارسها بشغف من الصباح الى المساء .

سألته فى احد الايام :

– من علمك يا عم التفنن هكذا فى هذه الصنعة ؟

اجاب :

– افراد عائلتنا كلهم نجارون . هذا هو والدك ، عمك ، جدك ايضا ، واجداد اجدادك ، كلهم اسطوات . ولكن لا احد منهم تعلم عند احد . بل تعلموا جميعهم بالنظر والمراقبة . ثم اصبحوا من بعد ، كل حسب اهتمامه ومقدرته ، بهذا القدر او ذاك من الفن والمعرفة . تعلمت تنعيم الالواح بالنظر الى عمل والدى وعمى ، ثم علمت نفسى من بعد بقية الاشياء الاخرى . وكانت احجار جامعنا اول الالواح التى علمتنى النقش . ثم رحت بعد ذلك ابتكر لنفسى مختلف انواع الرسوم الجميلة والمعقدة .

مد لى يده بورقة رسمت عليها بعض النقوش ، وقال :

– هاك انظر ، هذا الرسم يسمى «العقد الاثنا عشر» .

ثم مد لى ورقة اخرى :

– وهذا ايضا «العقد الاثنا عشر» . لكن الفرق بينهما ان هذا يحوى على نجوم ومقرنصات بين العقد الاثنى عشر . انظر كيف

اصبح الرسم جميلا راقيا ! هذه التفاصيل الصغيرة انا ابتكرتها واضفتها الى رسم القديم .

وضع جدى رسومه فى الحافظة الجلدية بحرص ، قائلا :

– اذا كان التلميذ يكتفى بما ياخذه من معلمه لما تطورت الصنعة ، ولتوقفت . وليس غير اولئك التلاميذ الذين لا يكتفون بما يتقبلونه من معلميهم ، بل يصرون على اضافة الجديد للصنعة ، وبالبحث عن الجديد ، هم من يكونون وارثى معلميهم الحقيقيين والاصيلين .

ثم نهض من مكانه وذهب الى الباحة الداخلية . وبعد بضعة دقائق عاد يحمل قصبة طويلة مجوفة يقارب طولها نصف المتر :

– انتظر ، سأريك شيئا ممتعا !

ثم تناول مثقبا ثقب به القصبة . وقطع قطعا فى احدى نهايتيها بطول الاظفر . ثم قص من جلدة خروف قطعة كافية لسد فتحة القصبة ، واخاطها بالقصبة من الداخل ، بحيث سدت الفتحة جيدا .

واخاط قطعة من الجلد بالخيط وثقب فتحة اخرى عند الطرف الاعلى فى القصبة . ومد الخيط المشدود بالجلد عبر هذه الفتحة وسحبه الى الخارج من الطرف الآخر . وعندما سحب الخيط بقوة التصق الجلد بالفتحة بحيث سد طرفه الفتحة من الداخل .

وبعد ان اغلق احدى فتحى القصبة ، واقتطع من شجرة التوت غصنا جافا ، ازال قشرته ، وبراه حتى اصبح بالامكان ادخاله فى القصبة . اقتطع من الجلدة دائرة اخرى تكفى لغلق فتحة القصبة ، فوضعها على عصا التوت ، واحكم وضعها .

ثم صنع ثقبا آخر فى الطرف الثانى من القصبة وثبت فيه الانبوبة .

صب بعد ذلك قليلا من الماء فى السطل ، ثم ادخل القصبة فيه بعد ان حشر عصا التوت فيها ، بحيث غمر الماء الثقب الموجود اسفل القصبة اما الطرف الآخر والعصا فقد بقيا خارج الماء . وما ان انزل عمى العصا فى القصبة ورفعها حتى راح الماء يتدفق من الثقب العلوى . فادهشنى ذلك اشد الدهشة فشرح لى عمى سبب صعود الماء :

– عندما نرفع العصا فى القصبة الى الاعلى فان قطعة الجلد

تطرد الهواء منها ولذلك فالماء يرتفع الى الاعلى لاشغال الفراغ الخالى من الهواء . وعندما نضغط الهواء ثانية فان الماء يغلق الجلدة فلا يستطيع الخروج من طريقه الاول . واذ نرفع العصا ثانية نجبر الماء على الارتفاع اكثر فاسحا بذلك المجال لكمية اخرى من الماء لتدخل القصبة من السطل ، وهكذا بالتدريج يملأ الماء القصبة كلها ويرتفع الى اعلى حتى يبدأ بالسيلان من الفتحة العليا .

وعندما انهى عمى هذه الشروح اعطانى تلك اللعبة فقال :

– خذها . انها مضخة .

فسألته باعجاب :

– هل انت مبتكرها يا عمى ؟

فابتسم :

– لا . لقد ابتكرها ابو جدى سعيد احمد خوجا . اخذ جذع شجرة حور ابيض كبير ، يسمونه فى سمرقند «بوكس» ، وقطعه طوليا نصفين ، ثم افرغ محتوى كل نصف ، وبعد ذلك ربط النصفين مجددا الى بعضهما بقوة بحيث اصبح الجذع اشبه بهذه القصبة ، ولكى يقاوم الجذع الماء جيدا اطره بحلقات حديدية . وفى احد ايام الجمع التى يجتمع فيها الناس من كل القرية قرب الجامع رفع امامهم الماء من بركة حتى سقف الجامع فاصابهم جميعا بالدهشة . ولكن مضخته كانت من الثقل بحيث لم يكن بالمستطاع ادارتها من قبل رجل واحد . ولهذا فقد عمل على اضافة عتلة لها ، يرفع شابان قويان ذراعها وينزلانه ، والماء يندفع منها مثلما يخرج من فوهة الابريق .

اكمل عمى نقشة دقيقة حادة ، ثم اضاف :

– كان الماء قليلا فى زرافشان ذلك العام ، وفى الصيف نضب تماما منه ، والزرع راح يهلك على ضفافه . فنصب الفلاحون آنذاك مضخة جد جدك واخذوا يسقون حقولهم بما يحصلون عليه من ماء باق هنا وهناك فى قاع زرافشان . كان عمرى آنذاك سبعة اعوام ، وهكذا كما ترى ما ازال اتذكر حتى الآن كيف قام بصنعها . انت ولد نبيه ، ولهذا صنعت لك هذه اللعبة . اما الآن فهيا اذهب لتلعب .

بعد عشرة اعوام رأيت ماكنة تشبه تلك اللعبة ، مصنوعة

من الصفيح . كانوا قد جلبوها من روسيا ، وكانوا يصبون فيها الكاز والزيت .

كان العم اسطه خوجا يريد ان يجعل ابنه الاصغر حرفيا ماهرا ، ولكن الابن لم يكن يستمع لارشادات الاب ، فكان غالبا ما يتلف بين يديه النقوش التى يسلمها له ابوه . وفى احد الايام كان اسطه خوجا يتشكى لابى من ابنه الصغير ، فقال :

– يبدو ان سعيد اكبر قرر ان يصبح عظيما كما يوحى له اسمه ، ولذلك فهو يحتقر مهنة اجداده النجازة . قلت لـه : ان لم ترغب بهذه المهنة فكن ملا ! ولهذا ارسلته للدراسة . اما ابنى الاصغر فان الحال معه يبدو اسوأ ، درستـه بنفسى مدة سنتين ، وارسلته الى المدرسة ثلاث سنوات ولم يتعلم شيئـا من كل هذا ، يبدو انه لن يصبح ملا بل حمارا .

فعلا ، كان اكرام خوجا عنودا جدا .

مرة اعطاه اسطه خوجا لوحا خشبيا كان عليـه ان يتمرن معه . ولكنه لم يستمع لارشادات والده ، فقطع فى الامكنة الواجب تجنبها ، وترك تلك التى عليه قطعها . كنت انظر اليه وهو يفعل عكس ما كان مطلوبا منه ، فذكرته بارشادات اسطه خوجا . ولكنه لم يصغ الىّ :

– حلّ عنى ! انت لا تفهم شيئا فى هذه الشغلة .

وعندما عرض على والده حصيلة عمله غضب اسطه خوجا كما لم يغضب من قبل وهز فوق راسه مقبض فاسه التى كان يعمل بها آنذاك ، صارخا به :

– اهرب احسن لك ! والا ضربتك بهذه الفاس .

ركض اكرام خوجا بضعة خطوات ثم توقف . فقفز عمى وراءه حاملا فاسه وجرى اليه :

– اهرب والا ضربتك !

وراح يطارده .

لم ار عمى من قبل غاضبا بمثل هذا الشكل ، وخفت ان يشج راس اكرام خوجا فعلا بمقبض فاسه فانطلقت فى اثرهما صائحا :

– لا تضربه يا عمى ، لا تضربه ! . .

ولاذ اكرام خوجا بالحقل من الباحة . ولكن عمى لم يتركه ،

ولما وصل السياج توقف لحظة يلتقط انفاسه ، ثم عاد يطارد ابنه كالسابق منذرا اياه :

– اهرب والا ضربتك !

فانطلق اكرام خوجا الى الامام وعمى وراءه . اما انا فبكيت صارخا :

– لا تضربه ، لا تضربه ! . .

وبقيت اعدو وراءهما حتى قطعنا مسافة طويلة فى الحقل . وفى النهاية توقف عمى قائلا :

– لا بأس ! لا تخف ! لن اضربك بعد فقد بردت ! ولكن اياك اياك والاهمال !

وعاد عمى الى البيت فعدت فى اثره . وسألنى :

– ماذا ؟ هل خفت ؟ كنت تتصورنى فعلا قاتله ؟ لا تخف ، فالحمار لا يضرب نسله ، والبقرة لا تفعل ايضا ذلك ، فكيف يضرب الانسان ابناءه . لا ، كنت اريد اخافته فقط كى يستخدم عقله عند الحاجة .

صمت ثم استانف :

– ولكن لا تنقل هذا لابيك والا فانه سيضحك علىّ !

كان عمى وابى لا قريبين حسب بل صديقين حميمين ايضا . كانت نظرتهما الى الامور وآراؤهما متطابقة تماما . غير ان اسطه خوجا كان انسانا مرحا دمث الاخلاق يحب المعاشرة . كان يستطيع ان يقول لاى شخص امرّ الحقائق بالنكتة والابتسامة .

اما والدى فقد كان عنيدا ، صعب المراس ، فاذا لم يعجبه شىء مـا كان يصرح بكـل شىء لا يعجبه مباشرة دون ان ياخذ بالحسبان فيما اذا كان ذلك يوافق مزاج محدثه ام لا .

لطف الله السمين

كان يعيش فى ساكتاره ذلك الوقت ، غير بعيد عن بيتنـا عوض خوجا وابنه لطف الله .

كان عوض خوجا فلاحا لا يملك ارضا يعمل بالمناصفة فى حقول اولئك الذين يمتلكونها ولكنهم يتكاسلون عن العمل فيها .

عند عوض خوجا ابنان صغيران ، الكبير نظام خوجا ارسله للدراسة ، اما الثانى فقد كان بعمرى ولم يكن يعمل بعد .

عوض خوجا نفسه كان ثرثارا وكسولا . ارض الخمسة ديسياتين التى اخذها بالمناصفة وقعت فى عاتق لطف الله وحده فقام بحرثها كما ينبغى .

كان الفلاحون فى ساكتاره يستعملون فى عملهم معازق يصنعها الاسطه دوستباى . الواحدة منها تزن عشرة ارطال . ولكن كان هناك عشرة اشخاص يوصون على معازقهم عند دوستباى ليصنعها لهم بزنة اثنى عشر رطلا ونصف الرطل ، من ضمن هؤلاء كان لطف الله . كان لطف الله يعتبر واحدا من اقوى الاشخاص فى القرية ، قيل عنه انه يعمل دون راحة من الفجر الى الظهر ، ومن الظهر الى الغروب . ولكنه كان ياكل ايضا اربع مرات اكثر من الآخرين .

كنت العب فى احد الايام على شاطئ جدول مازرانغان الجارى فى قريتنا ، كنت العب بالمضخة التى اعطاها لى اسطه خوجا . جاء الى الجدول ملا عبد الشكر خوجا مع اتباعه ليدير الماء الى حديقته . ولكنهم فشلوا فى ذلك رغم كل المحاولات ، وكان ماء الجدول ينقل معه كل ما يرمى فيه من صخور وتربة .

وجاء لطف الله خلال هذا الوقت فنظر الى محاولاتهم الخائبة ، وقال :

– عمنا الملا ! استطيع وحدى سد الجدول فماذا تعطينى مقابل هذا ؟

– رغيف خبز ورطل حلاوة .

وافق لطف الله . خلع عنه كل شىء وابقى سرواله الداخلى حسب وتقدم الى عمله . دفع اكواما من التربة فى البداية على جانبى الجدول . لم يكن هناك بالقرب لا طين ولا فحم نباتى . قاع النهر كان رمليا ، اما الضفاف فقد كانت تربتها خليطة بالرمل .

خوض لطف الله فى الماء ورص فى الجدول التربة التى اقتلعها من الضفاف فسد فى البداية ثلث الجدول ، ثم سد ثلثا آخر فى الجانب الآخر . وهنا بدات المرحلة الصعبة ، فقد اخذ الماء يندفع بقوة مضاعفة ثلاث مرات خلال الفتحة الضيقة التى ابقاها لطف الله ، ضاربا السد باحكام واصرار .

لم يضع لطف الله وقته آنذاك فاضطجع فى عرض الجدول مثبتا التربة التى وضعها على جانبيه بيديه فى جانب ، وبساقيه فى الجانب الآخر . استقر جسده فى الجدول مثل كتلة من الخشب كان الماء يشخب فوقها . ومن غير ان ينهض من مكانه تناول بيد معزقته الضخم وراح بضربات قوية ينتزع التربة من قعر الجدول ويحكم وضعها الى جانب جسده . كانت يداه تعملان بقوة بحيث لم اكن ادرى بماذا يمكن مقارنتهما . وليس الا عند مرور الخط الحديدى فى بخارى ، عندما رايت باية قوة تحركت مكابس القاطرة ، تذكرت آنذاك قوة يدى لطف الله .

وعندما ارتفع السد فوق جسده نهض وراح يعززه ويعرضه بنفس القوة باضافات من التربة . ثم خرج من الماء واهال عليه ترابا جافا حتى اصبح متماسكا صلدا متينا .

كان العم الاسطه خوجا حاضرا آنذاك فهتف منبهرا :

– آخ ! طول الله عمرك حتى الف عام !

ابتسم عبد الشكر خوجا وهو يسمع هذا :

– ولكنك تدعو للطف الله باشياء لا تتحقق . اما اذا تحقق دعاؤك فاى فائدة يجنيها من وراء ذلك ؟ من عاش الف عام ؟ لا احد ! الافضل ان تدعو له بالثراء وبطيب العيش .

فقال اسطه خوجا باحترام :

– اسمح لى ان اوضح دعائى .

– تفضل !

– عندما يدعى له بالف عام فذلك لا يعنى الدعاء بشيخوخة طويلة . بل ان يعمل خيرا فيذكره الناس لهذا الخير الف عام ، فهذا الذكر هو حياة له ايضا .

ابتسم عبد الشكر خوجا مع الآخرين ، ثم امر ان يجلب للطف الله رغيف خبز ، وحلاوة من الدكان .

قسم لطف الله السمين رغيف الخبز والحلاوة اربعة اقسام ابتلعها واحدا بعد آخر . ثم غرف من الجدول كف ماء وشربه ، فتجشأ . قال مبتسما :

– الشفتان قالتا : هنيئا . الفم قال : هنيئا . ولكن المعدة تقول : لم يستقر فىّ شىء ، فعلامَ : هنيئا !

احد الشبان سأل لطف الله كم يستطيع ان يأكل حلاوة فى جلسة واحدة .

– الآن استطيع ان آكل ثلاثة ارطال اخرى . اما فى المساء فتضاف اليها اربعة ارطال .

فتشكك احدهم :

– تبجح ! اكثر من رطل لا يستطيع ابدا .

فتحداه لطف الله :

– اجلب لى حلاوة وسترى .

فاعقب الفلاح الذى اتهمه بالتبجح مستجيبا للتحدى :

– سنرى !

فوافق لطف الله :

– هيا ! اقبل بأى شرط .

فاقترح الفلاح :

– الشرط هو : ان اكلت الثلاثة ارطال التى قيمتها ثلاثة تينغات تنال ثلاثة تينغات اخرى . اما اذا لم تستطع فتدفع ثمن الحلاوة اضافة الى ثلاثة تينغات اخرى ، فماذا تقول ؟

– ماذا اقول ؟ اقول : الىّ بالحلاوة ، لعلى آكل حتى الشبع .

جلبوا الحلاوة ، وراح لطف الله يقوم بمهمته شاربا كف ماء بين لقمة واخرى ، وبعد ان انهى على الحلاوة نهض مادا يده نحو الفلاح فاخرج هذا منديل نقوده وعدّ له ثلاثة تينغات ، نقده اياها قائلا :

– لقد ربحت سبعة تينغات لا ستة ! فلقد اردت ان اخدعك فجلبت لك اربعة ارطال من الحلاوة لا ثلاثة . كلفنى هذا اربعة تينغات وها هى الثلاثة .

فضحك الجميع ثم تفرقوا .

كان والدى يشغل نفسه باعمال النسيج بعد الانتهاء من عمل الحقل فى ساكتاره ، وكان افضل ما يصنعه قماش الكاربوس * . كنا نخيط منه اغلفة (شراشف) للبطانيات والوسائد ، وسفرة

* الكاربوس : نوع من الاقمشة القطنية التى كانت تصنع فى البيوت محليا وتستخدم للصايات . **الناشر** .

الطعام والقمصان والسراويل . وبعد الانتهاء من خياطتها كانت تعطى هذه الاشياء للصباغ ليقوم باختيار اللون والرسم المناسبين لها .

اما العلوجا * فقد كان والدى يخيط منها ليس فقط الاردية الداخلية بل والصايات كذلك ، له ولنا ايضا . ولكنه اوصى لاخى الذى كان يدرس فى بخارى على صاية خيطت من اقمشة المعامل .

كانت ملابسنا جميعا تخاط من الاقمشة التى تصنع فى البيت .

اما الاصباغ التى كان والدى يحتاجها لنسيجه فقد كان يصنع اغلبها بنفسه ايضا . وكانت والدتى تعينه بجميع الاعمال . فالى جانب اعانته بجمع الحطب كانت تقوم بالنسج وغزل الخيوط ولفها على بكرات . وكانت غالبا ما تقوم ايضا بصبغ الخيوط بارشاد من والدى . وفى نهاية الشتاء قرر والدى السفر الى محلة بالا ليصنع من خشب الاحتياط الموجود هناك دواليب للطواحين ويبيعها فى المطاحن المجاورة . ولكن والدتى عارضته لخوفها البقاء وحيدة مع طفلين فى بيت نصف مهدم . غير ان والدى لم يصغ اليها ، وقال عند الوداع :

– الذئاب لن تاكلكم واذا تجرأت وتقدمت منكم فعندكم خيبر هنا !

جدول شافريكان الجديد

جاء الربيع ونضج المشمش الاخضر ، وظهرت حبات التوت فى اشجارها ، وبدأوا يقطعون اغصانها لتقدم الى دود القز . وشخب مازرانغان بقوة بعد ان افعمته شآبيب الربيع بالماء .

وراح الفلاحون يحرثون ويعزقون ويبذرون الاراضى . وحملت طيور السند والهند لبنات الطين الصغيرة وبنت اعشاشها تحت سقوف البيوت على اشكال القوارب .

اما اللقالق فقد بنت اعشاشها فوق بوابات المقابر وطفقت

* العلوجا : نوع آخر من الاقمشة القطنية الخشنة التى كانت تصنع محليا . **الناشر** .

تصطاد غذاءها فى البرك . واما الدراج المبرقش الالوان فقد كان يتخاطف من كثيب الى كثيب خوفا من اللقالق .

كل الاحياء كانت تتحرك من الناس والحيوانات الى النباتات . ذلك هو الربيع !

وفي احد الايام الذى كانت غيوم الربيع تظلل فيه الناس من وهج الشمس عاد والدى من محلة بالا . كنت فى ذلك الوقت اعتلى ظهر خيبر فى الزقاق المحاذى للجامع . ما ان رأيت والدى حتى ركضت اليه مستقبلا بحرارة ، ولكنه لم يلق لى بالا ، بل لم يوجه نظرة واحدة نحوى او نحو خيبر .

ربط والدى حماره عند شجرة التوت ، ورفع متاعه عنه . ثم توجه الى البيت . وكنا – انا وخيبر – قد التقيناه فذهبنا الى امى وانباتها بمجيء والدى فهرعت اليه ، وتناولت منه ما جاء به ، سائلة عن صحته .

نقل والدى اليها تحيات اهلها ثم دخل الغرفة صامتا . وضعت امى خرجه جانبا ، واسرعت اليه . تناولت منه صايته وعمامته وعلقتهما على المسمار خلف الباب . فرشت له البطانية ووضعت خلف ظهره وسائد صغيرة ، فقال والدى باضطراب وقد غلب عليه التجهم :

– اشعلى السماوار وحضرى شايا . واخرجى اللحم من الخرج قبل ان تختطفه القطة .

اضطجع ، وجلست الى جانبه بهدوء انظر الى وجهه الحزين . وما ان انتهت امى من اعداد الشاى حتى بسطت سفرة الطعام ووضعت عليها الخبز والسكريات . راح والدى يشرب الشاى الا ان وجهه ظل مكفهرا ، فسألت والدتى منه حذرة :

– لعلك لم تتوفق فى بيع الاجران ؟

– بعتها . واشتريت خشبا انتهيت من تقطيعه .

ثم عاد الى صمته .

– لا سامح الله ، لعلك تشكو من شىء ؟ ما الذى يضايقك ؟

فاجاب والدى سادرا فى صمته :

–لا ، لا علاقة لهذا بمرض ، بل بسبب الاحوال فى شافريكان .

ولكن راس الخيط من شليلة قلب والدى اصبح فى يد امى ، فعرفت كيف توجه اسئلتها :

– يقال انهم يحفرون جدولا جديدا من شافريكان . هل هذا صحيح ؟

فرد والدى :

– صحيح . والافضل انهم لو لم يبداوا هذا ! فهو يبهذلهم اكثر من الرمال نفسها ، ولن ينفعهم اكثر مما تنفع الصلاة ميتا !

ارتاح والدى وهدأ بعض الشىء ، ثم حدثنا بعد ذلك عن كل شىء بالتفصيل .

كان اهالى شافريكان قد قرروا منذ الخريف الماضى حفر قناة قديمة طمرتها الرمال ، واحياءها واطلاق الماء فيها . ولكنهم كانوا بحاجة الى ايدى عاملة كثيرة . عدة مرات حاولوا احياء القناة وانقاذها من تحت الرمال ، الا ان الرمل كان يعود اليها ثانية فيغمرها من جديد .

بعد هذا توجه اغنياء شافريكان بالتماس الى الامير للموافقة على حفر جدول جديد ، على ان يتحمل نفقات هذا المشروع جميع اهالى المنطقة .

فاصدر الامير امرا لاربعة من موظفيه ، القاضى ، الرئيس ، محصل الضرائب (الاملاك دار) ، ولقائد الحرس (الميرشاب) ، ليبداوا العمل بحفر الجدول .

حدد الموظفون الاربعة هؤلاء مكان الجدول ، وجمعوا من الاهالى فى الاجتماع النفقات اللازمة له ، واتفقوا معهم على الشروط . فمرت ستة شهور منذ ذلك الحين دون ان يحفروا من الجدول بالكاد غير اربعة فرسخات ، اهدر الفلاحون خلالها حالهم ومالهم على هؤلاء الموظفين الاربعة .

اما عن سير الاعمال بالذات فقد اخبرنا والدى :

– ذهبت لالقى نظرة على سير العمل ، رأيت فى الحقل الخيام والموظفين واتباعهم ، الجهاز الادارى مكون من مائتى شخص على ما يبدو ، القصاب يذبح الخراف ، الطباخون يطهون الرز باللحمة ، يصنعون ارغفة الخبز وخيول هؤلاء المائتى شخص تقف بجوار خيام اصحابها تاكل البرسيم ، يجلبون لها من الشعير خلال ليلة واحدة

اكياسا لا تعد ولا تحصى . وشيوخ القرية يسوقون الحمير محملة باكياس الرز والحنطة والطحين . والسماوارات تغلى حول الخيام فى كل مكان . مائتا شخص ياكلون الرز باللحمة ، ويشربون الشاى . لم يبق لغروب الشمس غير ساعتين ، خرج المسؤولون ونادوا على اتباعهم فامروهم ان يجمعوا المشتغلين فى الحفر ليبدأوا العمل . وحتى اجتمع هؤلاء مرت ساعة . فكانت كل قرية لا تحفر من بد، العمل حتى حلول الليل غير بضع خطوات . ثم امر المسؤولون بايقاف العمل صائحين بالفلاحين :

– يكفى العمل لهذا اليوم ! غدا تحضرون بوقت ابكر والا اضعتهم كل ما فى جيوبكم !

هكذا تمشى الاعمال عندهم .

– وما الذى يبتغيه هؤلاء الموظفون من اطالة العمل بهذا الشكل ؟

– آ ، ومن اين يجد هؤلاء المتبطلون المائتان ذلك الطعام والخبز واللحم ، ولخيولهم البرسيم والتبن ، اذا انتهى هذا العمل ؟ كل يوم يجمعون من الاهالى عشرة آلاف تينغ ضريبة لهذا العمل ، نصفها ينزلونها فى صناديقهم ، ونصفها الآخر ياكلون به .

اكمل والدى شرب شايه وصمت .

ثم نظر الى امى فيما التمع شرر فى عينيه :

– لقد قررت ان اقوم بخطوة لا ادرى ما الذى سينتج عنها ، سوف نرى !

الا انه لم يفصح عن قصده تماما . فسالته امى بحذر ، ولكن باصرار ايضا :

– ما الذى تقصده ؟

–لا ينبغى التحدث بهذا الامر حاليا . وانت ايضا احفظى لسانك من الزلق . لقد كتبت الى الامير عرضحال عندما رأيت اولئك الناس ينهبون ويسرقون ورغم ذلك لا يحصلون على قطرة ماء ! شرحت له كيف يجرى العمل فى الحقيقة ، وسالت منه ان يولى هذا العمل لانسان نزيه ، وبينت له ان التلكؤ فى انجاز المشروع لا يضر السكان وحدهم وانما يضر امارتنا ايضا ، فاذا لم يحفر الجدول فى ميعاده ولم يحصل الناس على وفرة من المياه

فان الزرع لن ينمو بشكل يستطيع الناس معه دفع الضرائب المفروضة عليهم !

سالت امى :

– وباسم من كتبت هذا العرضحال ؟

– باسمى انا ، ولكنى لم اصرح به . فقد كتبت فى النهاية : «كاتب هذا المكتوب لا علاقة له بالارض ولا يحتاج الى الماء ، حررته لسموكم حرصا على مصلحة الناس والدولة» .

واستفسرت امى مسرورة :

– وهل سلم هذا العرضحال الى الامير ؟

– يجب ان يكون قد وصله الآن . ارسلته مع اخيك قربان نياز ، فهو ذكى وصلب ، وقد ذهب به الى بخارى . يوم الجمعة كان عليه ان يخرج به من بين حشد الناس ويسلمه الى خادم الامير اثناء خروجه من الآرك * الى الجامع . وبعد قراءته سيضع قراره ، اما ما هو هذا القرار ؟ فهذا ما لا ادريه . ولكنى اعتقد بانه سيفهم ان العرضحال مكتوب لفائدته .

عندما انتهى والدى من سرد تلك القصة علينا لانت قسمات وجهه فلربما اعتقد ان عمله ذلك قد جاء بثماره ، وابتسم مكررا :

– لفائدته . . .

ثم نهض وذهب ليقوم ببعض الاعمال ، وفى اليوم التالى انشغل بما بماكنته للنسج .

وبعد اسبوعين من عودة والدى من محلة بالا جاءنا سعيد اكبر خوجا واخى لقضاء الصيف عندنا . اخذا لهما راحة مدة اسبوعين ثم راحا يدرسان بين يدى معلم القرية . وبعد شهر جاءنا خالى ملا ديكان ليرى اخته ، امى . كان يدرس فى بخارى سوية مع ابن قاضى غيشدوفان عبد الواحد . وبعد انتهائهما من دراستهما ذهبا معا الى غيشدوفان لياخذا بعض الدروس من القاضى ، وفى هذه الاثناء وصل القاضى امر من الامير ليتوجه الى شافريكان ليراس اعمال حفر الجدول ، بحيث يستطيع الفلاحون الحصول على الماء من

---

* قلعة فى عهد امارة بخارى حيث يقع قصر الامير ومقر حكومته وكذلك خزينة الدولة والسجن . **الناشر** .

هذا الجدول مع بداية الحرث . ما ان سمع والدى بهذا حتى شع وجهه من السرور ، وبدا كما لو انه استطال حتى قارب رأسه السماء ، واتسع منكباه ، وارتفع صدره الى الامام . ازداد فرحه بهذا النبأ بحيث عجز عن استيعابه فى داخله ، فلم يستطع اخفاءه .

وجه نحو والدتى نظرة فرحة ذات معان ، ثم سأل ملا ديكان :

– وكيف سارت الاعمال بعد تعيين القاضى ؟

فاجاب خالى :

– وصل هذا الامر معلمنا القاضى عندما كنت فى غيشدوفان فقطع دروسنا وتوجه الى شافريكان . بقيت يومين آخرين مع صديقى ثم سافرت الى هنا . منكم ساسافر الى اهلى ، ولهذا فاننى لا اعرف الآن شيئا عن سير الاعمال هناك . ولكنى سمعت بان الامير نحى موظفيه الاربعة فى شافريكان وصادر جميع املاكهم .

* * *

بعد عشرة ايام من هذا الحديث عزم خالى ملا ديكان على السفر الى اهله فى محلة بالا ، فسافر ابى معه الى هناك . رغب والدى ان يرى كيف تجرى الاعمال برئاسة قاضى غيشدوفان . وسألته ان يأخذنى معه . وهكذا سافرنا ثلاثتنا الى محلة بالا قاصدين جدى .

شاع خبر وصولنا فى القرية فراح شيوخها يتقاطرون على بيت جدى لرؤية والدى وخالى . كان جميعهم مسرورين ايضا بوصول رئيس العمل الجديد :

– امر قاضى غيشدوفان بان يبدأ العمل منذ الصباح الباكر وحتى هبوط الليل ، وليس غير ساعة واحدة راحة وغداء عند الظهر .

وكان على كل فرد ان يجلب غداءه من البيت . وحتى المشرفون على سير العمل توجب عليهم جلب طعامهم من بيوتهم ، كى لا يمدوا ايديهم الى الفلاحين . اما القاضى نفسه فقد جاء معه بشخصين ، مراسل وخادم ، يرسل الاخير الى بيته لينقل له هناك ما يحتاجه من طعام .

انجز من المشروع خلال تلك الايام العشرة التى مرت منذ تراس القاضى عبد الواحد العمل فيه مقدار ما انجز خلال العشرة اشهر الماضية .

فرح والدى عندما سمع بهذه الاخبار ، ونادى على خالى :

– هيا لنلق نظرة ونتمنى للناس النجاح !

وافق خالى ، واصطحبنى والدى معه .

كان العمل يجرى بالقرب من قرية روباخا ، جنوبى محلة بالا ، فتوجهنا الى هناك ، وكانت المسافة تقارب الالف خطوة .

كان القاضى يقف متمنطقا بحزام عريض على حافة الجدول الجديد وفى يده عصا طويلة من شجرة حور . كان القاضى عبد الواحد رجلا نحيفا ، قصير القامة ، وله وجه اسمر ولحية بيضاء غير كبيرة . ولكن حاجبيه كانا يشبهان حاجبى جدى الذى ناهز التسعين عاما من عمره ، كثيفين طويلين ، كأنهما جناحا طير .

القى خالى السلام عليه ، كما يفعل الدراسون فى المدرسة عادة ، منحنيا امامه احتراما ، ثم قام بتعريف والدى اليه :

– هذا نسيبى ، جاء يقدم تحياته اليكم .

سأل القاضى خالى :

– اهو نفس الشخص الذى علمك القراءة والكتابة ، وارسلك الى بخارى لتتعلم ؟

اجاب خالى :

– نعم هو .

فحيّا القاضى والدى مرة اخرى :

– لقد سمعت عنك من ابنى ، انه يدرس مع نسيبك .

ثم نظر القاضى نحوى وسأل :

– ابن من هذا الصبى ؟

اجاب والدى :

– ابنى .

رفعنى القاضى حتى رأسه ثم انزلنى على الارض ثانية .

– ليحفظك الله ويوفق خطاك ، ولتكن ملا عارفا !

وسأل والدى وهو يقدم لى شوكلاتة ملفوفة بورق احمر :

– وهل هو يدرس ؟

– سنرسله فى الخريف الى الكتاب .

جاء اثناء هذا الكلام اخوالى قربان نياز ، وروشان نياز ، ونياز خان ، الذين كانوا يعملون مع الآخرين هنا .

فسأل القاضى :

– من هؤلاء ؟

اجاب خالى ملا ديكان :

– انهم اخوتى .

قال القاضى وهو ينظر نحو اخوالى :

– بديع ! انهم يعملون بجد . اذهبوا الآن الى اشغالكم وسوف تتلاقون مساء .

الا انه ابقى خالى قربان نياز ، وقال لملا ديكان :

– اخوك قربان نياز شغيل بديع (اخذ القاضى يتكلم معه بصيغة المفرد) * . امثاله عندى هنا عشرة اشخاص حسب ولكنه ربما يفوق الجميع بهمته ورجاحة عقله .

بدا وكأن الكلام يصعب على القاضى وهو واقف ، فاعتمد على عصاه وجلس على الارض داعيا ايانا للجلوس ايضا . قال القاضى :

– اول يوم وصولى الى هنا اقترحت على الكبار هنا ان يحضروا عشرة نجارين ليقوموا بتهيئة الجسور والسد اثناء قيام الآخرين بعمليات الحفر . احدهم اعلن قائلا : «لن يقبل النجارون العمل مقابل اقل من خمسة تينغات فى اليوم» . هذا يعنى اننا نحتاج الى خمسين تينغا فى اليوم اجرة لهم . فمن اين نأتى بالمال لهؤلاء النجارين ونحن منعنا جمع ضرائب اضافية من الناس ؟ وعندما سمع بذلك هذا الشاب (واشار القاضى الى قربان نياز) جاءنى فقلت له : تكلم ! قال : يوجد من بين شغيلتك حوالى خمسين نجارا ، وهم يقومون بالحفر حالهم حال الآخرين ، فاذا حررتهم من هذا العمل فانهم سيشتغلون بطيب خاطر شغلتهم المفضلة مجانا .

جمعت النجارين مباشرة واخترت من بينهم عشرة اشخاص

---

* فى بعض اللغات تستخدم صيغة الجمع عند المخاطبة للاحترام ، بينما يدل استخدام صيغة المفرد على زيادة الالفة والقرب . **المترجم** .

ممن يحسنون الصنعة جيدا ، وارسلتهم ليقيموا الجسور والسد كى لا يتاخر هذا العمل عن اعمال الحفر . لقد اعجبنى جدا ذكاء هذا الشخص وجراته ، فلولا جراته لم ينفع ذكاؤه هنا بشىء ، ولما تقدم الىّ بالنصح تهيبا واحتراما لرئيسه المباشر . كل انسان يحتاج الى الجراة والعقل ، من غير الجراة العقل لا ينفع . اما الجراة من غير عقل فهى مغامرة قد تقود الى المهالك .

بعد ان انهى القاضى قوله هذا توجه بكلامه الى خالى ديكان :

– دع اخاك يخدم عندى ، ساكون بذلك جد مسرور ، هل يعرف القراءة والكتابة ؟

اجاب خالى :

– لا .

– انه جرىء وذكى ، وهذا هو المهم . بذلك يستطيع تعلم كل شىء .

ارسل القاضى قربان نياز ليواصل عمله . ثم امر خادمه ليحضر الشاى . فتناول الخادم عدة الشاى من كيس معلق بالشجرة ، فقدم للقاضى قدحا من الشاى شرب القاضى منه جرعتين ثم امره ان يصب لنا ايضا .

قال :

– هذا الشاى حضرناه فى غيشدوفان ، وقد برد فى الطريق فارجو ان لا تزعلوا . شاى بهذا الشكل افضل من الماء على كل حال .

وبعد ان شرب والدى وخالى الشاى نهض القاضى ، فنهض الآخرون ايضا . واقترح عليهم القاضى :

– لنذهب نلقى تحية على الشغالة .

سار القاضى وقد تأنى والدى وخالى فى خطوهما معه ، بينما سرت انا خلفهم .

كان القاضى يتوقف بالقرب من كل مجموعة فيلقى سلامه عليهم ويستفسر منهم عن بعض الاشياء .

اما رؤساء الفرق والمراقبون فقد كانوا يجلسون فى ظلال الاشجار ، الا انهم ما كانوا يرون القاضى حتى يهرعون الى مراكز

العمل صائحين : «احفروا هنا !» وقد وضعوا على وجوههم تعابير جادة مهمومة .

وكان ثمة مراقب عمل سمين جدا يجلس مرتاحا تحت الشجرة ايضا ، قفز نحو الشغالين ، وانبرى يصرخ بصوت عال كى يسمعه القاضى ، معلما اياهم كيف ينبغى الحفر .

عندما اصبح القاضى قريبا منه انحنى السمين امامه محييا ، فقال القاضى :

– الم تسمن يا صاح اكثر من اللازم ؟ يبدو ان هذا الحمل الزائد يثقل عليك جدا ، واخشى ان لا ينفعك هذا العمل الذى تقوم به هنا فى التخلص من الشحم المتراكم عليك . ولذا عليك الامساك برفش والانغماس فى العمل ، فهذا سيخفف عنك بعضا من اثقالك كما انه سيساعد المشتغلين فى الحفر .

– حسنا يا سيدى !

اجاب السمين متلهوجا دون مرح وهو يهبط فى الجدول متناولا الرفش من احد العمال ، بادئا العمل فى حفر الارض بخراقة ، مما اضحك الجميع . ولكنه ما ان ضرب الرفش فى الارض عشر مرات حتى نضح عرقا كأن سطلا من الماء صب عليه . واخذ منه التعب كل مأخذ فتهاوى على الارض جالسا ، فقال القاضى له :

– هل ترى كيف ان العمل اصعب بكثير من تعليمه ! وانت لا تفعل شيئا غير الجلوس فى ظل الشجرة تحك بطنك !

واصلنا سيرنا ، وبعد بضعة خطوات التفت القاضى الى الوراء فكان جميع مراقبى العمل يمسكون بايديهم الرفوش ويعملون بحفر الارض .

خرجنا من قرية روباخا واقتربنا من المكان الذى يلتقى فيه جدول محلة بالا منحدرا من الشمال بجدول ايستامزا قادما من الجنوب .

اقام النجارون عند ملتقى هذين الجدولين سدا نجروا حافات الواحه جيدا فكان فى منتهى المتانة .

وكان الجدول الجديد بطول خمسين خطوة كاملا تحت هذا المكان ، فيما كان العمل يجرى فى الاجزاء الاخرى منه .

امر القاضى ان يقام فى نهاية الجدول سد عال ، اما المراقب

الذى كان يتتبع سير العمل فى السد فقد امره ان يفتح سدة كوكو ويهدّ منها الماء ، فهتف هذا :

– سمعا وطاعة سيدى القاضى !

وجرى فاطلق جواده ودربك به الى بادية كوكو .

قال القاضى لوالدى :

– اننى احاول تسيير العمل بحيث يجرى الماء فى اثر خطوات العمال ، وعندما يرى هؤلاء ثمار عملهم دانية يتضاعف جهدهم وهمتهم ، ان القطاع الذى يعملون فيه اليوم سيغمره الماء غدا فغدا نوصل الى روباخا ، وبعد غد الى ديخناو .

ثم جلس القاضى القرفصاء مستندا على جذع شجرة وجلس محدثوه مقابله . استخدم القاضى كلمات لم افهمها ، شرح معانيها بالطاجيكية ، فلم افهم شروحه ايضا .

كان والدى يستمع اليه بانتباه شديد مثل تلميذ . وفي هذه الاثناء قدم مراقب العمل بجواده منبئا انه انجز مهمته . فنهض القاضى ومن معه وتوجهوا الى السد .

كان الماء ينطلق الى امام اصفر مزبدا تغطيه الاوساخ ، ضرب السد وصدته الواحه فراح يرتفع شيئا فشيئا . ورغم ان بعضه كان يتسرب خلل الالواح الا انه كان يرتفع رغم ذلك حتى وصل مستوى اعلى السد فى النهاية ، فطفق يتدفق فوق السد الى جدولى ايستامزا ومحلة بالا .

التمس والدى وخالى السماح من القاضى ليعودا الى البيت ، ثم سرنا ببطء مع الماء على شاطئ القناة . وقال والدى :

– اضافة الى ان هذا الشخص اذكى واثقف واطيب واعدل شخص رايته فى زمننا ، فان جسده قد قُدّ من حديد كما يبدو . ورغم عمره الكبير فهو لا يكل ولا يتعب ولا يثبت فى مكان . عمره تجاوز سبعين عاما !

– على قول ابنه ، بلغ السادسة والسبعين هذا العام .

وصلنا القرية فى الوقت الذى وصلها الماء ، فجرى الاولاد اللاعبون فى الشارع نحو الجدول ، وطرطشوا بايديهم الماء ، صاعدين هابطين بين ضفتيه ، وهم يهتفون .

– الماء ! الماء ! جاء الماء !

ذهبنا الى جدى وحدثناه عن القاضى ، وتشاور والدى وخالى معه حول ارسال قربان نياز للخدمة تحت امرته ، وكان والدى الى جانب ارساله فقد قال :

– الخدمة تحت امرة هذا الرجل ستكون مدرسة ممتازة لقربان نياز !

كان هذا القاضى هو نفس ذلك الرجل الذى كان يكتب الاشعار تحت اسم القاضى عبد الواحد صدرى صرير .

قناة منطقة شافريكان الجديدة

عندما انتهى العمل فى قناة شافريكان الجديدة بدأ فلاحو المنطقة مع الخريف باعمال الحراثة بحماسة كبيرة ، وبذروا حنطة الشتاء ، وقاموا بتنظيف السواقى القديمة وشق الجديدة ، متهيئين لحصاد الربيع .

كانت القناة منفذة بشكل سليم حكيم ، فقد كانت تمنح المياه اكثر من السابق . ولكن الفلاحين لم يكتفوا بذلك ، فقاموا بتطهير السواقى القديمة دون معونة موظفى الامير ، فحرروا من اسار الرمل الكثير من الاراضى الخالية ، وقاموا بسقيها فعادت حية صالحة للحرث والزرع . اما الفلاحون الذين كانوا قد نزحوا الى الجنوب بعد زحف الرمل على اراضيهم فقد عادوا اليها وراحوا يعالجونها من جديد لاحيائها ثانية . فيما عمل الفلاحون الذين لا يمتلكون ارضا على بعث جدول جيلفان الى الحياة ، وكان قد ظل سنوات عديدة مهملا مندثرا . فتدفقت المياه فيه بعد ان كان فى منأى واحيى بدوره ما يجاوره من اراض كانت منذ حين عقيمة جدباء .

لم يمر عامان على تدفق هذه المياه حتى ازهرت منطقة شافريكان كحديقة غناء . وآنذاك تطلعت عينا الامير مظفر كعينى بومة نحوها ، فعين مراد بك الشهير بقسوته حاكما للمنطقة ، كما عين صافى الذى اثر فى الامير «بثقافته» قاضيا عاما لها .

ظهر هذان الشخصان فى هذه المنطقة الخضراء بصحبة خدمهم واتباعهم كالجراد فاحالوها الى يباب . كانوا يصادرون جميع

المحاصيل بحجة ان فلاحى منطقة شافريكان لم يدفعوا ما عليهم من ضرائب طيلة سنوات عديدة ، وما كان لهؤلاء ان يدفعوا شيئا مع الرمل والجفاف اللذين اهلكا اراضيهم . واعلنوا الفلاحين مدينين للسلطة فكان على هؤلاء ان يواصلوا الدفع من محاصيلهم اليهم حتى فى المستقبل البعيد ايضا بعد جنى المحاصيل .

كان القاضى صافى يسعى لارضاء حاكم المنطقة ، ناهبا فلاحى منطقة شافريكان ، مغاليا باظهار ولائه للامير . كان الحاكم يظهر فى الحقل حسب العادة عندما تنضج المحاصيل ليقدر مقدار الضريبة الاميرية التى يجب ان يدفعها الجميع مما زرعوه . وكان القاضى صافى ينبئ الامير فى الخريف باسعار الاسواق لكل محصول فيقوم الامير بالايعاز الى الحاكم ليستل من الفلاحين الضرائب طبقا لهذه الاسعار .

هكذا كان القاضى صافى يعين حاكم المنطقة ، ومن خلاله يملأ خزينة الامير . كان صافى يبالغ بتقدير الاسعار عند اخباره الامير بها ، فاذا كان سعر المنّ * الواحد من الحنطة يساوى عشرين تينغا يضيف صافى اليه خمسة تينغات اخرى . وكان الامير يقرر الضريبة النقدية بناء على هذه الاخباريات . وهكذا اخذ قضاة بخارى الآخرون يقلدون صافى عند تحديد الضرائب . كان الامير يعرف جيدا كيف توضع هذه الاسعار الا انه لم يقم ابدا بالتحرى عن حقيقتها . كان يقول ، ويعيد القول بوقاحة ، لاصدقائه وسماره :

– فى هذه القضايا صفحتى بيضاء امام الرب ، وفى يوم الحساب يتحمل القضاة مسؤولية اعمالهم .

وهكذا كان الفلاحون يجدون انفسهم مسلوبين منهوبين منذ تقرير الضريبة بالذات وحينما يحل يوم الدفع ينزل مصابا على رؤوسهم ، بعضهم يضطر لبيع اراضيه باسعار بخسة للاغنياء ، وبعضهم الآخر يبيع مواشيه ، فيما يبيع آخرون وسائل انتاجهم واملاكهم . بل كان الكثيرون منهم يضطرون لبيع حتى اولادهم ليدفعوا ما عليهم من ضرائب للسلطة . فكان الاولاد اما يباعون الى الاغنياء او يثمنون على قدر الضريبة ويؤخذون للخدمة فى سلك

---

* المَن (او الباتمان) – وحدة لقياس وزن الحبوب تساوى فى بخارى ٨ بودات (١٢٨ كغم) . **الناشر** .

الحكام . البنات كـ«خادمات» فى بيوت الحكام والاثرياء ، والاولاد كعبيد وغلمان .

ونحو نهاية حكمه اسس الامير مظفر من ابناء الفلاحين هؤلاء وحدة خاصة اطلق عليها تسمية «الغلمان العبيد» .

وعندما كان الفلاحون يعجزون عن دفع الضرائب كانوا يساقون الى السجون . اما الهاربون والمتخفون فقد كانوا يعيشون اما على السلب والنهب او يتسللون الى تركستان الروسية فيتشردون هناك قابلين بشتى الاعمال

لم ينس مراد بك والقاضى صافى شواطئ جيلفان ايضا . ففرضا على الفلاحين المعدمين الذين تعاطوا الزراعة هنا ضرائب مساوية لتلك التى فرضاها على اصحاب الاراضى القديمة الخصبة ، رغم ان هؤلاء لم يكونوا يملكون قطعان مواش ، بل كانوا يفلحون الارض بمعازقهم ورفوشهم . اصبح شغل اهالى شافريكان الرئيسى جمع الاحطاب ، كانوا يبيعون حزمها املا بجمع النقود التى يستطيعون بها دفع الضرائب الحكومية . وكان من النادر ان تجد احدا دفع كامل الضرائب الملقاة على عاتقة . فكان الاغلبية يرسفون فى اغلال ديونهم للامير .

اعلن القضاة بناء على امر غير مكتوب من الامير ان جميع الممتلكات التى لا صاحب لها هى ملك للدولة . استغل القاضى صافى هذا الوضع فابتكر طريقة للاستفادة من هذا القانون . كان يرسل اتباعه الى شواطئ جيلفان آمرا اياهم بجلب ماشية الفلاحين باعتبارها من املاك الدولة . فكان خدمه المطيعون يسوقون اليه الخراف والماعز التى ترعى على شواطئ جيلفان دون راع . كان اصحاب هذه القطعان يذهبون فى تلك الايام للاحتطاب . فاذا لحق صاحب القطيع بالوصول الى الشاطئ فى الوقت المناسب لم يكن خدم القاضى يسمحون لهم باسترجاع الماشية المغتصبة قائلين :

– نحن نسوق القطيع الى القاضى . يمكنك ان تاتى بشاهدين يثبتان ملكيتك له وآنذاك تستطيع استرجاعه .

وعندما كان اصحاب القطعان يأتون بشهودهم متشكين من خدم القاضى ، كانوا لا يحصلون على مواشيهم رغم ذلك . فالشهود

كانوا يتضحون من النوع الذى لا يركن الى شهادته لاسباب عديدة .

واذا علم صاحب القطيع بغياب دوابه بعد تسليمها الى القاضى فانه لا يحق له المطالبة بها ثانية ولا مناقشة الامر ، فان ذلك يعنى مقاضاة القاضى نفسه وهذا ما كان ممنوعا منعا باتا .

ادى سوء الادارة هذا الى اندثار المجرى القديم لقناة شافريكان تحت الرمال ثانية . اما قطع الاراضى الصغيرة العائدة للفلاحين والتى كانت تسقى بمياه القناة الجديدة فقد ظلت مهملة ، ان لم تطلها ايدى الاغنياء . واما المياه التى كانت تجرى دون فائدة من القناة الجديدة فقد حولت الاراضى المحيطة الى ما يشبه المستنقعات لكثرة ما انتشر فيها من برك وبحيرات . وسرعان ما تحولت المنطقة كلها الى بؤرة للامراض .

ظلت قناة شافريكان القديمة وجدول جيلفان سنوات عديدة منسيين مهملين حتى جاءت ثورة اكتوبر العظمى باصلاحها الزراعى ، فطهرت القناة والجدول من جديد وانبعثت فيهما المياه دافقة فاحيت ما يجاورها من حقول .

* * *

كان القاضى عبد الواحد صدرى صرير لا ينى يبذل الاهتمام لازدهار منطقة شافريكان ، معتبرا نجاحه فى انشاء القناة اجمل ذكرياته عن تلك السنوات . وكان قد عانى كثيرا مما اصاب تلك المنطقة التى اعاد احياءها ، فكان كالبستانى الذى تقطع امام عينيه الاشجار التى غرسها شتلات بيديه ، وتجتث امامه كثبان ازهاره راعية بينها الدواب .

لم يكره القاضى العجوز مراد بك وصافى وحسب بل وكره الامير نفسه وكل حاشيته واتباعه . ومن دون ان يقدم استقالته هجر منصبه كقاض لغيشدوفان ورحل الى بيته فى بخارى . فمات هناك من الغم بعد مرض قصير .

لقد شارك القاضى عبد الواحد صرير العالم التقدمى البخارى احمد مخدوم دانيش آراءه وافكاره الا انه لم يكن مؤهلا للفعل ، ولم يستطع المجاهرة برفضه واستنكاره لنظام امير بخارى . لقد احترق ببطء مثل النار فى القش .

حبيبة

سلمنى والدى الى الكتّاب الملحق بالجامع عند ما بلغت السادسة . ولكننى لم افلح بالدرس هناك . فنقلنى والدى آنذاك الى مدرسة للبنات كانت مقامة فى الحوش الداخلى لبيت ملا قريتنا ، وتدرس فيها زوجة الملا بيبى خليفة .

كان هناك صبيان فقط يدرسان فى هذه المدرسة ، انا وعبد الله من غيشدوفان . كان عبد الله اكبر منى بقليل ، ولم تكن الفتيات يستلطفنه ، وكن يضحكن على محاولاته لمصادقتهن . اما بالنسبة لى فقد كن يعاملننى بالطيب ويعتبرننى اخا لهن .

فى العام الثانى لدراستى فى هذه المدرسة دخلتها فتاة اسمها حبيبة من قرية رباط المجاورة .

لم تكن حبيبة تذهب فى المساء الى بيتها بل كانت تبقى طيلة اليوم فى بيت المعلمة ، تعيش فى غرفة واحدة مع ابنتها «كتبية» . كانت حبيبة وكتبية من عمر واحد ، واكبر البنات الموجودات فى المدرسة . كانت حبيبة تعرف جيدا اصول الكلام وتقرأ افضل من كتبية . والدى قال انها ابنة اثقف ملا فى منطقتنا . كان والدها يدرسها بنفسه ويعلمها القراءة والكتابة على احسن وجه . اما لماذا ارسلها الى هذه المدرسة وما الذى كان بامكانها ان تتعلمه من زوجة الملا معلم القرية فهذا ما لم اكن افهمه .

كانت حبيبة تعاملنى بالطف مما تعامل الآخرين . وكانت تصنع لى لعبا جميلة ، وتذاكر معى الدروس .

كنا نقرأ فى دروسنا اشعار غزلية لحافظ * . ولما كنت لا افهم المقصود باشعار الحب هذه فقد كانت تشرحها لى . فعندما كان ذكر «المعشوقة» ، و«الحبيبة» يرد فى الشعر فانها كانت تضرب مثلا بكتبية . وعندما كان يرد ذكر «المحب» ، «الحائر» ، «الولهان» فانها كانت تضرب بى مثلها .

كانت كتبية تتظاهر بانها غضبى منها بسبب ذلك ، فتعقد حاجبيها ، وتزوج نظرتها ، وتقول بصرامة وهى تخفى ابتسامة :

* المقصود به شمس الدين محمد حافظ الشيرازى احد رواد الادب الفارسى-الطاجيكى . **الناشر** .

– ساشكو ذلك لامى فتجلدك بالعصا كما لم يجلدك ابوك من قبل ، بل ربما وتطردك من المدرسة ايضا !

فتتنهد حبيبة حالمة حتى ليخال ان تنهدتها تصدر من اعماق روحها وتقول :

– آه ! لو تطردنى !

كان نقاش يدور فى المدرسة حول جمال حبيبة وكتبية واى منهما الاجمل ، فكان البعض يذهب الى ان حبيبة اجمل . فيما يفضل البعض الآخر كتبية عليها . الا ان الاثنتين معا لم تكنا محبوبتين من قبل الفتيات ، اللواتى كن يلقبن كتبية بالمتكبرة الخشنة الخرقاء . اما حبيبة فكن يعتبرنها ثرثارة طائشة محبة لنفسها . وكن يسخرن بخاصة من طريقتها فى قراءة قصائد الغزل . ولكنى لم افهم ابدا من اين جئن بهذه الصفات لهما ، لاننى لم ار كتبية مطلقا تتحدث مع احد ما بخشونة او انها ابدت شيئا ما من التكبر امام الآخرين . اما طريقة حبيبة فى قراءة قصائد الغزل فقد كانت تعجبنى .

قرأت احد الايام ابياتا شعرية غزلية تبدأ هكذا :

لا هدوء لى حتى تتحقق احلامى
ولا راحة البالى حتى يعطف الحبيب بوصل . . .

وكانت بيبى خليفة قد تركتنى اذاكر هذا الشعر مع حبيبة ومضت لتدبير شؤون بيتها .

اجبرتنى حبيبة على اعادة قراءة تلك الابيات عدة مرات ، ثم اخذت الكتاب من يدى بعد ذلك وقرأتها بنفسها . وكانت قد فعلت ذلك بعاطفة جياشة جعلت الدموع تترقرق فى عينيها .

شعرت بالقشعريرة تدب فى ظهرى عندما قرأت السطور الاخيرة بصوتها العميق ، قائلة :

اما ان اموت او ابقى معه ابد الدهر !
بغير ذلك لا هدوء لى .

وعندما انتهت من قراءة هذه الكلمات شحبت تماما حتى خلت انها ستتهاوى على الارض . وصمتت واغلقت عينيها . وسال الدمع ببطء على خديها .

وبعد برهة نظرت نحوى بمرح ومكر .

لم اكن اعرف عن الحب وقتها ايما شيء ، ولكننى فهمت ان ثمة ما يربك قلبها ، وكنت على استعداد لان افعل اى شيء يزيح ذلك الكرب من قلبها . ولكن ، ما الذى كان بامكانى ان افعله لها ؟

لا اذكر ان كان ذلك فى نفس اليوم المشهود او فى يوم آخر ، ولكنها سألتنى على كل حال بعد الانتهاء من الدروس :

– هل عندكم زهور فى البيت ؟

– بالطبع .

– اجلب لى غدا باقة فواحة منها .

وافقت بكل سرور وجريت الى البيت . كنت فرحا بطلبها هذا . وبدا لى ان الزهور ستخفف عنها فعلا فى الغد ، بل وقد تشفيها من علتها ايضا .

كان عندنا حوضان للزهور قرب السياج ، احدهما تنمو فيه زهور وردية ، وفى الآخر بيضاء .

ومنذ الصباح الباكر ، قبيل شروق الشمس ، ذهبت لاقتطف منهما باقة لحبيبة . وقفت هناك متفكرا اسائل نفسى اى الزهور تصلح لها ، الوردية كانت تناسب لون وجهها . بخاصة فى ذلك الوقت الذى تجمعت فيه قطرات الندى بين بتلاتها تذكر بالدموع منسابة على خديها .

قطفت لها بهمة ثلاث جوريات وردية كبيرة ، وثلاث اخرى بيضاء ، وهرعت الى المدرسة . وعند الباب فكرت ان البنات قد يأخذن هذه الاوراد منى فاخفيتها فى عبى .

وما ان دخلت باحة المدرسة حتى التقتنى كتبية فنهضت تسألنى وقد القت علىّ نظرة سريعة :

– ما الذى عندك فى عبك ؟

– كتب .

وكان من السهل ان تكشف كذبتى فقد كانت كتبى فى يدى . وفكرت : «ماذا لو مدت يدها فى عبى !» فارتبكت ونظرت الى وجهها فوجدته يختلف عن وجه حبيبة مثلما تختلف الوردة البيضاء عن الوردية . كان الورد الابيض يعجبنى اقل مما يعجبنى الوردى منه .

وكان والدى قد منعنى من قطف الاخير لان بائعى العطور كانوا يقايضونه بماء الورد الذى كان الناس يتعطرون به آنذاك . ولكننى كنت اتخفى عن عينى والدى فاقتطف منه كلما سنحت الفرصة لذلك .

لم تلح كتبية علىّ بل تركتنى ومضت الى المعلف حيث كانت البقرة واقفة هناك . اما انا فدخلت الى قاعة الدرس . كان الوقت جد مبكر ولم يكن فى الغرفة احد غير حبيبة تكنس الارض . اقتربت منها ممسكا بالورد بين يدىّ ، فاخذته منى ممتدحة اياى . وضعت وردتين منها خلف اذنيها ونظرت الى نفسها فى المرآة ، ثم ثبتت وردة اخرى على صدرها .

وبعد ذلك اخذت الاوراد البيضاء من يدى وشمتها فقطبت جبينها واعادتها لى سائلة :

– لماذا جلبت هذا ؟

– اعتقدت ان هذه ايضا قد تعجبك .

– واى منهما الذى يعجبك ؟

– الوردى .

– لماذا ؟

– لانه بلون وجهك .

فضحكت وضمتنى الى صدرها ضاغطة اياى عليه .

– والابيض ، بمن يذكرك ؟

واجبت دون تردد وبصدق طفولى :

– كتبية .

اتضح ان هذا الرد اعجبها اكثر من الاول اذ ضمتنى الى صدرها بقوة اشد وامعنت فى تقبيلى . ثم قالت فجأة بنبرة جادة :

– اسمع ! لا تتكلم عن هذا لاحد ، واذا فعلت زعلت عليك كثيرا ! اما الآن فاذهب لمراجعة درسك .

جاءنا من بخارى اخى وسعيد اكبر خوجا فى نهاية الربيع وقت نضج ثمار التوت ، لقضاء فترة الصيف عندنا . اخذا لهما قسطا

من الراحة عدة ايام ثم راحا يدرسان عند ملا القرية كسابق عهدهما .

لم يكن سعيد اكبر خوجا يحب التحدث مع الكبار لتشامخ فى طبعه ، ولكنه ظل قريبا من لهوى والعابى . وكان غالبا ما يجلس فى غرفة الاستقبال المطل بابها على الحديقة الملحقة بالجامع .

وعندما كنت ارجع من مدرستى كان يناديني اليه ويصنع لى بعض اللعب ويسالنى عن دراسة بعض بنات جيراننا .

وسالنى عن حبيبة ايضا ، فذكرت له كل ما اعرفه عنها وقد اوليته كل ثقتى . كنت مارا امام باب غرفته ذات صباح ذاهبا الى المدرسة عندما دعانى اليه على غير عادته ، فقد كان يفعل ذلك اثناء عودتى لا وقت ذهابى الى المدرسة ، فرددت عليه :

– سامر عليك فيما بعد والا تاخرت .

–انتظر ، انتظر ، لن تتاخر !

ذهبت اليه فمد الىّ رسالة :

– احملها الى حبيبة واجلب لى ردا منها ، ولكن احذر ان يلمحك احد ما تفعل ذلك .

ومن غير ان اعبا بفحواها ومحتواها سلمتها الى حبيبة عندما سنحت الفرصة .

خرجت تحمل هذه الرسالة ، ثم عادت ووجهها يلفه الشحوب ، وكانت عيناها تتقدان غضبا وشفتاها ترتعشان . دهشت لذلك وسالتها :

– ومتى يكون الرد ؟

بدا الهياج على وجهها واجتاح الغضب عينيها ، دعتنى الى ان اتبعها .

عبرت الباحة ثم دلفت الى الزريبة ، خلعت هناك حذاءها ورمته عند قدمىّ قائلة :

– خذ هذا الحذاء وارمه فى وجه من كتب هذه الرسالة . ذلك هو ردى عليه .

لم المس الحذاء ، وعندما عدت الى البيت من المدرسة قصصت على سعيد اكبر الذى برحه الانتظار ما حدث باسهاب وتفصيل .

هاج سعيد اكبر غاضبا وصاح من شدة انفعاله :

– ما احمق هذه الفتاة !

وشطت يده اثناء هياجه فاصابت وجهى ، ودهشت لذلك اشد الدهشة ، اذ لم استطع ان افهم كيف يمكن ان اكافا على صنيعى معه بهذا الشكل ! تاثرت لذلك وغضبت ، الا اننى شعرت بالرغبة للضحك فجاة بعد قليل فقد كان تعبير وجه سعيد اكبر على غاية من الارتباك .

ابتعدت عنه وفى قلبى غضب عليه ورغبة للانتقام منه . ولكن ما الذى كان بامكانى ان افعله وقد كنت آنذاك مجرد ولد صغير وهو شاب قوى كبير وتلميذ مدرسة !

حصل ابراهيم خوجا بعد موت ابيه على ارث مكون من بيت واحد فلم يعد يبتعد عنه كثيرا . راح يعمل فى معالجة المرضى بالتمائم والتعاويذ فى نفس الغرفة التى مات فيها ابوه .

وفى احد الايام جاءوا له بمجنون ، طويل القامة ، نحيف ، ذى لحية طويلة ، يتجاوز الثلاثين عاما .

لم تكن طريقة معالجته جد معقدة . وكان جميع انواع المشعوذين والسحرة يلجاون اليها آنذاك . فقد ربط ابراهيم خوجا ساقى المجنون بالقيود وشده بالسلاسل الى العمود الموجود وسط الغرفة ، فلم يكن بامكان المجنون غير الوقوف وحسب او الجلوس على الفسحة المرتفعة القائمة فى زاوية الغرفة . وكان ابراهيم خوجا لا يطعمه بغير الخبز اليابس مرة واحدة كل يوم . ويعذبه مرتين فى اليوم بالسوط على ظهره العارى . وكان يضرب المريض ، شانه شان كل السحارين ، لا ضربات معدودة بل حتى تتعب يداه وتكلان . وكان المجنون يصرخ كل مرة يرى فيها احدا ما :

– لماذا يعذبوننى ؟ ولماذا يميتوننى جوعا ؟ انا ايضا من خلائق الله ، فارحمونى !

كنت اعطف عليه ، وكنت احاول دائما ان ادس له فى يده قطعة خبز او اعطيه مشمشا مجففا .

وهكذا اعتاد ذلك المجنون علىّ شيئا فشيئا . فكنت اقترب منه دون اى خوف ولم اكن الحظ عنده اية علامة من علامات الجنون . الا انه كان يتكلم فى بعض الاحيان عن اشياء مضحكة ،

فقد كان يتحدث مع الشمس ويتوسل اليها ان تخلصه من سجنه وتاخذه اليهـــا كى يستطيع التمشى فى ارجاء السماء بحريـــة تامة ، ولينظر من هناك الى حقولنا .

وفى احد الايام قال لى :

– اطلب من عمـــك ان يطلق سراحى ولو لفترة وجيزة . ساتمشى فى الحديقة المجاورة للجامع فقط واعود . اعطيـك وعدا باننى سوف اعود . واضع القيود بنفسى على يدى ورجلى . من اجل ذلك ساهديك الشمس ، تستطيع ان تجلس عليها وتذهب معها اينما تشاء .

رايت فى هذا الوقت سعيد اكبر عائدا من الجامع الى بيته ، فسالت المجنون :

– هل ترى ذلك الشخص ؟ انه هو من لا يسمـــح لعمى باطلاق سراحك . ساحررك انا اما انت فالحقه واضربه . فقد يوافق آنذاك على اطلاق سراحك .

التمعت عينا المجنون مثلما تلتمع عينا الذئب عند رؤيته لحمل . فصاح بى :

– هيا اطلقنى بسرعة !

فتحت قفل السلسلة التى تربطه بالعمود . حمـل المجنون السلسلة بيده ومضى الى الحديقة المجاورة للجامع . كان السير فى قيوده صعبا عليه . وكان يستطيع تحريك قدميـــه بخطوات قصيرة وحسب . ومن غير ان يترك مهلة لعدوه يهرب بها منه قفز نحوه بضعة قفزات اصبح بها عنده فتناوله بكلتا يديه ورفعه الى الاعلى طارحا اياه على الارض ، جلس على صدره وراح يكيل له الضرب .

كان سعيد اكبر يصرخ اول الامر بقوة الا ان صوته خمد فيما بعد من شدة رعبه ربما او لفقدانه وعيه .

هرع اثر ذلك والده اسطه خوجا من باحة البيت وتجمع الناس قادمين من الجامع والمدرســة ليخلصوا الضحيـــة من بين يدى المجنون ، وليعيدوا هذا الى مكانه .

شعرت بذنبى آنذاك ، فلو تاخر الناس على سعيد اكبر قليلا لربما هلك هذا من الضرب .

لم اقل لاحد ان سعيد اكبر ضربنى ، لأن والدى كان ليعاقبنى لو عرف اننى حملت الى الفتاة رسالة منه . اما الآن فخوفى مـن سعيد اكبر نفسه جعلنى اخفى عن الجميع امر انتقامى منه .

كان العم اسطه خوجا يمارس ، الى جانب الحفر على الخشب ، رسم النقوش للخزافين ، يستعملونها فى مصنوعاتهم . وكان من بين هؤلاء فى قرية رباط اسطه حاذق برز فى صنع الاوانى والصحون الجميلة .

كان هذا يطلب من اسطه خوجا رسما جديدا فى كل مرة يصنع فيها مجموعة جديدة من الصحون . كان لهذا الخزاف ابن يبلـــغ الخامسة والعشرين من العمر ، كسرت ساقه فى طفولته بعد سقوطه من شجرة ، والتأم العظم لا كما يجب فاصبحت ساقه اليسرى اقصر من اليمنى ، ولذلك كان صعبا عليه ان يسير فكان يتنقل عادة على ظهر حمار .

كان ابن الخزاف هذا يأتى الى العم اسطه خوجا كل اسبوع تقريبا حاملا طلبات والده ، وفى اليوم التالى كان ياتى ايضـــا لاستلامها جاهزة منه .

ولكنه فى الآونة الاخيرة كان ياتيه كل يوم تقريبا ، بل ويبيت عنده بعض الاحيان .

يذهب فى الصباح برسوم جديدة ، وفى المساء ياتيـــه بطلبات جديدة ، حتى ان الجميع دهشوا لكثرة هذه الطلبات .

بل ودهش اسطه خوجا نفسه :

– عادة يوصى الخزافون على رسمين فى العام ، احدهمـــا للاوانى والثانى للصحون . ومن النادر جدا ان يوصوا على رسم جديد لمجموعة جديدة من الاوانى والصحون . ولكن خزاف قرية رباط تسلم منى رسوما تكفى لنقش كل آنية وصحن لديه عـلى حدة . وهكذا فان اوانيه وابارقه الفخار تجدها فى النتيجة اغلى بعشر مرات من مثيلاتها المصنوعة من الفرفور الصينى . ولا افهم ما حاجته لكل هذا !

بعد عدة ايام عرفت انه كان يزور قريتنا لغرض آخر غير طلبات الرسومات .

وكان ذلك بعد ان ذهب عمى قربان نياز الى غيشدوفان ليخدم فى سلك القاضى عبد الواحد . وفى نفس الوقت اختار عمى الآخر على خان خطيبة له من بنات خزاف غشيدوفانى .

ارادت جدتى ان ترى خطيبة ابنها وان تزور ابنها الآخر قربان نياز فى نفس الوقت . فالتمست منها ان تصطحبنى معها .

واذ وصلنا غيشدوفان توقفنا ليلة واحدة فى بيت الخزاف . وفى منتصف الليل استيقظنا على صرخات تتعالى :

– لصوص ! لصوص !

قفز الجميع من اماكنهم والتمت النساء فى كومة واحدة ، يرتعشن ويتهامسن .

وهرع الرجال الى الباحة . وسرعان ما طمأن الخزاف النساء ، فقد اتضح ان ضيفا قد قدم اليهم . ورأيت كيف مر الضيف ، يعرج عبر الباحة .

لفت جدتى فى الصباح الباكر هديتنا فى منديل ، وذهبت الى القاضى عبد الواحد . كنت برغبة شديدة لرؤية الكهل الطيب الشائب ، فلم اتاخر عن جدتى خطوة .

وعندما وصلنا بيته اخذ الخدم من جدتى هديتنا اليه ، وقادونا الى الباحة الداخلية . كنت ما ازال ولدا صغيرا الا انهم لم يسمحوا لى بدخول حريم النساء . فبقيت اجلس القرفصاء قرب جدار الاسطبل .

رأيت القاضى العجوز من مكانى . كان يجلس فى مدخل غرفة الاستقبال ينظر فى بعض القضايا القضائية . لم يرنى ، ولعله لم يكن يرغب او لم يكن يستطيع التحدث معى فى ذلك الوقت .

وفى تلك الاثناء مر بالقرب منى ابن ذلك الخزاف يعرج فى مشيته ، والذى كان يأتى الى اسطه خوجا بكل تلك الطلبات الكثيرة للرسومات .

ذهب الى غرفة القضاء ، وكانت هناك فتاة تسير وراءه وقد برقعت راسها بقفطانه ، وامسكت بيدها بقوة حاشيته .

دخل غرفة القضاء فى اثرهما خدم القاضى واناس مختلفون من راغبى الاطلاع على قضايا المحاكم . كان الجميع يتحدثون فيما بينهم

عن الفتاة الهاربة وزواج ابن الخزاف وعن اشياء اخرى لم تبلغ سمعى او لم افهمها .

اقتربت من المكان الذى كان القاضى يجلس فيه الا اننى لم استطع فى البدء ان افهم جيدا ما يدور امامى .

ارتفع صوت القاضى فجأة :

– من جعلك يا فتاة تحيدين عن الطريق القويمة ؟

اجابت الفتاة بصلابة رغم الدموع الراشحة من صوتها :

– لا احد . اننى اريد الزواج من هذا الانسان بكل ارادتى .

– وماذا سيقول والداك لو عرفا بهذا الامر ؟ هل يعطيان موافقتهما ؟

فردت بصوت عال رنان :

– هذا الانسان بالنسبة لى الآن اب وام . ولا دعوى لى بموافقتهما او اعتراضهما .

بدا القاضى بمراسيم الزواج المعتادة . فقرأ الصلوات والدعاءات التى تبارك هذا الزواج . وكان جزء من هذه الدعاءات قد تلى باللغة العربية ، والجزء الآخر باللغة الطاجيكية . وباللغة الطاجيكية سأل القاضى ابن الخزاف :

– بعقل راجح وذاكرة صاحية وبين هؤلاء الحاضرين ، هل توافق على الزواج من هذه الفتاة الموجودة هنا حسب الشريعة الاسلامية ؟

اجاب :

– نعم ، اوافق !

– بعقل راجح وذاكرة صاحية وبين هؤلاء الحاضرين ، هل توافقين حسب الشريعة الاسلامية على منح جسدك لهذا الشاب ؟

فتردد صوتها ثابت النبرات :

– اوافق الف مرة !

بدا لى صوتها مألوفا لدى سمعى ولكنى لم استطع ان احدد اين ومتى سمعته ، وعبثا حاولت تذكر ذلك .

واحتشد الناس قرب آنية الماء المرافقة لطقوس الزواج . ونزل ابن الخزاف والفتاة من عتبة القاضى وتوجها الى البوابة وسارت الفتاة مثلما جاءت معه ممسكة حاشية صايته بقوة .

واستبقتهما الى الشارع قافزا اليه لاعرف هناك صاحبة الصوت الذى بدا اليفا لسمعى .

كانت تلك الفتاة شجاعة ذات ارادة لا تلين استطاعت ان تقف بوجه التسلط الاميرى والعشائرى فى تلك الظروف الصعبة وتزيح من طريقها كل العوائق التى اعترضتها .

نظرت اليها مرتين ولكننى لم استطع تصديق نفسى ، فقد كانت تلك الفتاة التى سارت مع ابن الخزاف خارجة من القاضى فى التو ، هى حبيبة نفسها !

ومن دهشتى لم استطع ان اتحرك من مكانى فلبثت واقفا فى طريقهما ناسيا ان علىّ التنحى جانبا .

ورايت حبيبة تسير نحوى مباشرة .

لقد راتنى هى الاخرى ولكنها لم ترتبك ، ابتسمت ونحتنى عن الطريق بلطف قائلة :

– اهذا انت يا قاطع الطريق ! ما الذى تفعله هنا ؟ لقد علمت قبل الجميع بامرى فانقل لهم تحياتى .

ومرا سعيدين بجانبى ، ثم اعتليا جوادهما ، ومضيا . هو يجلس على السرج ، وهى وراءه .

واصبح واضحا لدى لمَ كانت تقرا اشعار حافظ بمثل ذلك التاثر :

لا هدوء لى حتى تتحقق احلامى
ولا راحة لبالى حتى يعطف الحبيب بوصل
اما اموت او ابقى معه ابد الدهر
بغير ذلك لا هدوء لى .

الشاعر

انهيت مدرستى ، ولكننى لم اتعلم القراءة . كنت استطيع قراءة ما تعلمته فى المدرسة وحسب ، وفى الكتب التى كنا نقرأ فيها فقط . واذا صدف ان وقع بين يدىّ ما لم اقراه فى المدرسة او ما قراته فى كتاب آخر فقد كنت انتهى من ذلك دون ان افهم شيئا . ولهذا فقد دفعنى والدى لان ادرس مع اخى محى الدين

وسعيد اكبر خوجا مع ملا القرية الذى كان يدرسهما فى اشهر الصيف .

قرانا فى البداية مع الملا كتاب «اوليات العلم» . فعرفنا من خلال الاسئلة والاجوبة فيه مختلف المسائل الدينية . قرانا هذا الكتاب فى شهر واحد . ثم بدانا بعد ذلك بقراءة كتاب يسمى «بيدان» . كان الكتاب مكتوبا باللغة الطاجيكية وفيه شروحات عن النحو العربى . لم افهم شيئا لا من ذلك الكتاب ولا من هذا . كنت اردد كالببغاء بعد معلمى ما كان يذكره امامى .

كان النظام عندنا عند الانتقال من درس الى آخر ان نقرأ كل ما تعلمناه فى الدرس السابق دون توقف امام الملا . وكان المعلم لا يعبأ ابدا فيما اذا كنت افهم القواعد الطاجيكية المختلطة بالامثال العربية . بل اننى نفسى لم اكن افكر بمعنى ما اقراه .

ومنذ اليوم الاول الذى بدانا فيه بقراءة هذا الكتاب اجبرنى المعلم على حفظ بعض الاسئلة والاجوبة واستذكارها غيبا . كان اول الاسئلة : «لماذا يقول المؤلف : المعرفة لا القراءة ؟ الجواب : لان القراءة لا تعنى المعرفة ولكن المعرفة تعنى القراءة . ولهذا فالمؤلف يقول : المعرفة لا القراءة» .

لم استطع ان افهم لا السؤال ولا الجواب ، ولم يكن ذلك مدهشا فى عمرى . ولكن المدهش ان لا يفهم معلمى المحترم نفسه لا ذلك السؤال ولا جوابه . واذا فهم فانه لم يكن يعبأ بكثير او قليل فيما اذا كنت افهم درسه ام لا .

والمدهش اكثر ان والدى الذى كان يبذل الكثير من اهتمامه لدراستى لم يكن يسأل اذا كنت افهم شيئا ما مما اقراه . كان يجبرنى كل مساء على حفظ درسى غيبا كى لا اخجل فى الصباح امام معلمى . وكان يسمع بنفسه احيانا كيف استذكر درسى ، فكان يقول مثنيا اذا كنت قد قراته دون توقف :

– عفارم ! هكذا عليك ان تحفظ درسك دائما .

استفدت من تلك الدروس فائدتين .

الاولى : تعلمت عدد الحروف الابجدية والمعنى العددى للحروف العربية . كان والدى شرح لى هذا بالتفصيل . وحسب هذه القاعدة كنت اعد ارقام الحروف العربية واسجلها .

الثانية : احببت الشعر . لم اكن افهم آنذاك معناه ولكن ايقاعه كان يسحرنى . كنت احب ان اكرر مع نفسى ما كنت قد حفظته عن ظهر قلب من اشعار الغزل .

كانت اشعار الغزل التى شرحتها لى يوما ما حبيبة تؤثر بى بشكل خاص . واذ كنت اتذكرها كان يستولى علىّ حزن لذيذ . وعندما كنت اذكر روحها الجريئة ، ورشاقتها ، وخفة حركتها ، كانت تتبدى لى بطلة من بطلات الاساطير . وقد اثر ذلك فىّ بحيث ان الاخيلة كانت تاخذنى بعيدا .

كنت شديد الرغبة لمعرفة معنى الاشعار التى اسمعها ، وكان والدى وحده يعيننى فى ذلك فقد كان يجيبنى بوضوح على كل اسئلتى . ولكنه كان يتجهّم عندما اساله عن معنى قصائد الغزل ويقول :

– تكبر وتعرف معناها .

لم اكن اعرف آنذاك ان فى ديارنا ايضا يعيش الشعراء . كنت اعتقد ان نظم الشعر من نصيب القديسين وحدهم . وما دام هؤلاء قد عاشوا فى الزمن القديم وليس هناك منهم بيننا الآن فان نظم الشعر ايضا لا يمكن ان ينزل من رحم زماننا هذا . خطرت لى هذه الفكرة فى مدرسة بيبى – خليفة ، وظللت اعتنقها حتى كان لى لقاء مع احدهم جعلنى اعتقد بان الشعر يمكن نظمه فى زماننا ايضا .

ذهب والدى فى احد الايام الى الجامع ليؤدى صلاة المغرب ، ولكنه ما كاد يصل الجامع حتى عاد مسرعا فنادانى لاتبعه وعاد مسرعا اليه . ركضت وراءه .

اجلسنى والدى على حائط عال يفصل بين باحة بيتنا وبين الحديقة التابعة للجامع ، ثم قال لى وهو يقف الى جانبى :

– سيخرج من الجامع الآن معلم اخيك الاكبر ، ساريك اياه . وبعد بضعة دقائق خرج من الجامع ملا قريتنا الذى كنت ادرس عنده آنذاك ، والى جانبه كان يسير رجل قصير القامة ، ونحيفها ، وبوجه شاحب . كان يرتدى صاية بيضاء وكان راسه مزينا بعمامة بيضاء غير كبيرة .

قال والدى :

– هذا هو معلم اخيك الاكبر . انه انسان كبير ، وعالم جهبذ ، وشاعر موهوب .

دهشت : انسان كبير ولكن قامته قصيرة ، عالم جهبذ ولكن عمامته اصغر بكثير مما لدى معلمنا الملا !

قال والدى :

– عظمة ومعرفة الانسان لا تقاسان بطول قامته وكبر عمامته . الحكماء والعلماء الحقيقيون يضعون على رؤوسهم عمامات صغيرة فعظمتهم فى معرفتهم .

كنت اعرف آنذاك ما هو الشعر ولكن معنى كلمة «شاعر» لم اكن اعرفه بعد فسالت والدى :

– وماذا تعنى كلمة «شاعر» ؟

– انه الانسان الذى ينظم الشعر .

اردت ان اساله : وما الذى كتبه ؟ ولكن وقت الصلاة قد حان فانزلنى والدى من الحائط . الا انه خمن فيما يبدو ما يدور فى راسى فقال :

– اجر الى البيت . وعندما اعود ساقرا لك شيئا من شعره .

وعندما عاد والدى الى البيت تناول من الرف كتابا كان قد خطه بيده . وكان قد كتب فى نهاية الكتاب بضعة اشعار غزلية على صفحتين او ثلاث ، اراها والدى لى وقال :

– هذه ابيات من اشعاره الغزلية .

ثم قراها لى شارحا معناها . وكانت كلمة «عيسى» تختتم كل بيت من قصيدته . وقال والدى :

– هذا الاسم استعاره لنفسه لكتابة هذه الاشعار .

ترددت كلمة «فقر» كلازمة لاحد اشعاره فاضاف والدى :

– نظم عيسى هذا الشعر عندما كان فى الثلاثين من عمره . كان يطمح آنذاك ان يتخلص من فقره عندما يبلغ الاربعين او حتى الخمسين من عمره . ولكنه تجاوز الاربعين والخمسين وبلغ الستين ولم يتخلص حتى اليوم من فقره . عاش كل حياته على نسخ الكتب واعطاء الدروس ، فانظر كيف يبرز الكثير من العلماء من بين اكثر

الناس فقرا ، فى الوقت الذى تكاد فيه امكانية الدراسة تستحيل عليهم .

وبدا على وجه والدى تعبير تأمل سادر حزين ، وتنهد مستأنفا :

– ايه ، لو تعلمت انا ايضا لربما كنت شيئا ما يذكر . ولكن الفقر لم يسمح لى بذلك ، فتفكر يابنى وادرس جيدا ! لم افعل انا شيئا فعلك تفعل انت ذلك . هل تسمعنى ؟ هيا اسمع ، هذا ايضا كتبه عيسى :

ايها المتبطل المعتاد على التوانى
انت تذبل وتموت
فلو جمعت اوراق سفر الحياة
لكان بين يديك كتاب للاماني .

هل تفهم معنى هذه الابيات ؟ هذا الانسان الحكيم يعتبر التبطل شبيه الموت . فهو يعلمنا ان نعمل باستمرار فالعمل يدفع برد الموت عنا . وهذا ما يكتبه شاعر آخر حول هذا الموضوع :

ليس نصيبك ما ياتيك من القدر
بل مما تفعله يداك .

ولما شرح لى والدى معنى هذه الابيات اضاف قائلا :

– تأمل كيف تتقارب وجهات نظر هذين الانسانين العظيمين . كتب الجد صائب * هذه الابيات منذ مائتى وخمسين عاما . اما عيسى فيعيش بيننا ولقد رايته بنفسك اليوم . كما لو ان كاتب هذين الشعرين كاتب واحد ، ولكن كلاهما يدعوان الى العمل وحبه ويحذران من التبطل .

كان والدى يحترم كثيرا الجد صائب كما كان يسمى الشاعر المشهور صائب الاصفهانى . وكان يبدو عندما يقرأ اشعاره كطفل ينحنى على آنية ملأى بالمربى . ولقد اثر ذلك الحديث اشد التاثير فى حياتى القادمة .

---

* الجد صائب يقصد به ميرزا محمد على صائب الاصفهانى (١٦٠٣–١٦٧٧) شاعر الهند المشهور ، كتب بالفارسية . وكان له اثر معلوم على ادب القرنين السابع عشر والثامن عشر . **الناشر** .

وفى ذلك اليوم عرفت ان بالامكان ان يصبح المرء شاعرا فى زماننا هذا ايضا ، رغم ان الشك كان يساورنى : هل بالامكان ان يصبح المرء شاعرا دون ان يكون قديسا ام ان عيسى كان قديسا ولذلك قد اصبح شاعرا ؟

فسألت والدى :

– وهل القديسون وحدهم يستطيعون ان يصبحوا شعراء ؟

فابتسم والدى :

– لا ، ليس وحدهم . بل حتى انا كتبت هذا الشعر تكريما للايوان الجديد الذى بناه عمك اسطه خوجا :

هذا الايوان بنى فى عام الدجاجة *
فليكن لها «والماء» و«الحب» ...

وقال والدى :

– هل ترى ؟ المكافئ العددى لحروف كلمة «دجاجة» هو الف ومئتان واربعون . فاذا اضفت لهذا العدد المكافئ العددى لحروف كلمتى «الحب» و«الماء» (وهو ثلاثة وستون) فان الناتج سيكون العدد الف وثلاثمئة وثلاثة وهو عام بناء الايوان .

كنت اجيد الابجدية والمكافئ العددى للحروف فاجريت العملية الحسابية المطلوبة فحصلت على نفس الرقم : الف وثلاثمئة وثلاثة .

افعمنى كل ذلك بفرح شفيف . وليس فقط لان والدى يستطيع كتابة الشعر بل وغير القديسين جميعا ايضا . فلقد كتب والدى شعرا ! اما انه لم يكن قديسا فلم اشك فى ذلك مطلقا .

كنت ارغب بسماع المزيد من شعر والدى ، فطلبت منه ذلك ، الا انه اجاب :

– لست شاعرا ، ولا تعتقد ان كل من كتب بيتين ، ثلاثة ، شاعر . فكل من فيه قليلا من موهبة الشعر يستطيع ان يكتب

---

* هو العام العاشر من دورة الـ ١٢ عاما المسماة باسماء الحيوانات وهو التاريخ الذى تستعمله شعوب آسيا الوسطى الى جانب التاريخ القمرى الاسلامى والتاريخ الشمسى ما قبل الاسلامى . صادف هذا العام فى ما بين عامى ١٨٨٥ و١٨٨٦ . **الناشر** .

بعض الابيات . ولكن الموهبة وحدها لا تكفى لكى يكون المرء شاعرا كبيرا . الشاعر الحقيقى هو انسان كبير ، يعرف الكثير عن الحياة ، ومن جوانب متعددة . وآنذاك فقط يمكن ان يكون المرء شاعرا مثل عيسى او الجد صائب او بديل او حافظ .

– وهل هناك شاعر آخر غير عيسى بيننا الآن !

– بالطبع ، وكثيرون . خذ قاضى غيشدوفان عبد الواحد ، انه شاعر ايضا .

شعرت بالحيرة اذ سمعت بذلك . عندما تحدثت معه قبل عدة سنوات كان لطيفا معى ولم اكن اعرف بانني تكلمت مع شاعر . ولقد همّنى فيما اذا كنت استطيع ان اصبح نفسى شاعرا فسألت والدى عن ذلك فاجاب :

– بالطبع . ولكن ذلك ليس سهلا . عليك ان تتعلم الكثير وتقرا الكثير . عليك ان لا تتعرف على الشعراء حسب بل وان تعرف خصائص كل منهم ، لكى تتعلم منهم كيف تعثر على خصائصك التى تميزك عن غيرك . ولكن عليك فى هذه المرحلة من عمرك ان تتعلم القراءة والكتابة ، وان تحفظ الكثير من الشعر غيبا ، اما نظم الشعر فالافضل ان تدعه الى حين .

كنت اعشق الشعر . الا اننى لم اكن اعرف القراءة تقريبا . واتعس من ذلك كان حالى مع الكتابة . وغير بعض العلامات التى علمنى والدى رسمها اثناء تعليمى الابجدية لم اكن اعرف كتابة اى حرف تقريبا . طلبت من والدى ان يعلمنى الكتابة فقال :

– حسنا . وعندما تتعلم الكتابة فان قراءتك ستتحسن كثيرا .

وفى ذلك اليوم حفظت عن ظهر قلب بعض قصائد عيسى التى اعجبتنى اكثر من غيرها :

قلبى يلهج بالشكران لنظرة من عينيك حسب ،
ولابتسامة مرت على شفتيك فمنحتنى اعمق الافراح .
آه ! يا لجمالك الشامخ ، آه ! يا لمرح الحب والربيع !
كل ما فى احواض الزهر انثره تحت قدميك .

تعلم الكتابة

عندما طلبت من والدى ان يفى بوعده فيعلمنى الكتابة قال :

– خطّى سيئ ، فاذا تعلمت الكتابة منى سيكون خطك سيئا ايضا . انتظر ريثما يعود سعيد اكبر من بخارى قريبا ، خطه جميل ، والافضل ان يعلمك هو الكتابة .

كان الاثر الذى خلفته صفعة سعيد اكبر على وجهى قد تلاشى منذ زمن بعيد ، ولكننى لم استطع نسيانها فلم اكن ارغب ان اتعلم شيئا منه . ولكننى تذكرت ما قاله والدى لى حول قدسية العلم ووجوب تذليل كل العوائق التى تحول دون نيله . والى جانب ذلك فاننى كنت قد انتقمت من سعيد اكبر بمعونة ذلك المجنون ، فهل يحق لى بعد هذا ان احتفظ بزعلى عليه ؟

واذ فكرت بكل هذا وافقت والدى .

وفى احد الايام قال لى والدى :

– يجب الاهتمام بادوات الكتابة . الناس يقولون : «اذا كان الماء حبرا ، العصا قلما ، والارض ورقة ، فكيف يستطيع ان يكتب الانسان بهذه الاشياء ؟»

اصطحبنى والدى حتى غيشدوفان عند ذهابه الى سوق الجمعة فى قرية محلة بالا . فاشترى لى هناك علبة للاقلام وقصبتين للكتابة ، ومحفظة للاوراق مصنوعة من جلد الخراف ، وسكينا كمبراة للاقلام ، وكرة من الخيوط الحريرية توضع فى المحبرة كى لا تاخذ ريشة الكتابة حبرا كثيرا ، واربع صفحات من الورق القوقندى . واذ سلمنى والدى هذا الكنز ارجعنى الى قرية ساكتاره ، اما هو فقد واصل طريقه الى محلة بالا .

عدت على الحمار حاملا اشيائى من السوق الى البيت وفرحى فى صدرى لا حدود له . وعندما خرجت من غيشدوفان بدا سرج الحمار ينزلق عن ظهره .

كان ثمة حائط غير مرتفع يمتد بمحاذاة الطريق ، نزلت عن الحمار بعد ان توقفت فى الظل ، ووضعت على الحائط مشترياتى ، ثم عكفت على تعديل السرج على ظهر الحمار .

ودون ان انتبه اصطدمت يدى بعلبة الاقلام فسقطت من الحزمة ووقعت فى الجانب الآخر من الحائط ، فى قناة . ولما عبرت عبره الى ذلك الجانب لم اجد ماء فى القناة . ولكننى لم اعثر ايضا على علبة الاقلام ! لاحظت ثمة بئرا ضيقة محفورة فى الجدول وقد كانت علبة الاقلام قد سقطت فيها .

جلست على حافة القناة وبكيت بصوت عال كما تبكى الام وليدها على قبره .

سألنى شخص مر بالقرب منى :

– ما الذى حدث لك يا ولد ؟

ذكرت له ما اصابنى وانا انشج . فقال لى :

– لا تبك ، لا تبك . لن تسترجع ما فقدت بالدموع .

ثم بدأ عابر السبيل ينزع ملابسه فنظرت اليه دهشا ، وقال :

– ساخرجها لك الآن !

ترك صايته وعمامته وحذاءه على الحائط وتقدم من البئر بملابسه الداخلية وحدها . ثم افرد ساقيه على الدرجات المحفورة فى باطن جدار البئر ونزل فيها مسرعا .

تناول علبة الاقلام من القعر ودسها فى حزامه . ثم خرج من البئر بها ، وانا اشعر بسعادة غامرة لا مثيل لها .

منحتنى تلك العلبة فرحا لا يوصف فى يوم واحد ، بل فى ساعة واحدة ، وقد كنت فرحا فى البداية لان والدى نفسه ابتاعها لى ، اما الآن فانها اصبحت اكثر معزّة بعد ان اعادها لى عابر السبيل الغريب هذا . لقد اشتراها لى والدى بتينغ واحد ، والدى الذى يمنحنى الكثير من الاشياء الطيبة ، اما عابر السبيل فقد كان غريبا تماما علىّ ورغم ذلك صنع معى معروفا لا ينسى ! ورغم اننى كنت فتى صغيرا ، دع عنك ان علبة الاقلام كانت من النوع الممتاز ، فقد احسست بشعور عال من العرفان بالجميل تجاه ذلك الشخص . الا اننى لم اكن اعرف كيف السبيل للتعبير عن ذلك الاحساس .

مسحت بيدى عينىّ الدامعتين اللتين كانتا ترشحان توا بالاسى والياس وابتسمت بفرح .

لم يصب العلبة شىء تقريبا ، ليس غير من جانب واحد تعفّرت قليلا ، اما الداخل فلم تنفذ قطرة ماء واحدة اليه .

وعندما قصصت على والدى ما حدث لى ، اجاب :

– هذه العلبة من صنع الاسطه الفنان مير عادل (كان مير عادل اخا لكورى عبد الذى عمل فى قسم المخطوطات الشرقية فى مكتبة اوزبكستان العامة بطشقند والذى توفى عام ١٩٤٤) .

كان مير عادل واحدا من الاسطوات الحاذقين فى صنع العلب الجميلة القوية ، وقد كانت علبتى مغلفة من الخارج بورق سمرقند الذى لا ينفذ الماء خلاله ابدا .

وقد قال والدى وهو يتفحص علبتى :

– غلاف العلبة لم يتاثر بالماء ، بل يبدو انه تاثر اثناء سقوطه واصطدامه بحجر او جذع .

* * *

جاء سعيد اكبر اخيرا من بخارى . وبدأت اتدرب معه على فن الخط .

وكشان جميع دارسى هذا الفن كان سعيد اكبر يرسم الحروف كبيرة جدا على الورق ، مستخدما قلما كبيرا جدا لذلك الغرض .

اتضح اثناء انكبابه على رسم تلك الحروف انه يجيد كتابتها صغيرة اما خط الحروف الكبيرة فقد كان لا يجيده .

ولكن كان عليه ان يرينى كيف يجرى رسم الحروف الكبيرة كمبتدئ فى تعلم اصول هذا الفن ، وهكذا كان يستخدم قصبة خاصة فيصعدها وينزلها ويلويها حتى تظهر الحروف عنده رائعة جميلة ، بحيث لا يستطيع احد ان ينتقده بشىء عند النظر اليها .

اعطانى سعيد اكبر هذه الورقة وامرنى :

– اذهب الى البيت وارسم حروفك تحتها بحيث لا يمكن تمييزها عن حروفى . ثم اكتبها على ورقة اخرى واجلبها لى غدا لالقى عليها نظرة . فاذا كتبتها بصورة حسنة اعطيتك واجبا جديدا ، واذا لا ، فعليك ان تعيد كتابتها .

اخذت الورقة وذهبت الى البيت .

وفي البيت عكفت مباشرة على الورقة ورحت امسك باصابعى المرتعشة قصبة الخط لارسم الحروف المعطاة لى ، الا انها تمددت على الورقة شوهاء متعرجة ، ولكننى لم ايأس وقد وضعت نصب عينىّ معلمى مثالا يحتذى . فمسحت الزوائد والهفوات التى بدرت منى كما فعل معلمى وامررت القصبة على الامكنـــة الممسوحة من جديد . فظهرت الحروف كما ينبغى ، بحيث يمكن تمييزها ومعرفتها بوضوح .

وعندما انتهيت من هذا الواجب عرضته على والدى فامتدح عملى دون ان يوجه انتقادا يذكر الى ما فعلت .

وعندما حملته فى الصباح الى معلمى لم يخطر له اننى لـم اتعلم الكتابة منه بعد ، ولكننى تعلمـت كيف اقلده فى الزيف . امتدحنى ايضا ، وسمح لى بالانتقال الى درس آخر .

وهكذا تعلمت رسم الحروف منفصلة خلال فترة قصيرة . وسرعان ما وصلت الى الحروف المتصلة ، وقد كتب معلمى بيتين من الشعر لانسخهما عند تعلمى :

ما دمنا قد تعلمنا رسم الحروف منفصلة
فقد آن لنا اوان رسمها متصلة .

تحول سعيد اكبر الآن الى الكتابة العادية ، بحروف صغيرة ، مستخدما قصبة عادية ايضا لهذا الغرض . فلم يعد بحاجـة لان يمسح بعض الزوائد والزلاّت مما يكتب . لم اكن قـد تمرنت جيدا على الكتابة وهكذا فقد كنت مضطرا كما من قبل الى المسح واعادة الكتابة .

انتهيت من دروسى . واصبحت عندى الامكانية الآن لنسخ الاشعار . ولكن خطى كان سيئا للغاية . اذ لم يكن باستطاعة احد ان يقرأ خطى غيرى ، بل اننى نفسى لم اكن استطيع احيانا قراءة ما كتبته بيدى قبل بضعة ايام .

وليس الا بعد اعوام كثيرة تحسن خطى بفضل وفرة مـــا كتبت . ولكنه ظل خطا لا ملاحة فيه طيلة حياتى .

عيد فى درويش آباد

حل الخريف ، وآن أوان السفر الى درويش آباد .

نصحنى والدى ان لا اسافـر فى الاسبوع الاول من العيد :

– الاسبوع الاول يطلقون عليه عادة اسبوع الاطفال ، ليس هناك ما يمتع خلال هذا الوقت . الافضـل ان تسافر فى الاسبوع الثانى .

عزم ابراهيم خوجا ابن عم والدى على السفر الى درويش آباد فى الاسبوع التالى . اعطاه والدى ثلاثة تينغات وطلب منـــه ان يصطحبنى معه برفقة ابن اخيه حميد خوجا كى تكون السفرة الطف وامتع . كان علينا المبيت فى بيت الخزاف الذى تزوج عمى على خان ابنته فى ذلك الوقت .

كان العيد يبدأ هنا عادة صباح يوم الثلاثـــاء ويستمر حتى منتصف الاربعاء .

توجهنا الى غيشدوفان باكر صباح الثلاثاء . وعندما وصلنا بيت الخزاف كان بيته ممتلئا بالناس من ابناء مهنتـه . كانوا جميعا يحضرون الالعاب النارية بصخب وضوضاء . كان بعضهـم يعجن اكوام الطين ، والبعض الآخر يهيئ البارود ، فيما يمزجـه آخرون ببرادة الحديد .

كانت الصواريخ النارية تشبه القماقم او الاباريق من غير مقابض وانابيب ، اضافة الى ذلك لم تكن لها فوهات داخلية فقد ملئ داخلها بالطين والبارود الذى دك جيدا بعصـــا . كان البارود المستخدم بارود اسلحـــة ، ولكى ينفجر اضيفت برادة الحديد والنحاس اليه .

سأل ابراهيم خوجا وهو ينظـــر نحو الخزافين المنهمكين بعملهم :

– ما قيمة الواحد من هذه الصواريخ ؟

– حوالى عشرة تينغات .

– ومن ينفق عليها ؟

– نحن الخزافون والبرادون واصدقاؤنا .

– وما الفائدة التى تجنونها من هذا العمل ؟

– ان تفوقنا على منافسينا من وابقند فان ذلك يفرحنا الى درجة لا نريد معها شيئا آخر .

كان صاحب المكان يجلس على بطانية مفروشة على الفسحة المرتفعة الخاصة للمسامرة ، غمز لابراهيم خوجا قائلا بدعابة :

– يدعونهم بالمجانين . ليس لهم اولاد وزوجات ، ولا يعبأون لطعام او ملبس ، كل همهم وسعادتهم ان يقيموا مرتين فى العام الالعاب النارية ، مرة اثناء عيد درويش آباد ومرة اخرى ليلا اثناء رمضان . اناس سعداء ! انا ايضا حلمت بان اكون مثلهم سعيدا بلا هموم ! ولكن آه من الزوجة والاولاد ، جعلونى ابتعد عن هذا الطريق .

اراد ابراهيم خوجا ان يعترض على كلام الخزاف الا ان هذا اضاف :

– ولكن رغم عدم استطاعتى المشاركة فى عملهم الا اننى اعينهم بكل ما فى امكانى .

– وبالنقود ؟

اجاب الخزاف وهو يغمز له بمكر :

– كلا ! اننى افعل شيئا آخر . ليس دائما يجدون ما ينفقونه على هذه الالعاب ، فاقوم آنذاك باقراضهم المال اللازم لذلك واقتطعه من بعد من اجرتهم ، وهذا بحد ذاته مساعدة كبيرة لهم ، فان اقراض النقود لاحد وقت حاجته اليه ليس عملا صغيرا .

واضاف الخزاف وهو ينظر نحو عمله :

– فائدة هذا الدين ليست فقط ان يستطيع العمال ادخال الفرح الى النفوس بتلك الالعاب ، بل ان يبقوا بهذا الدين لصيقى ورشتهم ، والاشجار تزهر فى نفس المكان كل عام . وبفضل ذلك تزداد مهارتهم من يوم لآخر واذا اعطاهم الله فانهم انفسهم سيصبحون اصحاب الورشة بفضل مهارتهم . وانا نفسى عملت فى شبابى صانعا متدربا . ولولا هذا الدين لرأيتهم يتنقلون من ورشة الى اخرى ، ولضاعت هذه المهارة ، بل لبردت قلوب اصحاب الورش تجاههم فامتنعوا عن قبولهم فيها ، وهكذا ، لاصبحوا متشردين ، سحرة ، لصوصا .

تعبت من هذا الحديث الذى لم تكن تلوح نهاية له ، فسألت ابراهيم خوجا ان يذهب معنا للنزهة . وتوجهنا سوية فى طريقنا الى مكان الاحتفال .

* * *

كان مكان الاحتفال يقع على جانب من الطريق الواسعة الممتدة من سوق الثيران فى غيشدوفان الى بخارى . وكانت الطريق الممتدة من السوق الى مدرسة جوبين عريضة جدا لكانها شارع مواكب . على جانبى الطريق كانت ثمة اراض كثيرة مقسمة الى قطع صغيرة كان اصحابها يجمعون المحاصيل منها فى ايلول ويهيئونها للنزهات فيحصلون مقابل اخلائهم اراضيهم على مبالغ معينة من اصحاب الدكاكين التى تقام عليها اثناء العيد .

كانت هذه الاراضى مقسمة من الشمال الى الجنوب بصفوف من اشجار الحور ، وكانت الدكاكين تزحم عادة على جانبى هذه الاشجار ، يقيمها اصحابها من الحصر والاعواد الخشبية ، ويهيئا بعضها كشايخانات ويطهى فى بعضها الآخر المرق ، فيما يقلى السمك فى غيرها .

تجولنا فى المكان كله ، وكان لا يختلف بشىء عن سوق القرية . ولم استطع ان افهم ما الذى يمتع المتنزهين هنا ، وما الذى يفرحهم فيه ! وفى ناحية غيشدوفان كانت ثمة شايخانات افضل بكثير من التى هنا فهناك مثلا الشايخانة القريبة من بيتنا ، المجاورة للسوق ، مقابل جسر ايشان . تظللها الاشجار وتنداح امامها بركة مياه . اما هذه الشايخانات فليس فيها شىء من هذا القبيل .

سألت ابراهيم خوجا :

– لنذهب الى مكان الطف من هذا .

– هيا !

وقادنا بعيدا عن اشجار الحور والدكاكين والشايخانات الى جدار عال يفصل هذا المكان عن الطريق المؤدية الى مدرسة جوبين والى الجسر المقام على قناة خوجا خومون .

كان الناس يقفون جماعات جماعات عند هذا الجدار ،

فقادنى ابراهيم خوجا الى كل جماعة من هؤلاء . كان بعضهم يلعبون اليانصيب والبعض الآخر يلعب بالاحزمة فيما يلعب غيرهم بورق القمار . كان الهياج يعم الحاضرين جميعا والوجوه تتألق بالحماس تارة وتخبو باليأس تارة اخرى .

كان الحمقى هنا يجربون حظوظهم ويخسرون ما جمعوه بشق الانفس لاجل هذه النزهة .

قلت لابراهيم خوجا مغضبا :

– لا يوجد هنا ما يستحق النظر .

فانفجر ابراهيم خوجا قائلا :

– كلّك على ابيك ! . . اى ولد مضجر انت !

وصمت برهة قال بعدها بلهجة لينة :

– حسنا ، سآخذك الى اكثر الاماكن متعة .

ومررنا من جديد بجانب اشجار الحور والدكاكين وسرنا باتجاه الزاوية الشمالية الغربية من هذا المكان . كانت ثمة بركة مياه كبيرة والى قربها دكاكين الخبازين وباعة الحلوى والفواكه . وكان بعضهم يسند صوانيه الى جذوع الاشجار وفيها ارغفة معجونة بالسكر ، وكانت الحلوى المغرية موضوعة بين اشرطة من الورق المذهب والملون .

كان ضريح درويش خوجا ، الذى يقام هذا العيد احياء لذكراه ، يتربع على تل صغير يقع على شمال هذه البركة ، بينما لاحت فى الجانب الآخر منها سجادات مبرقشة الالوان لاحدى الشايخانات الكبيرة .

ولكننى لم المح هنا ايضا ما يبهر الانظار !

كانت الحلوى والارغفة فى الورق المذهب تستحق الاهتمام فى الحقيقة . ولكن اكلهما ممكن ايضا فى البيت مع توفر النقود ، فما الذى يدعو للسفر والمجيء الى هذا المكان ؟ !

واذ تذكرت بانني «ولد مضجر» امتنعت عن البوح بخيبة املى لابراهيم خوجا . ولكنه قدر ذلك بنفسه بعد ان رأى التعبير المرتسم على وجهى ، فقال :

– العيد الحقيقى يبدأ فى المساء . اما الآن فالناس ، كما ترى ، يتمشون ، يتناولون الغداء ، او يشربون الشاى . ونحن ايضا

سنشترى شيئا ما يؤكل ، ثم نذهب الى الخزاف . وفى المساء نعود الى هنا .

اشترى ابراهيم خوجا رغيفين وحلاوة لفّت لنا بالورق المذهب ، ثم ذهبنا الى الشايخانة الواقعة عند بركة المياه وطلبنا شايا ، وبدانا الاكل . . .

* * *

عدنا الى الخزاف ، وكانت الصواريخ المشحونة بالبارود موضوعة واحدا فوق الآخر كالاباريق فى الورشة .

ارتحنا مدة ساعتين تقريبا ثم توجهنا من جديد لنواصل نزهتنا .

كانت الدكاكين والشايخانات مضاءة بشموع كبيرة والشعلات منتشرة فى كل مكان . فكان كل ما حولنا منورا ، وكنا ننظر باهتمام شديد الى هذه المصابيح الزيتية . واشترى ابراهيم خوجا لنا حزمة كاملة من الصواريخ الورقية . وارتفع اللغط بين الناس . وصاح ابراهيم خوجا :

– لقد بدأت الالعاب النارية !

ذهبنا الى التل حيث كان ضريح درويش خوجا يتربع عليه ، والى جانبه كوخ صغير ، وكانت شجرة توت قد نمت بينهما . وثمة نور ضعيف يرشح خلل شقوق الكوخ .

جلسنا وابراهيم خوجا قرب ذلك الكوخ حيث كانت الدكاكين والشايخانات تبدو من هنا للعيان جيدا . وقال :

– تبدأ الالعاب النارية امام البركة ، ومن الخطر ان تكونا هناك فى هذا الوقت فقد تدوسكما الاقدام . اما من هنا فتستطيعان ان تريا كل شيء بوضوح ودون خطر .

واعطى ابراهيم خوجا قريبه حميد خوجا علبة ثقاب قائلا :

– ان يضجركما انتظار بدء الالعاب النارية اشعلا الصواريخ وتلهيا بها ريثما تبدأ الالعاب .

ذهب ابراهيم خوجا . واشعل حميد خوجا صاروخا . وما ان تعالى صوت الانفجار حتى تصاعد صراخ من داخل الكوخ :

– النجدة ! اننا نموت !

وفتح باب الكوخ وقفز منه بضعة اشخاص .

تملكنا شعور بالخوف فهربنا ، تخفيت وراء المقبرة ، امـا حميد خوجا فقد وقع فى ايديهم ، فنال منهم بضعة جرّات من الاذن وبضعة ضربات على القفا . ولم يتركوه الا بعد ان اقسم لهم صارخا بأنه لن يطلق الصواريخ بعد ، ثم عادوا الى الكوخ .

خرجت بهدوء من وراء المقبرة واقتربت من حميد خوجا ، كان يبكى ، الا انه صمت خجلا اذ رآنى . واقترح علىّ :

– هيا لنذهب نلقي نظرة ، لنعرف من هم اولئك ، وماذا يفعلون هناك ؟

اقتربنا من الكوخ ونظرنا من شق الباب . كان بضعة اشخاص يجلسون فى الداخل ، وامام كل منهم منديل قذر عليه شىء من الحلويات . وكان ثمة شخص آخر يجلس الى جانـب يخوط فى قدح . كانوا يجلسون جميعا وقد اغمضوا اعينهم واحنوا رؤوسهم على صدورهم بشدة ، وكذلك ذلك الشخص الذى يخوط فى قدحه .

وكان احدهم يجلس بينهم دون ان يرفع راسه يفتح عينيه ، فيما يصدر منه صوت اشبه بطنين الذباب . كانوا يتحدثون كما يبدو عن شىء ما بهدوء . الا انه كان من الصعب تمييز كلماتهم بوضوح ، بل حتى اصواتهم كانت تسمع بالكاد .

امسك حميد خوجا بيدى وسحبنى الى الخلف دون ضجة . وعندما جلسنا من جديد فى مكاننا ، قال :

– انهم مدخنو افيون ، وذلك الشخص كان يحضره .

– وكيف عرفت بهذا ؟

– عرفته ! عندما كنت فى ريشت مع عمى رايـت مدخنى الافيون ، عمى احدهم ، وهو مريض جدا . انهم يخشون الاصوات العالية والصخب . اما الآن فسأجعلهم يدفعون الثمن !

ذهب حميد خوجا الى شجرة التوت وحزمة الصواريخ فى عبه ، ثم قام هناك بربطها جميعا فى حزمة واحدة الى احد الاغصـان ، فاشعل الفتيل المتصل بها ثم قفز عائدا وامرنى بالاختفاء بسرعة .

وصلت النار مع الفتيل الى الصواريخ بعد دقيقـة ، فدوى انفجار عال هرع على اثره مدخنو الافيون من الكوخ هاربين صارخين .

ولكنهم لم يعثروا ابدا لا على الصواريخ ولا علينا رغم كل هرجهم وبحثهم عنا . فعادوا ادراجهم الى الكوخ واغلقوا عليهم بابه وهم يلعنون ويسبون .

قال حميد خوجا فرحا بعد اختفائهم :

– هكذا عليهم ان يدفعوا الثمن !

استمر الفتيل بالاشتعال بعد انفجار الصاروخ الاول ، حتى وصلـت الشرارة الى الصاروخ التالى ، فدوى الانفجار مجددا ، وتعالى ايضا سباب مدخنى الافيون ، وفرح حميد خوجا بذلك . وعندما دوى الانفجار الثالث تكرر كـل شىء كما حدث فى المرة الاولى . فقلت لحميد خوجا : لولا هذه المغامرة لعدت من نزهتنا فى درويش آباد خائبا دون ان ارى شيئا . اما الآن فاستطيع القـول بأننى تمتعت بشىء ما فى هذه النزهة .

ودوى الانفجار الرابع فى هذا الوقت ، فراينا موخنى الافيون مرة اخرى يستغيثون ويلعنون .

وفجأة سمعنا خلف ظهرينا ضجة تتعالى ، وامتلأ المكان اجمع حولنا بالضياء ، فتوجهت ابصارنا الى بركة المياه ، وراينا هناك الالعاب النارية وقد بدات .

كان الناس يزدحمون فى ساحة ضيقة قرب بركة المياه بحيث لم يكن هناك مكان لابرة تسقط بينهم ، وكانت الدكاكين وسقوف البيوت جميعا ملأى بالناس من شتى الاعمار .

وكان ثمة شابان يقفان على جانبى الحشد وقد امسكا بيديهما اليمنيين صاروخين .

كان الصاورخ منهما مثل حيوان خرافى مسحور يتطاير اللهب من جوفه ، وينثر حوله الشرر ، فينشر الضياء والالق فى المكان .

وعندما توجـه الشابان للالتقـاء ببعض بدأت الشعلتان بالهمود . فوقف فى مكانيهمـا شابان آخران يحملان صاروخين جديدين .

كان احد الشابين فتيا جدا ، وكان ينقل الصاروخ بين يديه كما يفعل الراقصون فى الافراح .

وكانت الاصوات تتعالى من كل جانب :

– عظيم عبد الله ! رائع عبد الله ! انت بطل حقيقى !

تبينت ملامح وجه عبد الله فى الضياء المنبعث من الصاروخ واذا به وجه نفس ذلك التلميذ الذى درس معى فى مدرسة البنات .

كان والده – الصباغ باتور باى – قد نقله من ساكتاره الى غيشدوفان كى لا يتخنث فى وسط البنات . وما ان وصل الى غيشدوفان حتى انضم الى مجموعة المصارعين واللاعبين فى الشوارع رغم حداثة سنه .

وعندما خبت نيران صاروخى هذين الشابين تقدم الى الحشد من كل جانب ثلاثة اشخاص ، وهكذا ارتفعت نيران ستة صواريخ دفعة واحدة فوق رؤوس المحتشدين فى الساحة ، الذين هبوا بالصياح يشجعون ابطالهم ويثنون عليهم .

كانت انفجارات حمراء ، صفراء ، زرقاء ، خضراء ، تتدفق من الصواريخ ، حتى بدت وكانها باقات كبيرة من الازهار ساطعة بشتى الالوان .

فجاة انبعث لهب من مؤخرة احد الصواريخ ، فتهاوى حامله معه على الارض ، وتصاعد لغط بين الحاضرين :

– لم ينفجر من مقدمته !

– لقد ربح الوابقنديون . هيا يا سباكو موليان اخرجوا بسرعة !

– ارمه الى الماء ، اسرع الى الماء !

رفعوا بضعة اشخاص فى ذلك المكان الذى انفجر فيه الصاروخ ، وقذفوا بهم الى بركة المياه لاطفاء ملابسهم المشتعلة .

وصاح اناس فى الحشد محيّين لاعبى النار بفرح :

– هيا يا سباكون ، هيا !..

الا ان صوت مناوئيهم تعالى فى الحال :

– لا بأس ، فان سكابى وابقند سيجابهون سكابى غيشدوفان !

– الرجولة الحقة تظهر فى الميدان !

– لم يحن اوان الفرح بعد !

ظهر ثمانية اشخاص من كلا الجانبين ، فكانوا ستة عشر لاعبا فى النار . ولكن احد الصواريخ انفجر من مؤخرته ، فيما انفجر آخر

بدوى رهيب هز صوانى بائعى ارغفة الخبز فى ايديهم بحيث تطايرت الارغفة منها حتى بركة المياه .

وسقطنا على الارض مع حميد خوجا فامتزج الصياح والانين والبكاء والاستغاثة بهدير اربعة عشر صاروخا ملتهبا ، وكونت صخبا هائلا لا مثيل له .

كنا نخشى رفع راسينا عن الارض .

وفى نهاية الامر بدأ هدير الصواريخ النارية يهفت ، واصبح بالامكان تمييز بعض الهتافات والصيحات بوضوح :

– تغلبوا على الوابقنديين ، تغلبوا عليهم ، تغلبوا !

– لا بأس ، سنلقن اهالى غيشدوفان درسا فى الاسبوع القادم . فلا تفرحوا لان الاوان لم يحن بعد لذلك !

ولم نرفع راسينا عن الارض الا بعد ان خبت الاضواء وعاد الهدوء الى الساحة المقابلة لبركة المياه . وسأل حميد خوجا :

– وما الذى يحدث هناك عند مدخنى الافيون ؟

فهرعنا الى الكوخ . كان بابه مفتوحا على سعته ، والفانوس يكاد ضياؤه يخبو فى الداخل . قدح الافيون مهجور على الارض . المناديل العكشة والاقداح الفارغة مبعثرة فى كل مكان . لا احد فى الداخل . كان الجميع قد هربوا مرتعبين منذ بدء الالعاب النارية .

سرعان ما عاد ابراهيم خوجا الينا . كان من غير عمامة ، يحمل فى يده صايته المبللة تماما . سألناه عما حدث له فقال لنا :

– عندما خرج من اهالى غيشدوفان ووابقند ستة اشخاص ، ثلاثة عن كل منهما ، اقتربت من جماعة غيشدوفان ورحت ادعو لهم «ليحفظكم الله من النار والدخان والحرق ، وليجعل النصر من نصيبكم !» .

فقال لى احدهم : «ان انتصرنا فاننا سنجازيك خيرا على دعواتك لنا» .

فرفعت يدى بالدعاء ثانية لهذا الشاب . الا ان صاروخه اشتعل من مؤخرته ، فاصاب ساقه ، واشتعلت صايته ، فتهاوى على الارض عارقا فى الدخان . رفعوه عن الارض . ومعه ايضا بعض من اصابتهم النيران . وقذفوا جميعا الى بركة المياه مع

دخانهم . وفجاة رأيت صايتى تحترق ايضا ، فانتزعتها عن جسدى ورميت بها الى بركة المياه .

كان ذلك الشاب ، الذى اصابه الصاروخ بنيرانه ، قد فقد وعيه ، ونقل لاسعافه . اما انه سيبقى حيا ام لا فذلك لم يكن معلوما لاحد . وكان ذلك الشاب هو نفس ذلك الصبى الذى اسمه عبد الله ، والذى درس معى فى مدرسة البنات .

لقد وصفت فى قصتى «احمد – قاهر الجن» احدى الالعاب النارية التى مات فيها الكثير من الناس . وكانت تلك الحادثة قد رايتها بعد عدة سنوات من هذه الحادثة .

بتنا ليلتنا فى بيت الخزاف . ثم خرجنا فى اليوم التالى من جديد لاكمال نزهتنا .

كان الكثير من زينة الامس قد اختفى من الساحة المقابلة لبركة المياه . ولكن آثار الحرائق ايضا كانت قد ازيلت ، كل شىء كان يبدو على ما يرام . فجلسنا نشرب الشاى فى مشربه عند بركة المياه ...

بعد ان شربنا الشاى ذهبنا لرؤية سباق جري الحمير . وكان السباق قد اقيم من مكان النزهة حتى مدرسة جوبين .

خمسون حمارا شارك فى هذا السباق . جميعها بيضاء قوية وذات ذيول ضخمة اشبه بالمكانس ، بعفرة مسرحة ، وآذان طويلة منتصبة .

اطلق حماران او اكثر فى بدء السباق . وكان فارس مجرب يعتلى ظهر حصان ، اما الحمار فقد اعتلاه صبى فى الثانية عشرة او الرابعة عشرة من عمره .

اطلقوا فى البداية عددا من الحمير الصغار يعود لصبيان . ثم اطلقوا بعد ذلك حمير هواة السباق ، ولم يبدأ السباق الحقيقى الا بعد ان اجتمع افضل خبراء الحمير واشهر المتسابقين .

كان الناس يتجمعون حول اصحاب الحمير وهم يتراهنون عليها بعشرات التينغات ، حتى وصل بعض الرهانات حتى المائة تينغ . وهكذا كان الغرباء يكسبون او يخسرون من المراهنة على حمير تعود لغيرهم .

ظهر اخيرا فى الساحة المتسابق المتباهى ايستام خارخور . خرج ايستام الى الساحة بحمار ضخم كان يزنخر طيلة الوقت فكانه سكران . ورغم ان ايستام نفسه كان يمسك به من لجامه الا انه كان يثب على قائمتيه الخلفيتين منتصبا ، محاولا الاعتداء على غيره من الحمير . مدح ايستام دابته طويلا ، وتحدى من ينافسه واضعا مئتى تينغ مراهنا عليه ، فلم يستجب لدعوته احد ، كان الجميع يخشون خسران هذه الجولة امام مثل هذا الحمار .

فى نهاية الامر استجاب لتحديه شاب فى السابعة عشرة من عمره ، اسمه رستم آشكى (اى ذو الانياب) ، ثلاثة من اسنانه الامامية تبرز خارج فمه ، اما حماره فقد بدا يابسا اعجف الى جانب حمار ايستام . وضج الحاضرون بالضحك :

– يريد ان يهدر مئتى تينغ بالمجان !

واعلن ايستام :

– اننى اخجل من التسابق مع شاب غر !

ولكن المشاهدين هتفوا :

– ان لم تطلق حمارك مع حمار الشاب فاننا نعتبرك خاسرا !

فغضب ايستام :

– حسنا !ليضع نقوده ، انه خاسرها . لا ادرى من اين يأتى هذا الجرو بالنقود !

كان مع الشاب مئة تينغ لا غير . فقرر ان يبيع حماره بمئة تينغ على ان يشتريه بمئة وخمسين تينغ اذا ربح الرهان ، اما اذا خسره فان ملكيته تنتقل لمشتريه . وافق كهل كان يهوى سباق الحمير فى شبابه على اعطاء رستم فى نهاية الامر مبلغ مئة تينغ دينا ، وقال له :

– لا تخف يابنى ! حمارك سيسبق حمار ايستام . اما اذا كسبت فاعطنى خمسة تينغات فقط اضافة الى دينى . فان حمارك يستحق الثقة الكاملة .

وعدّ الكهل مبلغ الدين لرستم .

هاج ايستام عند سماعه كلمات الكهل وصاح به :

– لقد اشتريت هذا الحمار بمئتى تينغ العام الماضى . ولقد هيأته طيلة العام لهذا اليوم . فاذا سبقه هذا الحمار الاهيف فاننى لن اسمى نفسى خارخور * مطلقا بعد الآن ، بل سأثقب بطنه بهذا السكين بيدى !

ابتسم الكهل :

– لا تبتئس ! الرجال يُعرفون فى المعركة والحمير فى السباق . وما دام حمارك لم يبرر بعد ثقتك به فلا تثرثر ولا تتباهَ ! تستطيع ان تفعل ذلك ما استعطت عند فوزه .

وبدأ السباق .

انطلق حمار ايستام فى المقدمة .

اما رستم فلم يولى ثقته لاحد . وهكذا جلس بنفسه على حماره وانطلق فى اثر حمار خصمه ، وهو يمسك باللجام بقوة . وعندما قطع الحماران نصف المسافة ، ترك رستم اللجام وصاح :

– اما الآن فهيا ارنى كيف تسرع يا دابة !

فدفع حمار رستم قوائمه الاربع الى امام منطلقا وراء حمار ايستام ، حتى لحق به .

اختفى الحماران خلف الاشجار والتلال . الا ان خبر فوز حمار رستم سرعان ما وصل الى الاسماع . وفى الحال ظهر رستم .

لم يبد على وجه رستم الاعتداد بالنفس او الشماتة والفرح بالفوز . الا ان ايستام لم يستطع تحمل خبر هزيمته . فاستل سكينه من غمده وطعن بها بطن الحمار ، فتهاوى هذا الارض .

اما الكهل فقد قال له لائما :

– ليس المذنب حمارك ، بل انت ! لماذا اطعمته هكذا ؟ كان الاجدى ان تطعن نفسك بالسكين !

ثم تفرق الناس منزعجين من هذا المشهد القاسى .

تركنا سوق الحمير والخيل الى سوق الخراف . وكانت المباريات قائمة هنا ايضا . المراهنات تجرى كما كانت تجرى فى سوق الحمير .

---

* وتعنى : الخبير بانواع الحمير . **المترجم** .

اجروا سباقا للخراف . كان وزن بعضها يصل برأى المشاهدين حتى عشرين كيلو ، وكانت هذه الاليات تتلاطم اثناء المعركة بقوة بحيث انها كانت تتفتق فيضطر صاحب الخروف لذبحه آنذاك وبيع لحمه وشحمه بمبلغ بخس .

الخوجا الجبار

عاش بين ظهرانينا فى ساكتاره انسان ظريف مرح اسمه القارئ محمود ميراكونى . ارسله ابوه فى طفولته الى مدرسة قارئى القرآن . فحفظ القرآن عن ظهر قلب . ونال لقب «قارئ» ويعنى حافظ القرآن .

وعندما شب محمود ميراكونى اخذ يخدم فى دواوين الامارة منفذا مختلف المهام والاعمال التى يوكلها له حكام المناطق التابعة للامارة . ثم عاد الى قريته بعد ذلك ليمارس اعمال السحر والشعوذة وقراءة الادعية .

سألته فى احد الايام :

– لماذا تركت الخدمة فى دواوين الامارة يا قارئ محمود ؟ والخدمة تمنحك الثراء والمكانة المرموقة .

فاجاب :

– يتسلم موظف الحكومة السلطة فى منطقته فيبدأ فى اكراه الناس على الخضوع للاوامر ، فيصبح بنظر الجميع شريرا يجعل الناس يستفظعون حتى مجرد مرآه . يكره الناس بخاصة خدم القصر الذين تُفرض عليهم عن طريق هؤلاء اوامر الامير والوزراء والمتنفذين . ورغم ان الناس يخضعون مكرهين لاولئك ، ولكن الويل لهؤلاء الخدم اذا حدث وتغير شىء ووقعوا فى ايدى الناس ! لا رحمة لهم ولا رأفة بهم . لقد عرفت هذا الامر جيدا بعد خدمتى الطويلة التى استمرت عشر سنوات فى قصور الحكام . . .

كان الشباب فى ساكتاره يقيمون امسيات سمر ، بخاصة فى الشتاء ، وفى احد الايام دعى القارئ محمود الى واحدة من هذه الامسيات .

كان الناس يحبون القارئ محمود لا لظرفه ومرحه حسب ، بل ولافكاره الجريئة ، مع انهم لم يكونوا يبوحون بتاييدهم لها . كما دعى ايضا الى هذه الامسية سعيد اكبر ، تقديرا له لاعتباره طالبا فى احدى مدارس بخارى ، رغم ان الاثنين معا لم يكونا من افراد هذه الشلة .

جاء القارئ محمود ، شانه شان جميع من دعى ، الى بيت من كان له دور اقامة المادبة المعتادة ، ولكن سعيد اكبر تاخر عليهم قليلا .

اعتبر بعض الضيوف ، الذين كانوا يعرفون بعضهم جيدا ، ذلك التاخر نوعا من الترفع . فالشخصيات الهامة تحضر عادة مثل هذه المناسبات بشىء من التاخر .

وقال الضيوف لصاحب البيت :

– هل نويت على اهلاكنا بالجوع ؟ اذا كان عندك ما يمكن تقديمه فهيا به الينا ، واذا لم يكن فقلها صريحة لنذهب الى بيوتنا .

اجاب صاحب البيت :

– كل شىء جاهز . ولكننى انتظر سعيد اكبر . لقد دعوناه فلا ينبغى البدء من دونه .

انتظروا فترة اخرى .

الا انهم بدأوا العشاء بعد ان طال انتظارهم له .

ولكنه لم يحضر بعد ذلك ايضا .

وفى اليوم التالى التقى القارئ محمود بسعيد اكبر فقال له دون ان يخجل من حضور كثير من اهالى ساكتاره :

– لقد انتظرك الضيوف امس اكثر من ساعتين ، ذلك لا يصح ابدا !

فاجاب سعيد اكبر :

– لقد ذهبت الى هناك ولكننى عدت ادراجى .

فدهش القارئ محمود :

– ولماذا ؟

– سمعت باذنى هاتين كيف ذكر صاحب البيت هذا اسمى مجردا وكيف تحدث عنى قائلا «هذا الانسان لم يحضر بعد !» فاى

جاهل هو بحيث يسمح لنفسه التحدث عن تلميذ مدرسة من بخارى بهذا الشكل ! هذا احتقار بيّن ! ولقد قررت : ليكن ما يكون لمادبته ولكنى لن احضرها مطلقا ، ولن اجالس مثل هذا المجتمع .

ضحك القارئ محمود فى وجه سعيد اكبر :

– كل شخص وكل شىء له اسمه وتسميته الخاصة ، فهل خجلت من الاسم الذى اعطاه لك والدك ؟ يبدو ان علىّ ابتكار لقب خاص لك لتكريمك به ، لا تستحى منه كما نستطيع نحن استعماله عند التحدث عنك .

ثم انحنى القارئ محمود امام سعيد اكبر كما لو انه يقدم اليه صاية جديدة ، وقال له وهو ينظر اليه :

– اعتقد ان افضل اسم يناسبك هو «الخوجا الجبار» فالجبار هو احد اسماء الله الحسنى ، فاذا اضفنا له «الخوجا» كان اسما لا يضاهى . اعتقد انه يناسبك تماما ولا يقل شأنا من مقامك الرفيع .

ضحك الجميع حولهما .

واحمر وجه سعيد اكبر ، فقد احسّ بانه اوقع نفسه فى وضع مخز ، ولم تسعفه الكلمات ليرد بشىء . فلم يفعل الا ان استدار بحدة ومضى الى البيت بصمت .

ولم يخرج من البيت بعد هذه الحادثة عدة ايام .

الا ان احدا لم ينس هذه الحادثة فظل لقب «الخوجا الجبار» يطارد سعيد اكبر دائما .

ابى

رغم ان والدى كان سريع الانفعال والغضب الا انه نادرا ما كان يشتمنا ، واكثر ندرة ان يعاقبنا . اذكر انه عاقبنى مرتين وحسب .

المرة الاولى كانت هكذا . .

اشترى والدى فى احد الايام حمارا عنودا . ما ان يلمس عفرته احد حتى يبدأ بالنهيق او النطيط ولا يرتاح الا باسقاط عدته الى الارض .

قاد والدى الحمار فى احد ايام الصيف ليرعى فى الحقل . وفى منتصف النهار ارسلنى والدى لارى امر تلك الدابة ، ولكنه حذرنى قائلا :

– احذر ان تركبه وتمسكه من عفرته والا فانه سيسقطك ارضا .

ذهبت الى الحقل فاطلقت الحمار وقدته الى البيت . ولكننى فكرت فى الطريق ان من الحمق ترك حمار يجرى دون حمل وانا اتبعه . واذن ، اذا جلست عليه من مكان عال دون ان امس عفرته اللعينة فاننى استطيع الوصول الى البيت على ظهره بشكل ممتاز .

قدت الحمار الى القناة ، وبحذر شديد جلست على ظهره دون ان امس عفرته .

وقف الحمار هادئا .

ولكننا ما ان بدانا طريقنا واخذ الحمار يخرج من القناة ، حتى بدات انزلق على ظهره اذ لم يكن له سرج ، وهكذا دون ان اشعر تمسكت بكلتا يدىّ برقبته لاحفظ توازنى . بدا الحمار ينهق . وكلما كنت ازداد تمسكا به كلما كان يزداد نهيقا وقفزا . واخيرا لم استطع ان ابقى على ظهره بعد فرميت نفسى الى الارض .

شعرت بالم حارق فى ذراعى اليمنى ، واحسست بانها قد انسلخت او انكسرت عند الكوع .

اما الحمار فقد ظل ينهق وينط هاربا الى البيت .

كان الخوف من والدى يطغى على كل شعور بالالم فى ذراعى ، فقد عصيت اوامره ، فاصبحت مستحقا اشد انواع العقاب .

نهضت على ساقىّ بصعوبة بالغة ، ولكن الالم الشديد فى كوعى اجبرنى على الجلوس ثانية . وانا اشعر بمخالب حديدية تمزق ذراعى وكتفى وقلبى .

ظهر والدى فى هذا الوقت على الطريق . فضغطت على اسنانى متهيئا لتلقى اقسى العقاب ، وقررت ان اظل متماسكا امامه .

نظر والدى نحو ذراعى وقال :

– لم تسمع كلامى فانظر ماذا فعلت بنفسك ، ستفقد ذراعك ، وهى الذارع اليمنى . فكيف ستكتب بعد الآن ؟

كان سؤال والدى هذا هو اقسى عقاب يمكن ان ينزل علىّ .

شد والدى ذراعى بمنديله . ثم اخذ من احدهم حصانه ووضعنى عليه بحرص ، ثم اخذنى الى مجبر العظام .

قال مجبر العظام بأن كتفى قد خلع وانه يجب تعديل وضع ذراعى . فسحب ذراعى بقوة سمعت معها طقطقة عظامى ، ولكننى كنت اشعر بالخوف من والدى والخجل من مجبر العظام بحيث لم اجرأ على اطلاق صوت . واذ راى والدى قوة احتمالى قال :

– عفارم يا بنى !

وعندما برأت ذراعى ونسيت تماما ذلك اليوم التعيس استدعانى والدى اليه وامسك بعصا فى يده ، فضربنى ضربة واحدة على باطن قدمىّ وقال بحزم :

– عليك ان تسمع كلامى بعد الآن جيدا ! فاذا لم تفعل ذلك جلدتك . مفهوم ؟

– مفهوم .

فى المرة الثانية عاقبنى والدى بحزم اشد .

كان ثمة سوق صغير يبعد عن قريتنا بفرستين . وفى احد الايام ارسلنى والدى لجلب الملح من هناك . وفى طريق عودتى التقيت باحد معارفنا فطلب منى ان ابلغ والدى شيئا ما .

ولكننى نسيت عند وصولى الى البيت ما قاله لى ، بل نسيت التقائى به على العموم .

اخذ والدى يسالنى عمن التقيت بهم فى السوق من معارفنا ، فتذكرت ذلك الشخص . فاستفسر والدى منى :

– وما الذى قاله لك ؟

ولكننى كنت قد نسيت تماما ما قاله لى . فبدات اؤلف من مخيلتى ، ويبدو اننى قد شطحت بذلك قليلا اذ استوقفنى ابى متسائلا :

– ايمكن ان تكون قد نسيت ما قاله لك ، ام لعلك تتوهم ما تقول ؟

فبقيت عل كذبى :

– كلا ، كلا ، لقد قال بنفسه هذا !

بعد بضعة ايام جاءنا هذا الشخص الى البيت .

استقبل والدى الضيف ، ثم استدعانى الى الغرفة فاجلسنى الى جانبه وسأل الضيف :

– قل لى رجاء ، ما الذى اردت ان تبلغنى معه ؟ اعاد الضيف بالتفصيل ما قاله لى . وكان ذلك بالطبع يخالف تماما ما نسجته من كلام لوالدى . فتفصد العرق من جبينى خجلا . وهنا شد والدى اذنى امام الضيف :

– كن منتبها على الدوام ، وتذكر كل ما تراه وتسمعه ! فاذا كلفك احدهم بنقل خبر ما عليك ان تفهمه وتتذكره . فاذا لم تفهم المراد اسأل عنه ثانية ، ولكن لا تكذب ! لا تكذب ابدا اذا لم تكن ترغب فى جلب العار والخجل لنفسك . الآن انت مذنب مرتين . مرة لانك نسيت ما اوصيت به ، ومرة اخرى لانك لم تعترف بانك نسيت بل وكذبت علىّ ! ان كنت قد اعترفت صراحة بنسيانك ما كنت قد اهنتك هكذا امام هذا الشخص . تذكر هذا جيدا ، واذهب الآن لتلعب .

بقيت اتذكر هذا جيدا . ولقد اثرت هذه الحادثة على مجرى حياتى كلها فقد تعلمت كيف يجب الانتباه واتذكر ما اسمع وما ارى من حوادث واشياء واناس . اننى انسى الشعر بسرعة ، وانسى حتى اشعارى نفسها . ولكننى لا انسى ابدا ما اسمع من كلمات ، وما ارى من اشياء وحوادث .

ضعفت ذاكرتى فى السنوات العشر – الاثنتى عشرة الاخيرة . ولكننى اذكر تماما ما حدث معى من قبل . وهذا مرتبط بالتاكيد بتاثير والدى علىّ وتطويره ذاكرتى .

اول سفرة الى بخارى

قرر والدى احد الايام ان يصطحبنى معه الى بخارى ، لارى المدينة وامكث مع اخى بضعة ايام اتعرف خلالها عن قرب بحياة المدرسة .

وفى احد ايام الخريف اعتلى والدى ظهر الحمار واجلسنى وراءه . ثم توجهنا فى طريقنا .

وعندما حاذينا قرية يالانغا الواقعة بين بخارى ووابقند توجه الحمار الى حافة الطريق وتوقف تحت شجرة كبيرة . اجبرت ضربات والدى بعصاه الحمار على مواصلة السير . وقال ابى :

– عندما سافرت العام الماضى الى بخارى من اجل الحصول على ختم المفتى توقفت عند هذه الشجرة للراحة . مر عام تقريبا والحمار لم ينس هذا .

صمت والدى برهة ثم قال فجأة :

– الحمار اقوى ذاكرة من الانسان . الانسان ينسى بسرعة . فاحفظ ما تراه ولا تنسه !

وصلنا بخارى قبيل صلاة العشاء فدخلنا المدينة من بوابة سمرقند . كانت بوابات المدينة تغلق فى بخارى بعد صلاة العشاء ، بعد ساعة ونصف من غروب الشمس ، ثم ترسل مفاتيح البوابات الاثنتى عشرة بعد ذلك الى قائد حرس المدينة .

قال والدى :

– لو تأخرنا خمس دقائق اخرى لاضطررنا مبيت ليلتنا فى الحقل ، خارج سور المدينة .

كان الظلام قد هبط على المدينة . وليس غير فانوس واحد كان ضوؤه ينوس شاحبا قرب حراس البوابات . وغير ذلك لم يكن اى ضوء يلوح حولنا . واجهات بيوت بخارى كما هو معروف عبارة عن جدران صماء تنتصب فى الشوارع ، اما بوابها ونوافذها فقد كانت تطل من الداخل على الباحات . ولهذا لم يكن اى نور يسقط من البيوت الى الشوارع . فكانت البيوت ذات الطابقين ، وثلاثة طوابق ، تبدو بجدرانها الصماء فى الظلام اشبه بالقبور .

مررنا فى الشوارع الظلماء لهذه المدينة الكالحة حتى وصلنا مدرسة مير عرب * حيث كان اخى الاكبر يعيش فيها ويدرس ، مع سعيد اكبر .

لاح لنا نور واهن يرشح من الجانب الغربى للمدرسة ، وسمعنا صوت ضرب على الطبول وعزف على الناى . فقال والدى بان

---

* من اهم مدارس بخارى . بنيت فى النصف الاول من القرن ١٦ . الناشر .

الامير يقضى ليلته فى مكان ما بين مدرسة مير عرب وجامع المدينة الكبير . كان الامير عبد الاحد يحكم بخارى فى ذلك الوقت السنة الثالثة . وعندما كان الامير يترك قصره فى الآرك وينزل ضيفا على احد بيوت المدينة كانوا يقيمون حفلا ومأدبة جوار ذلك البيت .

وهكذا اصبحت شاهد هذه الحفلات فى ليلتى الاولى فى بخارى .

كان حشد من الناس يتجمع فى ساحة صغيرة ، وفى وسطها تعالى لهب من النار جلس حوله صف من عازفى الطبول ، والى جانبهم ما يقارب العشرين غلاما جميلا ، بضفائر مستعارة ، وكانوا يرقصون ويغنون . وكانت شعلات النار موزعة فى الساحة ، وهى عبارة عن فتائل مشتعلة مغمسة النهايات فى الزيت . وكان الحراس يطردون الناس بالعصى كى لا يزدحموا حول المحتفلين .

لم ترق لى هذه الحفلة ، وقد ذكرتنى لسبب ما بحفلة درويش آباد التى تركت عندى انطباعا سيئا .

انزل والدى الكيس عن الحمار ووضعه على الارض الى جانبى ، ثم قاد الحمار الى الخان ، وعاد .

دخلنا المدرسة ، وكانت مدرسة مير عرب تعتبر واحدة من اقدم المدارس ، وافضلها على الاطلاق . انعطفنا الى اليمين بعد مرورنا بالبوابة الرئيسة ، حيث كان ثمة سلم حجرى ، معتم ، ضيق ، ملتو .

صعد والدى عليه وهو يناديني بين حين وآخر وانا اتبع صوته واتلمس الدرجات بيدى بحذر .

انتهى السلم ولكن الظلام لم يتبدد ، وكان السلم قد انتهى بفسحة مغلقة من جميع الجهات .

طرق والدى احد الابواب باظفره ، على عادة اهل المدرسة ، ففتح له الباب . دخلنا حجرة لها قبة عالية جدا ، وكان لها منفذ واحد هو الباب الذى دخلنا منه . وكانت شمعة مشتعلة تنير على منضدة واطئة جانبا من الحجرة . اما باقى فضاء الغرفة فقد كان يغرق فى شبه ظلام مخيف . وكانت القبة تضيع فى عتمة دامسة ، حيث يخال للمرء ان ثمة قاعا اسود بلا قرار ينداح فوقه . وبدا لى ان هذه الغرفة جزء من عالم توتا-باشا السحرى الغامض ، الذى دخلته بنفسى فجأة فاصبح بالامكان ان المس اشياءه بيدى .

عندما دخلنا الحجرة كان اخى يهيئ العشاء . اما سعيد اكبر الذى كانوا يطلقون عليه فى قريتنا كنية «الخوجا الجبار» فقد كان يجلس قرب المجمرة .

القينا عليهما السلام وتبادلنا الاسئلة المعتادة ، ثم اجلسانا قرب المنضدة المنصوبة فوق المجمرة ، وكانوا يطلقون على تلك المنضدة تسمية «الصندل» ، حيث تُحفر تحتها فى ارضية الغرفة ، حجرية كانت ام ترابية ، حفرة تملأ بالجمر . اما المنضدة فهى واسعة واطئة ، تُفرش السجاجيد والابسطة حولها ، ثم توضع بطانية عليها . فكان لا يمكن الاستغناء عن الصندل فى غرفنا فى الليالى الشتائية الباردة حيث لم يكن فيها من قبل اى نوع آخر من التدفئة . وكانوا يضعون على المنضدة بطانية كبيرة وسميكة فيجلس الناس حولها ويمدون اقدامهم تحت البطانية طلبا للدفء ، وفى الليل كانوا يغطون انفسهم بهذه البطانية وينامون بالقرب من الصندل فينعمون بدفء لذيذ من الجمر المتوقد حتى الصباح .

وهكذا جلسنا نحن حول هذا الصندل .

جلب لنا اخى الرز باللحمة ، وكان رزا دسما مطبوخا بلحم الدجاج . وقد سأل والدى اثناء الاكل :

— من اين حصلتم على الدجاج ؟

صمت اخى . الا ان «الخوجا الجبار» تحدث بالتفصيل عن كل شىء .

اعتاد الامير عبد الاحد طيلة حكمه خلال هذه السنوات الثلاث على التوقف هنا وهناك فى المدينة بعد خروجه مساء من قصره فى الآرك . فكانوا يقيمون الفرح فى الحى الذى ينزل فيه وكان على اقرب مدرسة ان تهيئ للامير عشاءه . كان احد خدم مطبخ الامير ، تنفيذا لامره ، يجىء الى المدرسة معلنا انه يتعين على جميع المقيمين فيها الذين يحضرون عشاءهم ان يحملوا هذا العشاء الى الامير . فكان تلاميذ المدرسة يصبون الطعام فى القدور ، ليحملها الخدم اليه .

وفى البيت الذى نزل فيه الامير يختبر رئيس الطباخين المآكل فيقبل بعضها بينما يرفض غير اللذيذة منها . ثم يضع المآكل المختارة على الصوانى الاميرية . ويعيد القدور بعد ذلك لاصحابها بعد ان يملأها بالمآكل الاميرية ، مانحا اياهم عشرة تينغات .

واذ عرف تلاميذ المدارس بهذه العادة راحوا يحضرون الطعام بكل اجتهاد عندما كان الامير ينزل فى احد البيوت آملين بارضائه .

وفى هذه الليلة توقف الامير بالقرب من مدرسة مير عرب فجرى طهى الرز باللحم فى جميع حجرات المدرسة ، رغم ان بعض التلاميذ لم يكن فى مقدورهم تناول الرز باللحمة مرة واحدة طيلة شتاء كامل . ولكن هؤلاء الفقراء كانوا يستدينون المال ممن يملكه او يشترون اللحم بالدين من القصابين ، وكذلك الرز من البقالين ، كى لا يتخلفوا عن غيرهم . وأملا فى الحصول على ثناء طباخ الامير .

واضاف سعيد اكبر بفخر واعتزاز :

– لقد اختير طعامنا من بين مئة وثلاثة واربعين قدرا ليقدم الى الامير ! اما هذا الرز بلحم الدجاج فقد طهى فى مطبخ الامير .

كان والدى فى بدء الحديث يأكل ويستمع لسعيد اكبر بهدوء ، ولكنه ما ان فهم حقيقة الطبق الذى يأكل منه حتى ظهرت علائم الغضب على وجهه .

تصورت انه سيمسك بالعصا التى يستخدمها لسوق الحمار ، ويضرب بها اخى . ولكنه صمت ، وتنحى عن الطبق جانبا .

رفعوا سفرة الطعام منذ فترة طويلة ولكنه لم يخلد الى النوم . ولم يتحدث بكلمة واحدة ، لا مع اخى ولا مع سعيد اكبر ، بل لم ينظر نحوهما . ظل يجلس جامدا حسب زمنا طويلا ، مغلقا عينيه ، مطاطئا راسه ، متنهدا بعمق بين آونة واخرى ، فيرفع راسه لحظة ، ثم يسقطه على صدره من جديد .

لم اعرف فيما اذا كان قد نام ليلته تلك ام لا . فلقد غفوت بسرعة وغرقت فى نومى . ولم اصح الا فى الفجر فرايت اخى يشعل الشمعة ، ووالدى يجلس مرتديا ملابسه ، مستعدا للسفر . وعندما اشرقت الشمس نهض والدى من مكانه قائلا لى :

– هيا يا بنى ، سارجعك الى القرية . لن تتعلم من لاسحى صحون الامير هؤلاء التقاليد النبيلة لمدارسنا العريقة .

فتوسلت به والدموع تملأ عينىّ :

– دعنى هنا لارى المدينة ، وارى عمى ملا ديكان .

لم يوافق والدى على رجائى الا على مضض . وقد قال لى متفكرا صارما :

– احذر ان تتعلم منهم هذا ! واذا نسيت ما اقوله لك لن انظر فى وجهك طيلة العمر .

اراد اخى ان يحمل لوالدى كيسه الا ان والدى اخذه منه وخرج من الحجرة .

خرجنا لنودعه الى الباحة حيث كان حمارنا يقف . ولكن والدى لم يقل هناك ايضا شيئا ما . دفع للحراس ما عليه بصمت ، ومضى عنا .

كان حال الحجرة التى يعيش فيها اخى فى النهار اكثر فظاعة منه فى الليل . كانوا فى المدرسة يسمونها حجرة «الاشباح» . فعندما كان المرء يدخلها فى النهار كانت تبدو له كمغارة تغرق فى شبه عتمة ، وكما لو ان الاشباح تهوم فيها وتجمد فى الزوايا . لم تكن فيها نافذة بل شبكة من جص تطل على قبة جامع مير عرب الضخمة . واذا نظرت الى هناك فالخوف يتزايد كما لو انك تنظر نحو عالم ضبابى مجهول لا يُرى ، او كما لو انك تنظر نحو فضاء الكون الفسيح .

لم يكن هناك غير شق صغير فى قعر القبة يهبط منه عند منتصف النهار شعاع من نور الشمس فى الايام الصاحية فيسقط على ارضية الغرفة كطبق متألق ، فتبدو تلك الدائرة فى ظلام الحجرة الابدى كعين حيوان خرافى ينتظر ضحاياه .

مرت الايام فى هذه الحجرة رتيبة ، صباحا ومساء اتناول مع الشاى الخبز اليابس الذى جلبته معى من القرية . وفى الواحدة ظهرا كان اخى يطبخ لنا شيئا ما ساخنا ، وكان ذلك ايضا مكرورا مملا ، فاما الرز واما العصيدة او الماش وهو فاصوليا محلية ، كانت تطبخ احيانا مع الرز ، او عصيدة البصل اللذيذة جدا التى تؤكل مع الخبز اليابس .

كان اخى يقوم بكل اعباء الحجرة ، من الطبخ والتنظيف الى الغسل . كنت اساعده قدر استطاعتى . اما سعيد اكبر «الخوجا الجبار» فقد كان يتصرف كما لو انه ضيف عندنا . فيجلس الايام الطوال يدفئ قدميه قرب الصندل ، يحضر دروسه او يكتب . وبين آن وآخر يسأل فارغ الصبر :

– هل سينضج الطبخ قريبا ؟

او يقول :

– اجعل الشاى مركزا !

كان اخى يرد عليه بمودة . اما انا فقد كنت اغضب ، واعتبر ليونة اخى وسماحته معه غير مبررتين .

اطلعت على النظام السائد فى حياة تلاميذ مدرسة مير عرب .

كانت بناية مدرسة مير عرب ، التى انشئت منذ عدة قرون مضت ، مكونة فى الاساس من طابقين . كان للحجرات كلها ، سواء كانت فى الطابق الاول ام الثانى ، مداخل خاصة بها . اما ابراج الزوايا فقد كانت لها حجرات فى اربعة طوابق ، وثلاثة طوابق فى الزوايا الداخلية . كانت هذه الحجرات تسمى بالحجرات العالية عند ساكنى حجرات الطابق الثانى . وكان لحجرات الطابق الاول جميعا باب واحد . اما حجرات الطابقين الثانى والرابع فقد كانت ببابين ، احدهما للدخول ، والثانى صغير يقوم مقام النافذة ، ويطل على الشارع . فى حجرتنا كانت شبكة من الجص تشغل مكان هذا الباب الصغير ، تطل على داخل الجامع تحت القبة تقريبا .

وكانت اروقة حجرية عالية تمتد الى الشمال والى الجنوب ، ولكن البنائين اقاموا الحجرات هنا ايضا واطئة صغيرة بحيث لم يكن بالامكان الوقوف فيها بقامة معتدلة ، فكانت تصلح للجلوس وحسب وللنوم . واذ قدر البناؤون عدم توافق شكل هذه الابواب الصغيرة مع ضخامة القبة فقد اقاموا بدلها ابوابا واسعة طويلة تشبه البوابات .

كان اغلب التلاميذ فقراء للغاية ، يقضون الشتاء بصايات رقيقة ، منتعلين مداساتهم باقدام عارية . وكان التلاميذ الصغار يجلسون فى الحوش الحجرى المكشوف يهيئون دروسهم مهما كان الجو ، مطيرا ام قائظا . اما التلاميذ الكبار فكانوا يحضرون دروسهم جالسين فى الاروقة الداخلية العالية .

كان الكبار الذين حصلوا هنا على لقب «مدرس» ، واشتروا حجرات لهم فى المدرسة ، يجلسون بغطرسة وكبرياء . وعندما كان احدهم يغادر المدرسة لا يبقى منه اثر طيب رغم انهم كانوا يعاملونه بالطيب والاحترام اثناء وجوده . . .

لم نسكن طويلا فى غرفة «الاشباح» . كان صاحب الغرفة مرابيا ، وكان يطلب من اخى ان يقيم له المآدب .

وفى بداية العام الدراسى اقام اخى وسعيد اكبر له مأدبتين ، اذ كانا ما يزالان يحتفظان عندهما بشىء من الرز والسمن اللذين جلباهما من القرية . ولكن خزينهما منهما كان قد نفد مع وصولى ، وكانا قد طبخا مما تبقى لديهما «طبق الامير» ، فلم تعد بامكانهما دعوة صاحب الغرفة لتناول الطعام معهما . وفى احد الايام الباردة المثلجة طلب صاحب الغرفة منهما ان يخليا حجرته .

انفقا ثلاثة ايام يبحثان عن غرفة حتى عثرا لهما على واحدة فى منطقة سوق الخوجا ، تقع فى الطابق الاعلى ، فوق دكان بقال ، اعطاها لهما شفقة بهما . كانت الغرفة ، او «البالا خانة» كما كنا نسميها ، من السوء بدرجة بحيث لم يسكنها احد منذ عام كامل .

بدأنا الانتقال من حجرتنا الى تلك الغرفة .

ورغم ان المسافة بين مدرسة مير عرب وغرفتنا كانت تقارب الفرست فاننا استطعنا نقل حاجياتنا كلها بسهولة كبيرة ، الاوانى والكتب والبسط كلها مرة واحدة . وحمل اخى على ظهره ابريق الزيت واحتياطينا الصغير من الحطب . ولم يبق عندنا غير نصف كيس من الفحم ولكننا لم نكن نملك كيسا ولم يكن عندنا ما نحمله به .

وبعد تفكير طويل قرر اخى ان ينقله بالابريق ، وقد بدا لى ذلك القرار سديدا جدا . فانهما افرغا الابريق من مائه ووضعا الفحم فيه فى الحال .

وبصعوبة كبيرة حملنا الابريق الذى اصبح ثقيلا الى اسفل . وحملت فى يدىّ السماوار . اما سعيد اكبر فقد حمل بيده كتابا وسار به مختالا .

لم نستطع السير باحمالنا فى السوق المسقوف ، فاتخذنا الازقة الضيقة مسلكا الى غرفتنا الجديدة . هبط الثلج ، وراحت اقدامنا تنزلق على طين الطريق .

وعندما وصلنا سوق السراجين زلت قدم اخى وسقط على الارض ، فوقع الابريق من يده وتهشم ، وتناثر الفحم حوله . نظف اخى مكانا قرب الحائط من الثلج والاقذار ، وجمعنا عليه الفحم

المبعثر . وكان «الخوجا الجبار» سعيد اكبر قد وقف عند الحائط يرقب ما نفعله وهو ينفض عن ملابسه باشمئزاز نثار الفحم .

انفجر اخى فجاة بعد ان نظر الى سعيد اكبر برهة ، ومن غير ان يتفوه بكلمة واحدة قفز عليه وطرحه ارضا ثم برك على صدره وراح يكيل له الضربات ، قائلا :

– خذ ، هذا نصيب من يتنصّل عن واجباته ! اجعل نفسك شخصية هامة مع غيرى !..

وكانت هذه هى المرة الثانية التى اتمتع فيها بمنظر سعيد اكبر وهو يهزم هكذا .

وما كاد اخى يترك «الخوجا الجبار» حتى قفز سعيد اكبر مسرعا ، وهرب دون ان ينفض صايته من الثلج والطين العالقين بها . واذا كنت قد دهشت فى السابق من ليونة اخى وصبره فقد دهشت الآن من سرعة غضبه ومن فعلته هذه التى جاءت فى وقتها . وليس الا آنذاك فهمت المثل العربى القائل «نجّنا يا رب من غضبة الحليم» .

وهنا حكيت لاول مرة لاخى كيف اطلقت المجنون من قيده ، وكيف انتقم لى من «الخوجا الجبار» .

ضحك اخى بعد ان سمع قصتى مع سعيد اكبر ، وقال :

– لقد عملت له ما استحق . ولكن لا تقص هذا لابينا فانه لن يرضى لك هذه الفعلة .

– كلا ، كلا ، انها المرة الاولى التى اتحدث بها عن هذا الامر . وغير هذه المرة لن اتحدث عن ذلك مطلقا . لا ، ابدا ..

كان العيش فى غرفتنا الجديدة صعبا للغاية . جدرانها الرقيقة تطل على الشارع مباشرة ، فوق دكان البقال . والضوء لا يدخلها الا عبر الباب . اما الآن ، فى الشتاء ، فلا يدخلها الضوء منه قدر ما يدخلها البرد . تدفئة الغرفة تكاد تكون مستحيلة ، وفى الوقت الذى كنا نجلس فيه الى الصندل ندفئ اقدامنا كانت اجسامنا كلها ترتعش بردا . خلال يومين كسر عندنا ابريقان لا لشىء الا لأن الماء تجمد فيهما . فكان علينا ان ننفق كل الماء الذى جلبناه من بركة

المياه ، اما الباقى منه فكان علينا ان نرميه فى الشارع . لم يكن فى هذه الغرفة مكان للاغتسال ، فكنا نخرج الى الشارع بين حين وآخر بصحبة الابريق .

بقى عندنا القليل من الماش ، ولكن احتياطى الزيت كان قد نفد . فاضطررنا لشرائه من البقال صاحب غرفتنا بكوبيكين . لم يكفنا غير يومين او ثلاثة ايام . كان البقال يقيس كمية الزيت بقرعة مجوفة صغيرة . ورغم انه اعطانا غرفته تلك باعتباره محسنا لوجه الله ، فانه كان يكيل لنا الزيت ناقصا دائما . واذا حدث ان امتلأت القرعة به فان يده كانت ترتعش بها بحيث يتساقط بعض الزيت منها عائدا الى قدحه .

وفى احد الايام الباردة جدا ذهبنا للمبيت فى حجرة العم ملا ديكان .

وفى الصباح قال لنا البقال :

– لا يجب ترك الغرفة خالية فى الليل فان اللصوص سيدخلونها ويحفرون حفرة فى ارضيتها لينفذوا منها الى دكانى !

فاصبح واضحا لنا مبعث احسانه علينا .

لم استطع ان اشاهد معالم بخارى فى سفرتى هذه ، اذ لم اكن استطيع الخروج وحيدا الى الشارع ما دمت لا اعرف المدينة ، كما ان اخى كان مشغولا بدروسه . فلم احظ بغير رؤية جامع بالا حوض وساحة الركستان .

كنا نذهب الى سوق الكتب مع اخى فى اوقات فراغه . ولكننى لم ار فى الطريق غير شجارات الحوذيين ، الذين كانوا يتناقشون فى الازقة الضيقة عمن يجب عليه ان يخلى الدرب لصاحبه .

افضل متعة عندى كانت زيارة العم ملا ديكان وعائلته . وكان العم ديكان قد تزوج فى بخارى وسكن بيت زوجته . الا انه لم تكن لهذا البيت غرفة استقبال ، فوجد العم لنفسه حجرة فى جامع فتح الله كوشبيك ، غير بعيد عنا ، وهناك كان يعطى فيها دروسا لبعض التلاميذ .

لم تكن قد مضت على بدء العم ديكان بالقاء المحاضرات فترة طويلة ، فكان عنده من التلاميذ عدد قليل . وكان يدرس نحو اللغة العربية وعلم المنطق . كان تلاميذه يتناقشون بصوت عال

فيما بينهم اثناء دروسه . فلم اكن افهم لماذا كانوا يحضرون دروس العم ديكان : للدراسة ام للمناقشة ؟

خيل لى ان ملا قريتنا كان يعطى دروسه افضل مما كان عمى ديكان يفعل ذلك . كان تلاميذ ملا القرية يجلسون هادئين ، والملا يقرا عليهم درسه بصوت واطئ . ورغم ان اغلبيتنا آنذاك لم يكونوا يفهمون الكثير ، او لا يفهمون شيئا على الاطلاق ، الا انه كانت عندنا الامكانية لنفهم شيئا ما على الاقل عندما كنا نريد . اما هنا فالتلاميذ يتصايحون فيما بينهم ، وعمى يصرخ ايضا ليسمعهم صوته ، وبدا لى انه لا يمكن دراسة شىء هنا فى مثل هذا الصخب .

* * *

بعد هرب «الخوجا الجبار» سعيد اكبر منا تقدم للعمل عند خطيب بخارى عارف خان .

وبعد ان طوى النسيان حادثة شجار اخى معه جاءنا يحدثنا عن عمله مع الخطيب .

كان سعيد اكبر يرافق الخطيب اينما ذهب ، الى الحفلات والدعوات والمآتم . فيسير الى جانب ركاب حصانه ، جنبا الى جنب مع حوذيه .

وعندما كانوا يصلون جميعا المكان المقصود كان الحوذى ياخذ لجام الحصان من يد الخطيب ، فيعتلى الدابة ويبقى فى مكانه منتظرا عودة سيده . اما سعيد اكبر فقد كان يرافق الخطيب حتى البيت ، وعندما كان هذا يخلع حذاءه كان على «الخوجا الجبار» ان ينظفه من التراب والطين ويحتفظ به فى عبّه .

وعندما كان الخطيب يرجع كان «الخوجا الجبار» يلبسه حذاءه ، ويأخذ من يده الهدايا التى تسلمها الخطيب من صاحب الدار ، ثم يمشى مع الحوذى من جديد قرب ركاب الحصان عائدين الى البيت .

كان عمله فى رايه صعبا مدوخا ولكن العيش معه طيب رخى . كان ينام فى غرفة دافئة مضيئة فى بيت الخطيب . ويشرب الشاى كل صباح ممزوجا بالحليب ، ويأكل الرز باللحمة كل يوم . سأله اخى :

– لقد كنت تعطى نفسك دائما قيمة كبيرة ، وتعتبر تهينة فراشك بيدك عملا مهينا بالنسبة لك ، فكيف تحولت الى خرقة هكذا ؟

– الشخص الذى وافقت على العمل فى خدمته من نفس محتدى . ولكن معرفته اكثر من معرفتى ، ولهذا لا اخجل من خدمته . اما اولئك الناس الذين تعتقد باننى اتعالى امامهم فهم اقل محتدا منى . اما اذا كان البعض من محتد يساوى محتدى فانهم اقل معرفة منى وهكذا كانت عندى كل الاسباب التى تمنحنى حق ان انظر نحوهم من فوق .

لم نعد نستطيع البقاء اكثر فى الغرفة الواقعة فوق دكان البقال ، ولم نعد نطيق متى ينتهى العام الدراسى ، فسافرنا الى قريتنا معا دون ان تأذن تلك النهاية .

اوصلنى اخى الى البيت ، ومكث فيه بضعة ايام للراحة . ثم توجه من جديد الى بخارى عائدا اليها .

حدثت والدى عما رايته فى بخارى ، وذكرت له اسباب غطرسة سعيد اكبر . فضحك والدى وقال متفكرا :

– «ان كنت رجلا فلا تفاخر بمآثر ابيك» . ليس الجميع للاسف يفهمون وينفذون هذه الحكمة . التفاخر بالمحتد مهنة الخائبين . اعرف اناسا جعلهم تغنيهم بمحتدهم اكثر حمقا من سعيد اكبر .

وقص لى والدى ما حدث له يوما فى احد الاعياد .

كبرياء الخوجات

سافر والدى فى احد الايام الى سمرقند ، يرافقه فى سفرته هذه واحد من ابناء قريتنا ، من عشيرة خوجات الميراكونيين .

قضيا ليلتهما فى سمرقند فى بيت احد الميراكونيين . وكان احد خوجات قرية ديهبيدى يقيم فى ذلك الوقت مأدبة دعى اليها خوجات ميراكونيين .

وصل الخوجات ، الذين كان عندهم خدم وخيول ، الى مكان المأدبة بسرعة . فيما تاخر اولئك الذين لا يملكونهم فترة طويلة .

وفى نهاية الامر استعار كل واحد من هؤلاء حصانين وخادما ، فركب كل منهم على حصان واركب الخادم على الحصان الآخر . اُعطى والدى وصاحبه ايضا حصانين . فقال والدى :

– حسنا انهم اعطونا حصانين ، كان بالامكان ان يعطونا ايضا خدما !

تحرك ركب الخوجات من سمرقند الى ديهبيدى بفخفخة كانهم الامراء . وهناك وضعوا امامهم مختلف انواع الاطعمة ، ثم قدموا لهم الهدايا ، ولكن الضيوف لم يلقوا حتى نظرة عليها .

قال صاحب البيت وهو يقف فى مدخل غرفة الاستقبال :

– تفضلوا ، تفضلوا رجاء !

ولكن الخوجات ظلوا على غطرستهم وترفعهم دون ان يلقوا نظرة على ما قدم اليهم .

وبعد الكثير من الالحاح اخرج كبير القوم ، الذى كان يجلس فى مكان الصدارة ، من جيبه سكينا . ثم تناول حبة رز من الاناء امامه واقتطعها نصفين ، اكل احدهما وارجع النصف الثانى الى الاناء .

اما نحن ابناء قرية ساكتاره فقد اخذتنا الدهشة وخلنا اننا سنعود الى المدينة جائعين اذا استمر الامر على هذا الشكل . فلم نضع وقتنا وبدانا الاكل ، حتى شبعنا تماما . والخوجات الميراكونيون ما يزالون على غطرستهم .

بعد ان انهى المدعوون طعامهم تليت آيات الشكران . وجاء خدم صاحب البيت فرفعوا الاطباق والاوانى وحملوها الى خدم الضيوف ليتناولوا طعامهم بدورهم حسب العادة المتبعة . ثم شرب الخوجات الشاى متمهلين ، وتوجهوا الى المدينة عائدين بنفس الفخفخة الاميرية التى جاءوا بها .

عندما وصلوا نهرا تشاور كبار القوم فيما بينهم واختاروا لهم شجرة ، ثم قام الخدم ببسط اجلال الخيل تحتها . فاسرع الخوجات بملابسهم المذهبة والحريرية اللامعة وجلسوا فى حلقة واحدة على تلك الاجلال القذرة ، الرطبة من العرق . نادوا على حوذييهم آمرين :

– هيا ، اجلبوا لنا الطعام لناكل والا فان الجوع سيهلكنا .

جاء الحوذيون بمخال الخيول ووضعوها امام سادتهم . فقام كل واحد

من هؤلاء بفتح مخلاة حصانه واخرج منها رزا بلحمة وراح يحشو فمه به حشوا .

كان هذا الرز هو نفس ذلك الرز الذى رفضوا تناوله ، غير حبة منه اقتطعها كبيرهم نصفين ، اكل احدهما وارجع النصف الثانى الى الاناء ، لينقل فيما بعد الى خدمهم . اتضح ان الخوجات كانوا متفقين مع خدمهم بأن ياكل هؤلاء ما يقدم اليهم ثم يضعوا الباقى فى مخال الخيول لينقل اليهم فيما بعد . كان الخوجات قد اعتادوا على مثل هذا السلوك ، فيما تعلم حوذيوهم كيف يضعون الطعام فى المخال بمهارة بحيث لا يكتشف احد هذا الامر .

لم يكن باستطاعتى فى ذلك الوقت فصل الحقيقة عن السخرية فى حديث والدى هنا ، الا اننى عندما كبرت عرفت ان والدى كان قد بالغ الى حد ما عند سردها علىّ . غير اننى عرفت ايضا من خلال تجربتى الخاصة انه لم يبتعد عن الحقيقة كثيرا .

وفى كل الاحوال ، انطبعت تلك القصة التى ابتكرها والدى فى ذاكرتى عميقا . وقبل ان اعرف الحياة بالتجربة كانت هذه القصة قد اقنعتنى تماما بحماقة ان يتفاخر المرء باسم ابيه او عائلته . وقد اكدت تجربتى الخاصة فيما بعد قناعاتى الاولى هذه .

الارض

تعرفت بحياة تلاميذ المدارس رغم قصر الفترة التى قضيتها مع اخى . اما الآن فكانت قضية ارسالى للدراسة فى بخارى تشغلنا جميعا . كان من الصعب على والدى ان يقوم باعالة ابنين من اولاده يدرسان فى بخارى . فاقترح علىّ ان اشتغل لاكسب بنفسى ما يعيننى على الدراسة والعيش فى بخارى .

كانت هناك بعض الاراضى الحرة مقابل بيتنا ، زرعها والدى باشجار مشمش كانت تزهر ثلاث مرات فى العام ، ولهذا كان من الصعب استخدام الثيران فى العمل على هذه الاراضى فقد كان يمكن ان تتلف هذه الاشجار .

اقترح والدى علىّ ان احرث تلك الارض وازرعها بشىء ما لاحصل من غلتها على ما يعيننى فى دراستى .

اشترى لى والدى معزقة غير كبيرة ، وبدأت عملى . قلبت الارض ثلاث مرات لاكشف التربة الرخوة اللينة على عمق ثلاث ضربات من المعزقة .

بعد هذا فكرت بسلف الارض ، وقررت ان استخدم الباب القديم لاجل ذلك . ولكن مسلفتى كانت بلا اسنان . فاضطررت الى استخدام المعزقة لجعل الارض رخوة اولا . بعد هذا اصبح الباب صالحا للعمل .

وافق حميد خوجا واكرام خوجا على سحب المسلفة بدل الثور ، اما انا فقد جلست لاثقل عليها . ولكنهما ما ان سحباها مرة او مرتين حتى تركاها .

ولكننى عثرت على مخرج لهذا الوضع ايضا .

شددت خيبر امام الباب . وما ان سار مرتين حتى عرف شغلته . وسرعان ما راح يسحب المسلفة كثور مجرب ، يمشى ويقف حسب الاوامر التى اصدرها له .

بعد ان انتهيت من سلف الارض ، اغنيتها بالسماد الحيوانى وبالتربة السوداء ، ثم قلبتها ثانية ، فاصبحت جاهزة للبذار . وسألت والدى :

– بماذا ازرعها ؟

– الناس يقولون «من لا عمل له يزرع الارض بالقرع» وانا اقول : ان تزرع الارض بالقرع فذلك خير بداية . فانت تعمل فى الفلاحة لاول مرة ، وهكذا فالقرع يناسبك تماما . وهو لا يتطلب عناية كبيرة .

بعد ان سفعت الشمس الارض باشعتها الحامية ، ونقعت البذور جيدا بالماء اعطاها والدى لى فقمت بزرعها .

تفتحت البذور بشكل طيب . وخلال اسبوعين طمرت قرعى ثلاث مرات . ثم سقيت الارض بعد ذلك . واذ انتهيت من كل هذا اشار والدى لى الى مكان لشق ترعة فيه لغرض السقى .

كانوا فى بخارى يتبعون طريقة للسقى تتلخص بفتح الماء على الارض المزروعة فى بداية البذار ، وبعد ان تتفتح البذور وينمو الزرع كانوا يشقون له بعد ذلك الترع لتنظيم السقى . وقد اتبعت هذه الطريقة بدورى على قطعتى هذه .

عمل والدى هذا العام كثيرا فى ارضه . وقد زرع ربع الديسياتين منها بالقطن فيما زرع الربع الآخر بالجوكارة * . ولكن القطن قد جف فعلقنا جميع آمالنا على الجوكارة .

فتح والدى الماء على ارضه فى الخريف الماضى ثم قام بقلبها . وفى الشتاء ، فى شهر كاووس ** وما بعده باربعين يوما ، ترك عليها الماء . وفى الربيع قلبها مرة اخرى ، وسمّدها . كان عندنا حائط طوف قديم مهدم وقف تحت الشمس سنوات عديدة . نقله والدى الى ارضه حيث كان يزرع الجوكارة فقام بتفتيته وتوزيعه على الارض . ساعدته فى هذه الشغلة كثيرا . كان يملأ السلال بالتربة ، ويحملها على جانبى الحمار فاقوم انا بسوقه الى الحقل وتفريغ السلال هناك .

استأجر والدى ثورا فحرث الارض مرتين ، ثم سلفها ، وبذرها وبعد البذار سلف الارض ثانية .

غير ان طلوع الزرع لم يكن كثيفا ، كانت سيقان النبتات متباعدة عن بعض ، بخطوة واحدة تقريبا . فنصح الجيران والدى ان يعيد البذار ثانية . وقالوا له :

– والا ستذهب هدرا مساحات كثيرة من الارض .

ولكن والدى لم يوافقهم :

– تذكروا مثل الكهول : «ازرع القطن بحيث تمر معزقتك خلاله وازرع الجوكارة بحيث يمر بعير خلالها» .

عندما كبرت النبتات الصغيرة طمرها والدى ثلاث مرات .

وعندما اخذت الشمس تلهبها فتح عليها الماء .

وكان كل ساق نبتة يعطى عشرة تفرعات او اكثر بعد السقى . ولكن والدى كان يبقى منها اربعة فقط . اما الاخريات فكان يقتطعها .

كان والدى يأمل ان يحصل هذا العام من ارضه على ثلاثين منّا من الجوكارة او ما يعادل مئتين واربعين بودا .

---

* الجوكارة : نوع من الحبوب يشبه الذرة الصفراء . **المترجم** .

** الشهر التاسع حسب التقويم الشمسى الايرانى ، ويوافق تشرين اول – تشرين ثانى حسب التقويم الاوربى . **الناشر** .

الوباء

زحف وباء الطاعون على مدينة بخارى فى بداية صيف عام ١٣٠٦ هجرية (فى تموز ١٨٨٩ ميلادية) . وكان عدد الضحايا يرتفع الى ارقام رهيبة .

عاد اخى من المدينة الى القرية وقد اصابه المرض . ومرض خالى ملا ديكان به فمات . فنقل جثمانه الى بيته فى قرية محلة بالا .

شعر والدى بتوعك فبقى فى بيتنا مع اخوتى ، فيما اخذتنى امى الى جدى لتوديع المرحوم خالى .

لا ادرى فيما اذا كانت امى قد اصيبت بالمرض هناك فى بيت جدى ام انها جاءت اليه تحمله من بيتنا ، ولكن فقدان اخيها كان قد اثقل عليها كثيرا فوقعت طريحة الفراش اثر وصولها بيت جدى .

اركبت امى على الحمار وعدت بها بصعوبة بالغة الى بيتنا . فوجدت ابى واخوتى الصغار قد ادركهم المرض ، وفى غرفة صغيرة واحدة كان ثمة خمسة مرضى منطرحين فى صف واحد جنبا الى جنب .

كنت انتقل من واحد الى آخر اسقيهم الماء والحليب ، واهش الذباب عنهم ، واسندهم اذا حاولوا الوقوف .

وبعد اسبوع واحد اصبحت بيوت القرية جميعا اشبه ببيتنا . ولم يعد هناك اناس اصحاء لا فى قريتنا وحسب بل وفى المنطقة كلها . وبدأ الموت يحصد ارواح الناس .

وفى ساكتاره حيث كانت تعيش حوالى ثلاثمئة عائلة كانوا يدفنون كل يوم واحدا او اثنين من ابنائها .

لم اكن اعرف فى ذلك الوقت حقيقة المرض الذى ابتلت به عائلتى . ولم يكن ثمة اطباء فى القرية ولا حكيم يعرف ما يجب عمله ...

عانى والدى فى عائلتنا اكثر الجميع من مرضه . ظل طيلة الوقت تقريبا طريح الفراش ، فاقدا وعيه ، لا يتكلم الا طالبا شيئا ليشرب .

وفى احد الايام فتح عينيه وسألنى :

— هل سقيت الجوكارة مرة ثانية ؟

— لا .

— كم يوم مر على السقى الاول ؟

— عشرة .

— حسنا ، ما زال الوقت مبكرا للسقى .

قال هذا ثم اغلق عينيه وغاب فى النسيان .

وبعد ذلك ظل يسألنى نفس السؤال عدة مرات فى اليوم الواحد .

وعندما مر عشرون يوما على السقى الاول اجبت على سؤاله المتكرر المعتاد :

— عشرون .

— يجب ان تفتح الماء الآن بالتاكيد على الجوكارة . حاول ان تفعل ذلك ان استطعت . الزرع بدون الماء يموت .

اخذت المعزقة وذهبت الى الحقل .

دهشت لذكاء كلبنا . كان يلحقنى من قبل اينما ذهبت . ولكنى ما ان بدأت اهتم بمرضاى حتى راح يرابط عند باب بيتنا لا يبرحه . وعندما توجهت الى الحقل هذا اليوم نظر خيبر نحو المرضى ثم وضع رأسه على العتبة كانما قرر ان ينوب عنى فى هذا المكان .

كان الماء كثيرا ذلك العام . اضافة الى ان الكثيرين من الفلاحين كانوا قد مرضوا فما عادوا يهتمون لسقى .

فتحت القناة الكبيرة بسهولة ، واطلقت الماء على حقلنا . ثم عدت الى مرضاى .

بعد ساعة فتح والدى عينيه ، وسأل :

— هل فتحت الماء ؟

— نعم .

فاثنى على مغلقا عينيه :

— عفارم !

رغم ان العم اسطه خوجا كان مريضا ، حاله حال عائلته جميعا ، فقد جاء الى بيتنا يزور والدى ويخفف عنى :

– سيشفى والدك بالتأكيد . عليه ان يعرق فقط اربع مرات .

وفى اليوم الاربعين من مرضه استرد ابى وعيه بعد ان عرق . كان يضطجع هادئا مالكا زمام نفسه .

وفى اليوم السابع لذلك مر اسطه خوجا علينا ، فنظر الى المريض وقال :

– اذا ساء حاله تعال الىّ مباشرة .

فسألته والدموع فى عينى :

– كيف اعرف اذا ساء حاله او تحسن ؟

– لا تبك . كن رجلا جديرا بابيك . حالته سيئة جدا . ولكنه يضطجع هادئا كى لا يفزعك قبل الاوان . انتبه ، ولا تقلقه ! وعندما تجده يتنفس بصعوبة ويشخر فان ذلك يعنى ان حالته سيئة جدا ، نادنى آنئذ . اما الآن فعلىّ ان اذهب لان عمتك مريضة جدا ايضا .

جاء الليل . فاشعلت الفانوس . لم يكن فى البيت غيرى يقظا فقد نام الجميع . كان الليل قد هبط لتوه عندما بدا والدى يتنفس بصعوبة ويشخر .

فذهبت طلبا للعم اسطه خوجا .

بلل قطعة من القطن فى الماء ثم اعتصرها بين شفتى والدى . فتح والدى عينيه . نظر اولا نحوى ، ثم نحو العم ، قائلا :

– اعطنى ماء بعد ، بالملعقة .

صب العم له ملعقتى ماء فى فمه ، فقال والدى :

– كفى !

ثم التفت نحوى موصيا :

– ادرس ، مهما عانيت من صعاب ادرس !

واغلق عينيه .

بعد بضعة دقائق بدا شخيره يقطع انفاسه . فاخذ العم اسطه خوجا قطعة القطن فبللها بالماء واعتصرها ثانية بين شفتيه . حاول والدى ان يرفع راسه وهو ينظر الىّ ، الا ان راسه سقط اعياء على المخدة . ارتعشت يداه ، ثم لفظ نفسه الاخير . اغلق العم عينى المرحوم ، وقال لى :

– ساذهب لالقى نظرة على مرضاى ، ثم اعود بعد قليل . هل تخشى البقاء هنا ؟

– وهل يمكن ان يخشى احد اباه !

فاثنى العم علىّ :

– عفارم يا شبل !

كان والدى قد بلغ آنذاك السابعة والخمسين حسب التقويم الشمسى .

عاد العم اسطه خوجا بعد برهة من الزمن . وعرفت امى وكذلك اخى الكبير بان ابى قد مات . اما اخوتى الصغار فقد عرفوا بالامر فى النهار وحسب .

كان فى القرية المجاورة تاجر اسمه يولداشباى يتاجر بالاقمشة والفواكه المجففة والصابات المصنوعة فى البيوت ، يذهب بها الى مدن اخرى مثل كازالينسك وآق ميتشيت واورنبورغ ويقايضها بالبضائع الروسية .

عندما انتشر الوباء واصبح الناس يموتون باعداد كبيرة راح يولداشباى يمارس تجارة بيع الاكفان . كان يقول انه لم يمارس هذه التجارة الا لانها خيرة ومفيدة للناس . حتى انه ، مع نواياه الخيرة ، اعطانى مائة تينغ لدفن والدى . وقد قال العم اسطه خوجا :

– لو كانت عندنا فلوس حاضرة لكان فى امكاننا ان نشترى كل ذلك من السوق ارخص بثلاثين تينغا .

كنت احتاج عشرين تينغا آخر للماتم ، فاعطاها لى هذا المحسن ، على ان اعيدها اليه خمسة وعشرين .

بعد ان انتهت فترة الحداد على والدى ماتت بقرتنا بعد ان مرضت لا ادرى لأى سبب وربما لعدم معرفتى كيفية العناية بها . فقالت امى :

– لتنزل كل المصائب التى تنتظرنا على راس هذه البقرة . لو انها ماتت قبل ابيك لربما عاش . فليكن عجلها الآن صدقة لك ولاخوتك .

ثم طلبت منى ان آخذ العجل فاعطيه الى خان خوجا ، وهو رجل كسيح ، لا ذراع له ولا ساق ، يعيش على الصدقات .

فقدت العجل اليه ، ولكنه قال لى بعناد :

– انتم الآن احوج منى اليه . اننى اعيش على الصدقات وانا ادبر امرى هكذا . اما انتم فلم تتعودوا على هذه الحياة . ولا احد يدرى كيف سيصبح حالكم .

ولكن امى امرتنى ان آخذ العجل اليه ثانية ورجته ان يقبله صدقة عن الاولاد . واستطعت هذه المرة ان اقنعه بصعوبة شديدة ان يأخذ العجل .

لم يكن الموت يهدد اخوتى ، كما كان الكبار يعتقدون . ولكن قوى امى كانت تضمحل يوما اثر يوم .

وتحسن وضع اخوتى الى حد ما وبدأوا ياكلون .

كنت اسقى الجوكارة فى الوقت اللازم لذلك ، الا اننى لم اكن استطيع حمايتها من الطيور . وعندما بدأت تنضج راحت العصافير تهاجمها سربا سربا ، فلم تتركها الا هشيما . غير ان ما سلم منها كان ممتلئا ريانا .

لم يكن غزو العصافير للزرع جارفا مثل غزو الغربان السوداء . كان فى ساكتاره الكثير من الغربان . العصافير تاكل عشر حبات او اثنتى عشرة ثم تشبع وتطير راضية ، اما الغربان فلم تكن تشبع ابدا . كنت اخشى ان يتلف زرعنا فنتلف نحن معه . فقد كان الامل بايفاء ديننا الذى جاءنا بعد دفن والدى ، وما استهلكناه خلال فصل الشتاء ، متعلقا بهذه الجوكارة وحدها . كان عندنا فى البيت احتياطى من الطحين ، ولكنه كان يكفى لشهر آخر وحسب . فكان يجب انقاذ الجوكارة . ولكننى لم اكن استطيع الذهاب الى الحقل لطرد الطيور تاركا والدتى وحيدة بغير معين .

جاءنا فى هذا الوقت واحد من اخوة امى – على خان – بصحبة احد ابناء قريته ليطلعا على ما اصابنا . قال على خان بان جميع من فى بيتهم قد مرضوا بعد دفن اخيه ملا ديكان ، بل وماتت زوجته وزوجات اخوته ، وهو نفسه قد اصاب المرض منه موجعا . اما الآن بعد ان برئ من مرضه فقد ارسله امه وابوه لرؤيتنا .

بعد ان رأى خالى على خان وضع امى المزرى قرر ان يأخذها معه الى محلة بالا .

– جدك وجدتك شفيا من المرض وهما بحالة لا بأس بها الآن . اما انت فوحدك ، بل وصغير ايضا ، لا تستطيع الاعتناء باخوتك ناهيك عن امك .

وافقناه الرأى .

صنع خالى من عصوين حمالة ، ثم شدها بين حمارين . وفرش عليها بطانية ، ووضع امى عليها . ثم طرح عليها غطاء وسار فى طريقه .

لم اعرف كيف شعر اخوتى وهم يودعون والدتنا ، ولكن قلبى آنذاك تقطع لذلك . حاولت فقط ان لا اصدر صوتا قد يزعج المرضى .

نظرت الى عينى امى ، فانبجس الدمع من عينيها نصف الميتتين وسال على وجهها الهزيل الشاحب . وعندما تحركت الدابتان مبتدئتين رحلتهما همست لى :

– لتعش الف عام يا بنى !

ساروا تحت الاشجار . ثم انعطفوا مع الطريق واختفوا عن الانظار . اقنعت نفسى مواسيا : «لا يمكن ان افقد ابى وامى مرة واحدة . لا بد ان تعود !» .

واحرق الدمع السخين عينىّ .

اصبحت اقضى معظم اوقاتى الآن فى الحقل . كنت ارجع الى البيت فقط لكى اغلى الماء واهيئ الطعام لاقدمه الى المرضى .

وليس الا عندما يهبط الظلام كنت اعود نهائيا الى البيت لاذهب الى النوم . وكنت استيقظ قبيل الفجر فاهرع الى الحقل لاطرد الطيور ،كان ذلك همى الرئيس . ولكن الطيور اللعينة كانت ما تكاد تطير من مكان حتى تحط فى مكان آخر حيث ترتفع هامات الجوكارة . لم تكن الطيور تعبأ لاحجارى وعصاى . ولكن اكرام خوجا ابن العم اسطه خوجا ساعدنى فى مهمتى هذه كثيرا .

امرنى ان احضر عصا بغلظ ساعد الانسان وبطول ذراعه . فاخذها منى وشذّبها . ثم حفر بمثقب فيها بئرا على طولها .

ولكنه لم يجعله ينفذ الى النهاية المقابلة ، بل حفر ثقبا يتصل فيه من الجانب ، واسمى هذه العصا بندقية خشبية .

فى ذلك الوقت كان عندنا فى القرية صيادون كثيرون ، يطلعون الى الجبال بصحبة اسلحتهم القديمة . وكانوا يصنعون بانفسهم بارودهم . اخذ اكرام خوجا من احد هؤلاء كمية من البارود ووضعها فى فوهة العصا ثم دحس فوقها بعض القطن ، ادار العصا باتجاه الطيور ثم اشعل النار فى الثقب الجانبى .

عندما مس اللهب البارود انفجرت العصا مهتزة بعنف ، ولا ادرى كيف سلمنا نحن !

ولكن الطيور هربت امام رائحة البارود ولم تظهر امام اعيننا ساعة كاملة .

عكف اكرام خوجا على عصا اخرى اغلظ من الاولى ، وراح يتفنن فى تحويلها الى بندقية اخرى . الا انه وضع فيها من البارود اقل من المرة الاولى . فلم تنفجر اما الطيور ففرت هاربة .

وما كادت الطيور ترجع حتى اطلقنا عليها النار مرة اخرى . وهكذا انقذنا محصول الجوكارة .

وفى اليوم التالى طلب اكرام خوجا من احد الصيادين رصاصا صنع منه رشا ، الا انه كان انعم من رش الصياد ، بل ويشبه الدخن . ورغم ذلك استخدمه اكرام خوجا ، لصيد العصافير والحمام . كنا نشوى الحمام الذى نصطاده على النار وناكله فى الحال . وفى احد الايام اصطدنا اربع حمامات فشويتها وحملت اثنتين منها الى اخوتى المرضى .

ابيضت عناقيد الجوكارة ونضجت تقريبا . واستقام العم اسطه خوجا على قدميه فى تلك الايام ، بعد ان سقط طريح الفراش اثر موت والدى . فجاءنى الى الحقل معتمدا على عصا . نظر الى الجوكارة ، وقال :

– حان الوقت لجنى الجوكارة الناضجة . اجمعها فى مكان واحد . والا فعندما تنضج كلها لا تستطيع جمعها وحدك .

اشار الى ارض مدروسة فى طرف الحقل ، وقال :

– اجمعها هنا فهذه الارض جافة ممهدة والدرس فيها سيكون سهلا .

وبدأت فى ذلك اليوم جنى المحصول ، فلم اعد اغادر الحقل حتى فى الليل .

وصنعت لى كوخا من سيقان الجوكارة التى جنيتها ، وكانت هذه عندى تزداد كلما جنيت مزيدا من عناقيد الجوكارة . اصبح الكوخ مريحا جدا ، لا تنفذ اليه الريح والمطر .

كثرت سيقان الجوكارة عندى فى نهاية الامر بحيث اصبحت اصرف نصف الوقت فى نقلها الى البيت .

اخذ اكرام خوجا يبيت الليل معى فى الكوخ ، كانت له زوجة اب فلم يكن يرغب فى الذهاب الى بيتهم . واخذ الشبان الذين نجوا من انياب المرض يجتمعون عندنا . فكنا نجلس نتحدث ونتسامر حتى منتصف الليل . ثم كانوا يتوزعون بعد ذلك الى بيوتهم . اما اولئك الذين كانت اوضاعهم فى بيوتهم غير مريحة فقد كانوا يبيتون فى الكوخ .

ليلة فى الحقل

اصبحت الليالى اكثر برودة من قبل . وكانت ريح الخريف صَرصَرًا تخز كالابر . وكان الندى يلتمع على العشب تحت ضوء القمر كالثلج تماما .

كان الجميع يعلمون ان كل شىء سيجمد هذه الليلة ، وانه يتوجب عليهم منذ صباح اليوم التالى جمع كل الغلال . وفكرت بدورى أن علىّ ايضا جمع كل الجوكارة غدا ، رغم ان ما بقى منها فى الحقل اكثر من النصف . لا يجب الابطاء بعد نزول البرد ، فالدواب ستطلق للرعى فى الحقول ، والامطار ستهطل مدرارة . فلا يبقى من الجوكارة شىء . ولكن كيف السبيل الى جمع كل هذا المحصول وحدى ؟

كنت افكر بكل هذا عندما قدم اكرام خوجا . كان يرتعش من البرد ويتذمر :

– اردت ان اجلب بطانية من تلك التى بقيت لى من والدتى ولكن زوجة والدى لم توافق . اخبرت والدى بالامر فقال : «لقد

شفيت قبل فترة قصيرة فاذا اقلقنا راحتها فانها قد تنتكس من جديد . لا بأس ، البرد لن يقتلك ، فاذهب . .» .

وصل ثلاثة شبان آخرون . سأل احدهم :

– لماذا لم تذهب الى محلة بالا لتحضر جناز امك ؟

كان سؤاله دلو ماء حار صب على راسى . وشعرتنى أُهرَس بين رحى طاحون لا يرحم . اذن فقد ماتت امى . لقد عرف هذا الشاب بموت والدتى بطريقة ما وكان يتصور ان سؤاله هو افضل ما يمكن ان يُقال لاخبارى بهذا النبأ . لم ابك ، لكأننى القيت الى النار ، الى الجليد . وجمد كل شىء فى داخلى .

لم تنضح عينى بدمعة ، كأننى جدبت تماما . فكرت : «ما العمل الآن ؟ لقد اصبحت يتيم الابوين وانا ما زلت فى الثانية عشرة من عمرى ، واخوة مرضى بين يدىّ . . سيشفى اخى الكبير ويذهب الى بخارى ليدرس . يتحتم علىّ اذن ان اربى اخوتى الصغار . ودراستى ؟ ما مصيرها ؟ اننى ارغب جدا بالدراسة . الدراسة اوصانى بها ابى !» .

وقال احد الشبان :

– لا داعى لأن تسأله هذا السؤال . يجب تعزيته . شد حيلك ! وهذا اكرام خوجا امامك يعيش دون ام .

وقال اكرام خوجا :

– لا تبتئس . كل شىء يمر وينسى . اننى اعيش دون ام منذ عشرة اعوام . ولا بأس بحالى ، لم تاكلنى الذئاب .

قاطع اكرام خوجا احدهم وكان صامتا طيلة الوقت :

– ليست عندك ام . ولكن عندك اب وزوجة اب . اما هو فقد فَقَدَ اباه وامه فى وقت واحد ، فحاله اصعب منك .

فاجاب اكرام خوجا بمرارة :

– العيش دون ام خير من الوقوع فى يد زوجة الاب .

عندما يقع الانسان فى ظرف صعب فانه يبحث عما يخفف عنه وان لحد ما . ولقد عزيت نفسى متفكرا بما قاله اكرام خوجا عن زوجة ابيه .

«لو ماتت امى وحدها لتزوج ابى ، فاى حال كان يمكن ان يكون حالنا ؟ لكرهتنى زوجة ابى ربما ، ولطردتنى من البيت .

ولما اعطتنا بطانيات امى . بل ان والدى العطوف لتغير على الاكثر ولطردنى بنفسه من البيت . اما الآن فاننى رغم فقدانى ابى وامى سيد نفسى على الاقل : الحبوب ملكى ، الحمار اصبح لى ، اخوتى سيسمعون كلامى . استطيع اذن ان اقول : مصابى عظيم ولكنه كان يمكن ان يكون اكبر مع وجود زوجة اب !» .

هكذا عزيت نفسى فى مصابى .

ولكن ما ان عفى الاصدقاء حتى رايت فجأة هوة وحدتى الرهيبة ، بلا قاع ، واسعة كأنها العالم كله .

اردت ان ابكى ولكننى بقيت ثابت الجنان . خشيت ان اقلق اصدقائى النائمين ، الذين جاءوا يعزوننى ويقاسمونننى ليلة اليتم الاولى فناموا هنا فى هذا البرد حولى .

اردت ان افعل اى شىء يلهينى عن مصابى . وتذكرت بيتين من شعر بديل الذى كان والدى يردده غالبا ، فنشدت بصوت خفيض :

آه ! ايها السلوان اين انت
لقد استيقظ الكرب فى قلبى من جديد .

وفجأة سمعت غناء بعيدا يصدر من فلاحين يسيرون خلف ثيرانهم .

كان الفلاحون فى ناحية غيشدوفان قد اعتادوا فى الصيف على قلب الارض او حرثها بمعونة الثيران من الساعة العاشرة مساء ، حيث تكون الارض رطبة لم تجف بعد تحت وهج الشمس المحرقة . اما فى ليالى الخريف الطويلة فقد كانوا يبدأون عملهم بوقت متأخر اكثر من هذا ليفعلوا ما يستطيعون فى الوقت الذى يكون الجو فيه باردا طيبا . كانوا يعملون كثيرا ، ويبذلون جهدا كبيرا ، فى ليالى الخريف الطويلة هذه . وكان الغناء فرحهم الوحيد فيها .

كان الفلاحون فى ديرتنا يجيدون الغناء ويتحسّسون جيدا ايقاع الشعر الكلاسيكى . ودون ان يعرفوا القراءة كانوا يتوارثون الشعر من جيل الى جيل مختزنينه فى ذاكرتهم . ولقد برز من ديرتنا اساتذة فى فن الغناء امثال بوبوكول فيض اللايف من غيشدوفان والملحن الاوزبكى شاه‌نزار صاحبوف من وابقند .

فى الكثير من هذه الاغانى صور جيدة لحياة الناس فى تلك الفترة ، بخاصة الفلاحين . وهناك الكثير من الاغانى الفكهة والمرحة . ولكن الفلاحين كانوا يفضلون الاغانى الاقرب لحياتهم .

رد فلاح آخر على غناء ذلك الفلاح البعيد ، الذى غنى فى اول ليلة من يتمى . واذ استمعت اليهما شعرت بنوع من العزاء ، فتجرعت مصابى دون دموع وكلام .

ظل الفلاحان يغنيان حتى الصباح ، متناوبين انشاد شعر بديل وحافظ فى ذلك الفضاء الليلى الهادئ المسالم العريض . وعندما انبلج الفجر استيقظ زملائى وراحوا يتحدثون فيما بينهم فلم اعد استطيع سماع ذلك الغناء .

مر على تلك الليلة ستون عاما ، ولكن الوانها القاتمة لم تشحب ابدا فى ذاكرتى . لم اكن استطيع نسيانها مطلقا ، فهى ليلتى الاولى دون ام .

جنى الغلال

قدم الجيران لى العون ، وساعدنى الشباب ، اعطونى حميرا واحصنة ، وقمت بجنى الجوكارة . واتضح ان مثل ذلك المحصول لم يجنه احد فى ديرتنا .

اعطيت يولداشباى فورا مائة وعشرين بودا من الجوكارة مقابل ما اخذته منه عند دفن والدى . ثمن الوسطاء الجوكارة بعشرة تينغات (روبل ونصف) لكل ثمانية بودات .. رغم انها كانت اغلى بتينغين فى السوق العامة . الا انهم طرحوا هذين التينغين للتحميل والنقل .

اخذ يولداشباى مائة وخمسة وعشرين تينغا عن دينه . ثم وزع خمسة وعشرين تينغا عن ديونى الاخرى . وبعد ان دفعت كل شىء بقى لى حوالى اربعون بودا من الجوكارة البيضاء . اما غير الناضجة منها فقد حملتها الى البيت دون وزن .

بعد اسبوع جاء خالى على خان . فقال لى بانتى مدين له بمبلغ مائة تينغ صرفت على دفن امى . فاعطيناه مائة وستين بودا من

الجوكارة غير الناضجة ، معتبرينها ارخص من الناضجة بمرتين . كان ثمنها فى السوق سبعة تينغات . ولكنه انقص تينغين عن النقل والتحميل .

اضافة الى ذلك ظل حمارنا ياكل من الجوكارة غير الناضجة طيلة الشتاء . كان ذلك المحصول وافرا لم ير مثله احد فى ساكتاره من قبل .

زرع اسطه خوجا نصف الديسياتين من ارضه هذا العام بالجوكارة ايضا . ولكنه لم يجن غير اربعة وعشرين بودا من الجوكارة الناضجة . وستة عشر بودا من غير الناضجة . رغم ان ابنه اكرام خوجا لم يمهل الطيور لحظة لتحط على زرعهم .

قال الشيوخ لى :

– مثل هذا المحصول لا ينبئ بخير . انه هو الذى اكل اباكم .

كنت صبيا فى الثانية عشرة من عمرى . ولكننى لم اوافق الشيوخ على رأيهم هذا : «لقد زرع والدى ربع هكتار من الارض بالقطن ، ثم هلك هذا القطن كله . وضاع تعبه هدرا . فلم ينقذه هذا من الموت . فلماذا ياكل هذا المحصول عمره ؟»

وكان القرع – تجربتى الاولى فى الزراعة – قد غل ايضا غلة طيبة ممتازة . جمعته فى الخريف ووضعته فى ورشة والدى فملأ الغرفة كلها حتى السقف . اما الطرى وغير الناضج منه فقد تركته فى البيت لاستعمالنا .

اهتممت فى الشتاء ببيع القرع متبعا فى ذلك نظاما صارما .

كانت سوق غيشدوفان تعقد مرتين فى الاسبوع ، السبت والاربعاء . فكنت احمل اليها فى كل يوم من هذين اليومين كيسا املاه بست عشرة قرعة فابيعها هناك بالمفرد .

كنت ادفع پولين عن الحمار فى كل مرة اتركه فى المربط . واربعة پولات لاجازة البيع . ثم اشترى باربعة پولات رغيفا من الخبز لى ، وباربعة پولات اخرى عنبا . وكنت اشترى رغيفين من الخبز لاخوتى المرضى . فكنت اصرف كل يوم من ايام السوق اثنين وعشرين پولا . ومرة فى الاسبوع كنت اشترى نصف كيلو من اللحم للبيت .

وعندما تجمعت عندى بعض النقود اشتريت لاخوتى ولى بعض الملابس . اما النقود التى تبقت عندى فقد اشتريت بها فى الربيع حملا .

هكذا دبرت امور عائلتى وصرت ربا للبيت .

رب البيت

اصبحت ذلك العام بالنسبة لاخوتى ابا واما وخادما ، فقد كان اخى الكبير ما يزال ضعيفا . اما اخوتى الصغار فبالكاد استطاعوا الافلات من انياب الموت فلم يكن فى مقدورهم ان يعينونى فى شىء .

كنا ما نزال نحتفظ بكيس صغير من التوت الجاف الذى جففته والدتى . فعلمتنى واحدة من جارتنا كيف يمكن تحضير حلاوة من هذا التوت ، فكنت اطبخها مرتين فى الاسبوع وناكلها مع خبز الجوكارة .

نقلت الجوكارة الى المطحنة وارجعتها من هناك طحينا . وكانت زوجة ابراهيم خوجا ، سلطانة بوشو ، تقوم بعجنه وخبزه لنا مرة فى الاسبوع . فكانت الجوكارة فى هذا الشتاء غذاءنا الرئيسى .

كنت اذهب الى السوق ، واهيئ الطعام ، واغسل الملابس ، وارقع الاحذية ، واخيط ما نحتاجه من اردية . وقد كنت فرحا لاننى تعلمت غسل الملابس فى مدرسة البنات .

استرجع اخى الكبير صحته فى منتصف الشتاء . ولكنه لم يبق فى القرية الا فترة قصيرة سافر بعدها الى قرية تاباريون ، التى تبعد عنا بستة عشر فرستا ليعمل فيها ملاّ كى يكسب ما يعينه على العيش السنة القادمة .

وهكذا بقينا نحن ، ثلاثة اخوة ، وحدنا فى البيت .

كان لسراج الدين ثمانية اعوام . ورغم انه شفى من مرضه تماما ولكنه كان ما يزال ضعيفا ، شاحبا . كان يسير معتمدا على عصا . وكانت شهيته للأكل معدومة تماما .

اما اخى الصغير كرم الدين فقد كان له من العمر اربعة اعوام وقد تعافى تماما وقوى بعد شفائه من مرضه بوقت قصير . ولكن قوامه كان جد غريب ، فقد كان طويلا جدا وراسه كبيرا بشكل غير معتاد ، اما رقبته فقد كانت غليظة ، وصدره واسعا . كان يمشى مبرزا صدره الى امام بشجاعة . وكان نادرا ما يضحك . ويتكلم دائما برصانة ، مثل الكبار . وكان ذكيا واسع الحيلة .

جلب لنا اخونا الكبير الملاّ محى الدين من قريته فى احد الايام لحما ورزا وسمنا ، لنحضر لنا طبخة رز بلحمة . وقد قام بنفسه بتحضيرها ودعى اليها العم اسطه خوجا وابنه اكرام خوجا . فجلسنا حول الصندل جميعا وبدانا الاكل .

كانت هناك عظمة كبيرة بين قطع اللحم والرز ، مملوءة بالنخاع ، عرضها اخى حسب العادة المتبعة على اسطه خوجا . فقال العم :

– دعها لكم ، فليست عندى اسنان .

لم يكن هناك من هو اكبر من اخى سنا فراح يعالجها بنفسه . كانت العظمة كبيرة وقوية . مسكها اخى بكلتا يديه وراح يعضعضها ، وحانت منه التفاتة الى وجه كرم الدين فرآه ينظر اليه بغضب ، فسأله محى الدين :

– لماذا تنظر هكذا ؟

فاجاب الصغير بغضب :

– انت تعضعض العظمة مثل خيبر .

فضج الجميع بالضحك . وقد اعجبتنى ملاحظته اللاذعة . فقلت له :

– يبدو انك ستصبح شاعرا !

ولكن احدا لم يفهم مغزى كلماتى . ولكننى لاحظت أن محى الدين قد غضب علىّ بسبب هذه الكلمات ، لاننى لاطفت الصغير بدل تانيبه على عدم احترامه للكبار .

اشتدت رغبتى للدراسة بعد وصية والدى . ولكننى كنت قد خلفت ورائى احلامى بالذهاب الى بخارى ، فقد كان ذلك مستحيل التحقيق .

وواصل محى الدين دراسته بعناد رغم كل الصعاب . اما انا فقد كتب على ان اعوض لاخوىّ اباهما وامهما فاسهر على تنشئتهما وتربيتهما . ولو انى سافرت الى بخارى لهلك اخواى . فتركت كل الآمال والاحلام وانشغلت برعايتهما . ولذلك تركت حتى الدروس التى كنت اتلقاها من ملاّ القرية ، وتحولـــت الى الاهتمام بامور البيت .

اشتريت فى الربيع ، بالنقود التى جمعتها من بيـع القرع ، خروفا وحملا . ورحت ارعاهما املا فى بيع احدهما فى الخريـف وذبح الآخر لنا .

كنت ارعاهما فى الغالب فى الكثيب القريب من المقبرة ، لان هذا المكان كان لا يعود لاحد ، وكان العشب هنا كثيرا يافعا . اما بقية الفلاحين فقد كانوا يخشون رعى دوابهم هنا خوفا من لعنة الاجداد واذى الجن والشياطين .

كنت احب التطلع نحو الحقول وحدائق البيوت وانا جالس على التل اقرا بين حين وآخر ما كتب على شواهد القبور .

وكان على احد الشواهد قد خط بحروف جميلة شعر شعبى يقول :

ما امر ان تتلاعب الاقدار بامور الناس .
آجلا ام عاجلا ستفرق بيننا .
ورغم اننا لم نعش سوية يومين فى هذه الدنيا الفانية .
آه يا صاح ! ينتظرنا الفراق دائما .

وعندما مرت ايام الربيـــع ويبس العشب قرب المقبرة ، انحدرت للرعى الى ضفة النهر ، وكانت تسمى آنذاك : اوبدوك . وكان الماء يتجمع هنا فى اوقات ارتفاع نسب المياه ، ويبقى فى هذا المكان فترة طويلة . ثم ينمو العشب فيه جيدا . فكان جميع رعاة قريتنا يرعون دوابهم هنا .

كنا نترك الدواب ترعى هناك . ونقيم نحن مختلف الالعاب فى ظلال شجرة السفرجل .

وعندما كنا نجوع كنا نجمع الفاصوليا النامية قرب جداول السقى ونسلقها فى ماء مالح ونأكلها .

وعندما كان الحظ يحالفنا بعض المرات كنا نصطاد سمكات صغيرة فى البرك المنتشرة حوالى النهر . فكنا نقليهـا مباشرة ، وكانت هذه الأكلة تعجبنا جميعا بشدة .

الا انه كان علينا ان نترك الرعى قرب الجداول قبل حلول الخريف بفترة طويلة . فقد كانت جميع الاراضى المحاذية للنهـر تعتبر من املاك الاميـــر . وكان الفلاحون الذين يزرعون هذه الاراضى يعطون الى الامير اربعين بالمائة من محاصيلهم .

اما فى السنوات التى كانت فيها هذه الاراضى تترك فقد كان على الفلاحين ان يدفعوا ضريبة على ما ينمو فيها من نباتات طفيلية .

فى ذلك العام كان يقوم بجمع الضرائب فى منطقة غيشدوفان شخص اسمه قرابك . كان هذا السافل قاسيا لا يرحم . سلب الفلاحين كل محصولهم مستعملا كل انواع الاحتيال والخداع والاكراه وبذل الوعود . اضافة الى انه كان يستطيـــع التلاعب بالالفاظ بحيث يجعل الفلاحين مدينين للامير حتى بعد دفعهم له كل محصولهم .

وفى ذلك العام كانوا يأخذون من الفلاحين ضرائب على تركهم الارض مهجورة دون غرس وزرع . كانت الاراضى المتاخمة للنهر غير قابلة للاستصلاح . بل لم يحاول احد ابدا ان يفعل ذلك . فجعل قرابك ضريبـــة على الفلاحين الذين تجاور حقولهم تلـــك الاراضى .

وعندما رأى قرابك دواب ترعى فى تلـك الاراضى قرر ان يفرض ضريبة على اصحابها لرعيهم دوابهم فى الاراضى الاميرية ، وامر ان يمثل جميع الرعاة بين يديه . الا ان الرعاة لاذوا بالفرار فقد شعروا أن لا خير يأتيهم من وراء هذا الامر ، وهكذا اسرعوا بتهريب دوابهم . وبعد ذلك رحنا نرعاها فى مكان آخر .

لم نجن اى محصول ذلك العام من الارض التى تركها لنـا والدنا . اذ لم استطع ان اقوم بكل اعبائها بمفردى .

وجاءنى احد اصدقاء والدى ، وكان اسمه مؤمن ميرزا يمد لى يد العون . فاخذ منى بذور حنطة وشعير وزرعها فى ارضه التى كان قطنها قد جف . وقال لى :

— اهتم بهذا الزرع فهـــو لك كله . اما القش فاعطه لى لاقدمه الى ثيرانى .

ولكن صاحب دكان بيع البذور كان قد خدعني اذ اعطاني بذور شعير شتوية بدل الربيعية . ولهذا فقد نما الزرع في البداية قليلا ثم كف عن النمو ، وهلك بعد ذلك . اما الحنطة فقد احترقت ايضا . ولم اجن من ذلك الحقل حتى حبة واحدة احفظها للبذار .

شجعني محصول القرع الجيد في العام الماضي على تهيئة نفس الارض هذا العام لزرعها من جديد بالقرع . لم اكن اعرف آنذاك انه لا يجوز زرع الارض بنفس الزرع عامين متتاليين . وانبت القرع في ارضي ازهارا فارغة ، تلك الازهار التي يطلق الشعراء عليها تسمية جميلة : ازهار الخديعة . ولم اجن قرعة واحدة من كل تلك الارض .

وهكذا لم احصل على شيء ذلك العام من ممارستي للزراعة . بل اهلك البرد حتى اشجار المشمش والتوت ، فلم نجن غير الهباء تقريبا من اشجارنا الكبيرة .

قرابك

حتى عام ١٨٦٨ كان الفلاحون الذين يعملون في الاراضي الاميرية يعطون الامير مظفر ، الذي حكم امارة بخارى ، اربعين بالمائة من محصولهم .

وعندما نصب الامير عبد الاحد خلفا له لم يغير ذلك القانون . واكثر من هذا فقد اخذ جباة الضرائب ينتزعون من الفلاحين بكل الطرق والوسائل اكثر من نصف المحصول ، بل واحيانا ثلثيه . وكان الامير يطالب جباته بعوائد اكثر رغم انه لم يغير تلك القوانين . ولذلك فقد تطلب الامر تعيين جباة عتاة ذوي خبرة ومراس .

كان قرابك يعمل نساخا عند جابي ضرائب . ثم اصبح في عهد الامير عبد الاحد جابيا للضرائب ، وعيّن على منطقة غيشدوفان ، اغنى مناطق بخارى واخصبها .

كان قرابك من اهل قرية تاختا كورغان من آل بركوت ولذلك كان يعرف جيدا قرى ساكتاره ومنطقة غيشدوفان كلها .

كان قرابك اول جابي ضرائب يفرض رسما على الاراضي غير المستصلحة . ولكي لا تنمو على هذه الاراضي نباتات طفيلية ، ودون ان تزرع ايضا ، فرض ضريبة عليها لاجل الحرث . وفيما بعد طبق هذا النظام في جميع مناطق امارة بخارى .

كان يعيش في قرية تاختا كورغان عجوز يبلغ الثمانين من عمره وهو من آل بركوت نفسه . كان الناس يسمونه العم بك . كان يملك الكثير من الاراضي الواقعة شمال المقبرة . وكان رجلا طيبا ذا قلب نظيف . لا يثقل على الفلاحين الذين يستأجرون ارضا منه ، حتى انه لم يكن يذهب اليهم لاخذ حصته من المحصول ، ولا يرسل احدا في طلب ذلك ، بل ينتظر حتى يأتيه فلاحه بنفسه بحصته .

كان هناك اخوان طاجيكيان يستأجران الارض منه هما يولداش ميرزا ومؤمن ميرزا . كان هذان الشخصان صديقين مخلصين لوالدي ، وكانا غالبا ما يقولان له :

— نحن نعمل الكثير ومن عام الى عام نزيد المحصول . ولكن العم بك لا يرفع حصته ، بل يكتفي بما نحمله له بانفسنا .

جذبت اراضي العم بك هذه اهتمام قرابك . فذهب بنفسه الى العم بك وسأله عن مدخوله السنوي من اراضيه . فاجابه العم بك انه يستلم اربعة آلاف تينغ كل عام .

طلب قرابك آنذاك السماح من الامير لكي يدفع للعم بك سنويا مبلغ اربعة آلاف تينغ من خزينة الدولة على ان تعتبر اراضي العم بك اراضي اميرية مقابل ذلك ، وتفرض عليها الضرائب .

انتهى الامر بأن هُجرت الارض بعد ثلاث سنوات . اما يولداش ميرزا ومؤمن ميرزا فقد اصبحا يدفعان ضرائب عن نمو النباتات الطفيلية عليها ، وعن حراثتها .

عيّن قرابك تقديرا لخدماته جابيا للضرائب في منطقة ضياء الدين في عام انتشار وباء الجدري . وكانت هذه المنطقة تزرع غالبا بالقطن والرز .

كان الناس يعملون في بيت قرابك مجانا ، فاوصى قرابك عند سفره منا خليفته ان يحافظ على هذا النظام . فكانت النصيحة هذه مقبولة بطبيعة الحال من لدنه .

كنا نركض نحن ابناء الفلاحين الى بيت قرابك ، عندما لم يكن عندنا ما نفعله ، لالقـــاء نظرة عليه . فكنا نجد الاسطوات ينقشون فى غرفه مختلف النقوش على الجص .

مات ابن قرابك فى نهاية خريف العام الثانى للجدرى فى قرية ضياء الدين . فامر قرابك اسطوات البناء باقامة قبر لابنه مـن الحجر المفخور المطعم بالجص .

وعندما قام البناؤون بعملهم كانوا يتكلمون فيما بينهم :

– ليتنا نسمع بموت قرابك نفسه فنبنى له بانفسنـــا قبرا اسود .

ولم يمض شهـــر واحد حتى شاع بين الناس هذا الخبر .

فقام البناؤون بتنفيذ وعدهم فبنوا بطوعهم قبرا له وشحوه بالسواد .

وكان الناس يقولون عن قرابك عندما ينظرون الى ذلك القبر الاسود كبيت اسخم محروق :

– لقد اراه الله غضبه . اسوداد قبره يشير الى فظاعـة النيران التى تحترق فيها روحه .

توقف بناء بيته بعد مماته . وتفرق البناؤون . وظلـــت الاحجار وحدها وقطع الرخام مبعثرة فى ارجاء بيته وباحته . واغلق جابى الضرائب فى غيشدوفان باب البيت بقفل كبير ، وسلـــم مفتاحه الى الخزينة الاميرية .

ثم ظل البيت قائما ، نصف مهدم ، حتى نشوب الثورة . اذ اجتاحه الناس بعدها فصادروا اخشابه واحجاره هاتفين :

– فلتحيا العدالة !

المطاردة الشعرية

بعد ان فقدت كل الآمال لاكمال دراستى برزت فجاة امكانية ان انتقل الى بخارى لادرس .

فى نهاية خريف عام ١٨٨٩ طلبت جدتى منى ان اسافر اليهـا مع اخوىّ لترانا قبل مماتها ، وكانت قد بلغت السبعين من عمرها وقد اخذ منها الكبر كل مأخذ .

عهدت بالخروفين الى اكرام خوجا ، ثم اغلقت الباب بالمفتاح . وركبت على الحمار واضعا اخى الصغير امامى ، واخى الآخر ورائى ، وتوجهنا الى قرية محلة بالا .

وصل من بخارى الى ملاّ عبد السلام ، وهو احد جيران بيت جدتى ، فى تلك الايام شريف جان وهو ابن المرحوم عبد الشكـر قاضى قضاة امارة بخارى .

كان ملاّ عبد السلام مساعد معلم يعمـل فى المدرسة التى يدرس فيها اخى . ولهذا فقد دعى ملاّ عبد السلام اخى الكبير اليه ليساعده فى الاهتمام بامر ضيوفـه . ولما علم باننى موجود عنـد جدتى استدعانى انا الآخر .

كان شريف جان قد وصل بيت مضيفه بصحبة اصدقائـه وخدمه . ودعى ضيوف آخرون على شرفـــه . وكان اخى يفرش السفرة فى الغرفة ويوزع الشاى على المدعوين . امـــا انا فقد جلست على المنصة العريضة المخصصة للجلوس ارقب السماوار وهو يغلى بالماء ، واحضر الشاى ، وارسلـه الى الضيوف . وفى الوقت الذى كنت اجلس فيه على المنصة امسح الابريق بخرقة خرج من الغرفة صبى وتقدم نحوى . كنا بعمر واحد ، ولكنـــه كان اكثر شحوبا ونحافة .

جلس على المنصة مكتئب الوجه وافصح :

– مولانا جلال الدين الرومى * قال :

لا تسافر الى القرية ، فالانسان يتبلد هناك
رؤياه تشحب ، عقله يترهل .

ثم اضاف متنهدا :

– اما انا فلم اسمع نصيحة مولانا وجئت الى القرية . مـا اضجر ما يدور حولى ، لا احد هنا تقضى الوقت معه . او تلعب معه على الاقل لعبة «بيت بارك» ** .

---

* شاعر عاش اعوام ١٢٠٧ – ١٢٧٢ ، كتب بالفارسية . مؤلف العمل الشهير «مثنوى المناوى» . **الناشر** .

** يقصد بها «المطاردة الشعرية» كما سيتضح . **المترجم** .

سألته :

– وما هو فحوى هذه اللعبة ؟

نظر الىّ دهشا :

– هل انت متعلم ؟

– تعلمت قليلا .

– هل تحفظ بعض الابيات غيبا ؟

– احفظ بعض الابيات .

– لعبة «بيت بارك» تتلخص فى ان اقرأ عليك بيتا من الشعر ، فترد علىّ ببيت آخر اول حرف منه هو آخر حرف من بيتى ، وهكذا . حتى يعجز احدنا عن الرد على الآخر . فيعتبر هو الخاسر . علما انه لا يجوز تكرار نفس البيت مرتين .

– هيا لنلعبها اذن .

قرأ بيتا ، فرددت عليه ، ثم رد بدوره علىّ . وظللنا هكذا مدة خمس عشرة دقيقة دون ان اتخلف عنه . كنت احفظ الكثير من الاشعار غيبا ، الا ان ذلك لا يكفى كما اتضح . اذ سرعان ما اصبحت اجد صعوبة فى الرد عليه . كان خصمى اقوى منى ، يعثر على البيت اللازم بسرعة مدهشة . شعرت ان له فى هذه اللعبة تجربة كبيرة ، وانه يعرف بضعة ابيات لكل حرف من الابجدية .

ولكننى لاحظت من طريقة لفظه الكلمات انه لا يفهم معنى الكثير مما يتلوه . واذ احسست بنقطة الضعف هذه بدأت احتال عليه . فقد رحت اقلب الابيات التى لا تنفعنى او استخدمها من منتصفها لاقدم الحرف المطلوب . كان معنى هذه الابيات يضيع غالبا ولكن خصمى لم يكن ينتبه لذلك .

وفى نهاية الامر قرأ علىّ بيتا ينتهى بحرف «چ» . كنت لا اعرف غير كلمتين تبدآن بهذا الحرف ، فحاولت ان اضع احداهما فى بداية احد الابيات الشعرية . ولكننى لم افعل ذلك بالسرعة المطلوبة ، اما خصمى فقد كان يشوش علىّ تفكيرى بصياحه :

– هيا ، اسرع ! رد علىّ او استسلم !

وفجأة هبط الالهام علىّ فى هذه اللحظة الحرجة فقرأت له :

جوجو موجو جوجو موجو جوجو موج
هذا الجوج بدايته جوج ونهايته جوج

ان كان بالامكان اعتبار هذين البيتين شعرا فانهما اذن اول ابيات شعرية لى .

اما خصمى فراح يناقشنى فى البداية مؤكدا ان الحرف الاول هنا ليس «چ» بل «جيم» . اصررت انا على ان هذه الكلمة تكتب بحرف «چ» . وفى ذخيلتى كنت اضحك اذ لم يكن اى معنى لهذين البيتين ، كما ان هذه الكلمة التى ذكرتها لا وجود لها . لحسن الحظ لم يستطع خصمى ان يفهم هذا .

خرج من البيت اثناء نقاشنا رجل اعور من خدم شريف جان . واذ استمع الى نقاشنا نصحنا :

– عليكما ان تسألا شريف جان فهو يستطيع اخباركما من منكما على صواب .

كتب خصمى هذين البيتين بقلم رصاص على ورقة ، وكان خطه جميلا جدا ، ثم دخل بجراة غرفة الاستقبال وعلى وجهه علائم من يثق بصواب رأيه . خرج بعد دقيقتين من هناك كدجاجة مبللة . تقدم منى وقال غاضبا :

– شريف جان يدعوك اليه .

فسألته بلهجة متواضعة :

– من منا اتضح على صواب ؟

ودون ان يرد بشىء كرر على مسمعى :

– اسرع ، شريف جان يدعوك اليه .

ولكننى لم اتحرك من مكانى . كيف يمكن ان اذهب بملابسى القذرة الممزقة الى شخص من اهل المدينة اعتاد على الاحترام ، بل ان خدمه كانوا يلبسون الملابس النظيفة !

خرج اخى بعد دقيقة ، وقال :

– لا تخجل . وتعال عندما ينادونك .

دخلت الغرفة ، وتوقفت فى مدخلها . ثم القيت عليهم السلام .

كانت الغرفة ملأى بالناس . اغلبهم كانوا بعمائم بيضاء . وكان هناك شيوخ ايضا . وفى مكان الصدارة كان يجلس شاب له من العمر خمسة وعشرون عاما تقريبا ، بوجه ابيض وشعر اكرت . كان ذلك الشاب هو شريف جان .

نظر الىّ بانتباه ، ثم سألنى :

– ما اسمك ؟

– صدر الدين .

– حسنا جدا . هل انت من لعب بالشعر مع ميرزا عبد الواحد ؟

خفضت راسى مؤكدا . ولكننى لم افه بشىء .

فقال هو :

– كنت على صواب . «چوچ» تكتب بحرف «چ» وليس بحرف «جيم» .

ثم اضاف :

– هل تريد ان تسافر الى بخارى لتدرس فيها ؟

احنيت راسى ، ولم افه بشىء . ولكنى شعرت بقلبى يعتصر عندما فكرت انه لا امكانية لى لادرس . فطفرت الدموع من عينى .

فتكلم اخى آنذاك :

– لقد مات والدانا . ولنا اخوان صغيران . وهو الوحيد الذى يستطيع ان يسهر عليهما . ولهذا فانه لا يستطيع ان يدرس .

– رغم ذلك يجب ان يعلّم . يبدو ان له قابلية جيدة . اذ من الصعب التغلب على هذا الالمعى فى المطاردة الشعرية .

كان شريف جان قد اشار الى ميرزا عبد الواحد اثناء حديثه . وتدخل فى الحديث صاحب البيت عبد السلام :

– ساحاول ان ادفعه للسفر !

ثم نظر الىّ واضاف :

– اذهب واسرع بغلى الماء فى السماوار .

خرجت .

صب هذا الحديث فى روحى فرحا لا يوصف ، طغى على كل ما حولى . لقد فرحت لان شريف جان قد اكد صحة ما ذهبت اليه رغم وثوقى الكامل بما قلته . وفرحت لانه لم يكشف سر احتيالى على ميرزا عبد الواحد . اما اذا اكتشفه فقد فرحت لانه لم يخذلنى ويفضحنى امام الناس . وفرحت لان كل العوائق التى كانت تعترض طريق سفرى قد انهارت بعد هذا الحديث ، فقررت بصلابة ان اتغلب على كل الصعاب واسافر الى بخارى .

سافر الضيوف بعد يومين .

وتوجهت الى اخى ومعلمه التمس منهما بقوة ان يعيناني على تحقيق هدفى .

وفى نهاية الامر تم اتخاذ قرار بابقاء اخوىّ عند جدتى والحاقى مع محى الدين باحدى مدارس بخارى .

وقال ملاّ عبد السلام :

– لا بأس ، سيدبر امره فى مدرسته بشكل ما . فقد وعدنا الرجل ان نعينه فى هذا الامر . يجب ارساله الى بخارى .

ثم عرفت فيما بعد ان شريف جان هذا هو نفس الشاعر الذى كتب مذكرات شعرية .

اما ميرزا عبد الواحد فقد اصبح صديقى المقرب منذ يوم المطاردة الشعرية وحتى آخر يوم فى حياته .

التهيؤ للسفر الى بخارى

على عادة تلك الايام كان علينا قبل السفر الى بخارى ان نحيى ذكر الاموات من اهالينا ونقوم بختان اخوينا الصغيرين . اما اذا اهملنا هذا الامر فكنا نعتبر مرتدين جاحدين . الا انه كان يتوجب امتلاك الكثير من النقود لاقامة هذه الطقوس .

فكرنا بهذه المسالة ، انا واخى ، كثيرا ، وتشاورنا كثيرا ، ولكننا لم نستطع ان نفعل شيئا .

وبعد تفكير طويل قررت ان ابيع البيت الذى تركه لنا والدى فى محلة بالا ، وانفاق النقود على تادية واجباتنا . وقلت :

– هذا البيت لا نحتاجه . اذ لن نعود ابدا الى هذا المكان . فاذا لم نبعه فى حياة جدى وجدتى يختطفه منا احد المحتالين .

وافقنى اخى الراى .

ثم بعنا البيت فى الحال وسافرنا الى ساكتاره .

اقمنا هناك ذكرا لروحىّ والدينا ، وفى اليوم التالى احتفلنا بختان اخوينا .

وعندما شفيا بعت الخروفين وخطت لاخوىّ ولى بعض الملابس . وبقى لى بعد هذا كله خمسة تينغات ، فاخذتها معى لمصروفى .

ابقيت لاخوىّ القسم الاكبر من التوت والمشمش الجاف ثم اخذت الباقى لى .

وكذلك اخذت من البطانيات والوسائد ما يصلح لى ولاخوىّ . اما ما بقى منها فقد تركتها فى البيت مع بعض الاوانى الفخارية وطست الغسل .

بقى لنا من والدى قدر وابريق كبير للزيت كان والدى يستعملهما عندما عاش فى المدرسة . قررّت ان آخذهما معى .

اما الحمار فقد باعه اخى . واما خيبر فقد ارجعناه الى الراعى الذى اخذناه منه جروا وله من العمر ستة اشهر .

ثم نقلت اخوىّ مع كل حوائجهما الى محلة بالا حيث يقطن جدى وجدتى .

وهكذا اصبحت جاهزا للسفر الى بخارى .

تموت مرارا







١

كان العرف السائد فى بخارى أن ليس بمقدور احد طلب العلم فى احدى مدارسها من غير ان يحصل اولا على حجرة فيها . وهكذا فقد هدد الضياع دراستى نفسها عندما فقدت مأوای عام ١٨٩٥ او ما قاربه .

لم يكن العثور على حجرة فى بخارى بالامر السهل رغم ان المدينة كانت حاوية على حوالى مئه مدرسة كبيرة ، ومثلهـــا من المدارس الصغيرة ، فالحجرات * كانت من املاك الاوقاف وهذه ، كما تقتضى الشريعة ، لا تباع ولا تشترى . الا ان ذوى الشان كانوا يجدون مختلف الطرق «المشروعة» لترتيب امور بيعها وشرائها ، مطلقين على ذلك السماح الخاص ما كان يسمى بـ«الفتوى» . وهكذا فقد انتقلت الحجرات تدريجيا فى كل المدارس الى ايدى الاغنياء ، اما طلاب العلم الفقراء من امثالى فقد اصبح امر عثورهم على حجرة ، وبالتالى امكانية الدرس فى هذه المدارس ، من الامور الصعبة عليهم تماما .

واذ عرف احد اصدقائى بما آل اليه وضعى قال لى :

---

* حجرة ، مدرسة ، وقف ، وغيرها . . وردت فى النص باصلها العربى كما سترد كلمات اخرى كثيرة . **المترجم** .

– هناك شخص فى بخارى اسمه كورى اشكامبه عنده بضعة حجرات ولعله يؤجر واحدة لك .

كان الاسم الغريب الذى ذكره صاحبى يثير الفضول اكثر من الامل بامكانية الحصول على حجرة عنده .

نعم ، كان الاسم مدهشا للغاية . فكلمة «اشكامبه» كانت تعنى «معدة» الحيوانات المجترة ، المكان الذى يستوعب العلف المبتلع قبل الهرس . ولم اكن قد سمعت من قبل مطلقا بمثل هذه الاسم يطلق على انسان !

فما هو السبب يا ترى لاطلاق مثل هذه الكنية المهينة عليه ؟

ولقد استفسرت من صديقى لكى يوضح لى هذا الامر فقال :

– اسمه الحقيقى هو كورى عصمت . وفى البداية اضافوا اسمه «اشكامبه» بسبب بطنه الكبير . ومع مرور الزمن اهمل الناس اسمه الحقيقى وراحوا يطلقون عليه كورى اشكامبه ، ولما كانت الكنية اكثر التصاقا بالاسم من غيرها فقد اعتاد الناس على تسميته الجديدة ونسوا اسمه القديم .

فاعقبت :

– لا ينتظر خير فى الغالب من شخص يحمل مثل هذه الكنية ، ولكن رغم هذا عرّفنى به لأسأله ان يؤجرنى حجرة ، وبعد هذا ليكن ما يكون فالمثل يقول : قد ينفع الديم اذا لم ينفع السيح . واذا رفض تأجيرى حجرة القى نظرة فى الاقل على شخص يحمل كنية كهذه !

فقال صاحبى :

– اننى لا اعرفه عن قرب ولهذا لن استطيع تقديمك اليه . ولكنى ساريك اياه فى الشارع فهو غالبا ما يصادفنى فيه ، واما انت فعليك ان تجد فرصة للتعرف عليه ومفاتحته فى موضوع السكن .

على هذا استقر قرارنا .

٢

فى احد الايام كنت اتمشى وصاحبى بالقرب من حوض «ديوان بيكى» ، المكان الوحيد فى بخارى الذى يمكن ان يرتاح المرء عنده . واذا بصاحبى يتوقف فجأة مشيرا لى بيده نحو شخص يدخل دكان الحلاق :

– هذا هو . هذا هو كورى اشكامبه !

واستطعت ان الحظ حسب ظهر ذلك الشخص الذى يحمل تلك الكنية الغريبة «المعدة» . فقلت لصاحبى :

– سامكث هنا ريثما ينتهى كورى اشكامبه من حلاقته ليتسنى لى ان اتفحصه كما ينبغى واذا توفرت لى فرصة مناسبة للتعرف عليه فاتحته فى موضوع الحجرة .

مضى صاحبى فى طريقه اما انا فاتخذت لى مقعدا قرب دكان الحلاق ورحت انظر نحو كورى اشكامبه محاولا ان لا الفت الانتباه .

كان الرجل متوسط القامة له بطن لا مثيل لكبرها . فعلا ، لم ار فى حياتى عند بدين ما يضاهيها مطلقا . كان جسده المترهل الدهين ورقبته الغليظة القصيرة يتناسبان تماما مع بطنه الهائل . وكانت هناك لحية طويلة تتدلى من وجهه العريض الملتحم ، كثيفة ، شائكة ، كأنها دغل من الاعشاب .

ولقد فكرت هنا : ماذا لو حلق كورى اشكامبه لحيته هذه ؟ لكان اصبح بالفعل شبيها بمعدة كبيرة منتزعة من بعير مسلوخ ، وما كان ليميزه عنها شىء الا حجمه الكبير ولونه الذى كان يذكر بلون بشرة من اصابته حكة بعير !

ومن يدرى ، لعلهم اطلقوا عليه «اشكامبه» ليس فقط لكبر بطنه بل لانه بالذات يشبه المعدة من راسه حتى اخمص قدميه .

وجاء دور كورى اشكامبه ليحلق شعره فقال له الحلاق وهو يشحذ موساه على حجر السن :

– تفضل ، اجلس على الكرسى .

ونهض كورى اشكامبه بتثاقل واعياء اما لعجزه فى رفع جسده الثقيل او ربما لانه كان يعانى من مرض ما ، فخلع عن راسه عمامته ثم حاول تعليقها على المشجب الخشبى فوق مناشف الحلاق ، ولكن

الاسطة اسرع فالقى الموسى والمسن على رف امام المرآة وتناول منه بيديه الاثنتين العمامة ، ثم وضعها على مقعد كبير فى زاوية الدكان ، قائلا بلهجة مرحة :

– عمامتك تكاد تقارب البود * فى وزنها ، ولو نعلقها على هذا المشجب لربما ينكسر فتسقط المناشف على الارض وتتسخ .

لم يكن بامكان ذلك المشجب ان ينكسر فى الواقع تحت ثقل عمامة كورى اشكامبه والتى كانت كبيرة فعلا الى درجة لا تصدق ، اكبر مرتين من عمامة اى ملا فى بخارى ! ولكن الاسطة كان يخشى حسب ان تلوث تلك العمامة مناشفه ، فقد كان الغبار متراكما فى ثناياها وقد تحول الى قذارة لزجة حتى ان المرء ليخال ان كورى اشكامبه قد لف على راسه لا قطعة قماش بل خرقة لغسل القدور .

واجاب كورى اشكامبه على الحلاق :

– حسنا فعلت بالاهتمام بمناشفك والمحافظة فى نفس الوقت على عمامتى . فلو انكسر المشجب لتعفرت عمامتى ايضا ولاصبت بخسارة فادحة فان غسلها سيكلفنى على الاقل خمسة زولوتنيكات ** من الصابون !

واعقب الحلاق :

– ما هذا الذى تقوله ؟ عمامتك تخشى الغبار ! وهى التى لم تر الغسل فى اجانة منذ دهر طويل ، الحق يقال انها اوسخ من هذه الارض التى نقف عليها .

فاعترض كورى اشكامبه :

– اتعتقد ان من السهل غسل مثل هذه العمامة الكبيرة فى الاجانة كل اسبوع ؟ ذلك يعنى الافلاس على الصابون خلال فترة قصيرة .

– ما الذى لا يجعلك اذن تلف عمامة اصغر ، كنت اقتصدت بالقماش والغسل وجمعت لك ثروة من الاقتصاد فى نفقات الصابون !

---

* البود يساوى ١٦,٣٨ كيلوغراما . **المترجم** .

** زولوتنيك : وحدة وزن فى روسيا القديمة تساوى ٤ غرامات وربع غرام . **المترجم** .

فاجاب كورى اشكامبه دون ظل لابتسامة :

– آخ ، ما الذى تفهمه يا هذا ! عمامتى ليست مثل كل العمامات . انها تعيننى فى الحصول على طعام جيد فى الاعراس وعلى قطعة قماش اكبر فى المآتم . فعندما اظهر بمثل هذه العمامة فى المآتم يعطوننى ارشينين * بازه او بَفتة ، اما الاخرون فيعطون ارشينا واحدا . واما فى الاعراس فيوضع امامى طبق كبير يملأ بادسم رز واكثر لحمة .

لم ينقطع الاسطة عن شحذ موساه على حجر السن وهو يتكلم ، واذ انتهى من شحذها جيدا توجه الى راس كورى اشكامبه فلف رقبته بفوطة وتهيأ لحلاقته :

– من لا يعرفك لا يدعوك لا لعرس ولا لماتم . اما من يعرفك فيعاملك كما يجد ذلك مناسبا دون اهتمام لحجم عمامتك ، فلماذا اذن اضاعة متر زائد من القماش ؟

– ما اشد سذاجتك يا اخ ! اننى لو اكتفى بما اتلقاه من هبات فى تلك المآتم التى ادعى اليها لما استطعت حتى ان ادفع لك ثمن حلاقة راسى ! وهكذا فاننى اؤدى صلاة الظهر فى جامع ديوان بيكى ، ومن هناك ارافق حتى القبر اى مرحوم يؤتى به الى الجامع لاحصل على قسمتى ونصيبى من اهله .

فقال الحلاق ضاحكا وهو يبلل راس كورى اشكامبه بالماء ويدعكه :

– ولكنك لا تصرف الكثير على حلاقتك لتقلق بشان المال . الناس عادة يحلقون مرتين فى الاسبوع ، اما انت فمرة واحدة كل شهرين ومع ذلك لا تدفع الا نصف الاجرة .

اجبرتنى هذه الكلمات ان انظر نحو راس كورى اشكامبه متفحصا متمعنا ، كان شعره قد نمى فعلا كما ينمو على رؤوس المساجين فى المحبس الاميرى ، وقد تشعث على جبينه وعند صدغيه وقفاه واتصل بلحيته ، واما قمة راسه فقد كانت قرعاء بمساحة كف اليد .

---

* الارشين : مقياس طول روسى قديم يساوى ٧١ سنتيمترا . **المترجم** .

يبدو ان ملاحظة الحلاق قد اصابت موضعا موجعا عند كورى اشكامبه اذ انتزع هذا راسه من بين يدى الحلاق وغرز نظرته فى عينيه قائلا بصوت مشوب بالانفعال :

– اذا كنت احلق راسى مرة واحدة فى اسبوع او فى شهرين فهذا شأنى وحدى ، واذا كان شعرى قصيرا او طويلا فانك فى كل الاحوال تمرر الموسى على راسى لا اكثر من مرة واحدة اذ انك لا تحتاج الى اعادة تمريره اذا كان الشعر اطول قليلا . اما لماذ ادفع اقل من الاخرين فلأن راسى نصفه صلعة ولا موجب لزعلك فى هذا الامر مادمت لا تشتغل على راسى فى هذا المكان . . يجب ان تضع هذه الحقيقة نصب عينيك !

يبدو ان الاسطة اراد تهدئة كورى اشكامبه اذ قال له :

– لقد كنت امزح معك . وسواء كنت تعطينى القليل ام الكثير فذلك يكفينى ، اتقبله شاكرا واعتبره جالبا للبركة .

رفع الحلاق الفوطة عن رقبة كورى اشكامبه وقد انتهى من حلاقة راسه ، ونفض الشعر عنها فى الصندوق المجاور له . ولما اراد ربطها ثانية حول رقبته ليمسح عن جلدة راسه ما تبقى عليها من وساخة استوقفه كورى اشكامبه بحركة من يده :

– لا داعى لذلك . عدّل لى شاربى وفى هذا الكفاية فاننى فى عجلة من امرى !

فسأل الاسطة :

– يبدو انك تتعجل الذهاب لمأتم احدهم .

فاعترض كورى اشكامبه دون ان يفهم السخرية الكامنة فى كلمات الحلاق وهو يلقى نظرة خاطفة على الساعة الجدارية :

– كلا . واذا حدث ان استطعت اليوم حضور احد المآتم فلن يكون ذلك قبل الظهر ، اما الآن فعقارب الساعة تشير الى العاشرة حسب .

– ما هو هذا الامر المستعجل اذن ؟ ام انك تنوى الذهاب الى احد الاعراس من غيرما دعوة !

لم ينتبه كورى اشكامبه لفحوى هذه السخرية ايضا . وقال بجد وهدوء :

– القضية انهم يفطرون الآن فى المصرف ، واذا تاخرت فذلك يعنى ان شرب شاى لذيذ حلو سيفوتنى .

اصابنى كل ذلك الحديث بحالة غريبة من عدم الفهم ورحت افكر «هذا الرجل يمتلك بضعة حجرات فى المدارس فلماذا يقتر هذا التقتير الشديد على نفسه ويستكثر عليها حتى اجرة الحلاقة ؟ لماذا يتعيش على الهبات ويحرص حتى على ما يوزعون فى مآتم الناس الغرباء ؟ اما اذا كان فقيرا وصاحبى مزح معى بقوله انه يمتلك الحجرات فكيف فى هذا الحال يستطيع كورى اشكامبه ان يكون له معارف بين مستخدمى المصرف ، بل انه يزورهم لشرب الشاى معهم ؟ . . لا بأس فى ذلك ، وحتى اذا كان صاحبى قد اراد ان يلعب معى فاننى وقعت على نموذج لا يفوّت ، لان تفحص هذا الانسان والتعرف على مسلكه والاستماع الى اقواله لهو امر على غاية من الامتاع ، فهو اذن لقية حقيقية بالنسبة لى ، انا الذى اهوى استكناه النفوس الغريبة . وليس مصيبة ان لم تكن عنده حجرات ، او انها فى حوزته ولا يريد تأجيرها لى ، فهو بحد ذاته يستقطب منى اهتماما فائقا ، لارقبـــه واتفحصه جيدا علّى اعرف كنه هذا الانسان ، والحديث عن السكن لهو افضل حجة للتعرف عليه .

كاد صبر كورى اشكامبه ينفد بانتظار ان يفرغ الاسطه من تعديل شاربه ، وما ان خلع الحلاق الفوطة عن رقبته حتى هب بجسده السمين من المقعد وهو ينخر من انفه الانفاس الثقيلة . اختطف عمامته ووضعها على راســـه ، ثم خرج مسرعا . . فصاح الحلاق وراءه :

– اى ! عم كورى ! والاجرة ؟ . .

الا ان كورى اشكامبه لم يتوقف بل اعلن وهو ماض :

– فى المرة القادمة ادفع لحلاقتين مرة واحدة .

ثم اختفى بين الزحام بسرعة بحيث جعلنى أؤجل مسألة التعرف عليه الى وقت آخر .

ولقد تمشيت من بعد امام الدكاكين طويلا ، الا انه لم يتح لى الالتقاء به .

٣

فى اليوم التالى ، بعد ان رايت كورى اشكامبه فى دكان الحلاق ، قررت ان ابحث عنه وان اتعرف عليه بالتاكيد . سرت بحذاء حوض ديوان بيكى حتى وصلت شارع تجار القماش الممتد من الحوض وجامع ديوان بيكى باتجاه الشرق ، وبعد ان بحثت فيه جيدا ولم اجد من ابحث عنه توغلت ابعد حتى دكاكين باعة الفرفورى التى كانت تمتد من نهاية شارع تجار القماش باتجاه الشمال .

ولم اكد اخطو عشر خطوات حتى رايت كورى اشكامبه ، كان يجلس على مقعد بالقرب من مدخل دكان بائع فرفورى . واصلت سيرى مسافة صغيرة ثم رحت اجلس امام دكان مغلق فى الجهة الثانية من الشارع ، ومن غير ان الفت انتباه احد ، تطلعت الى كورى اشكامبه فاحصا كل حركة من حركاته وكفط يرقب فأرا .

كان السمين وصاحب الدكان يشربان الشاى فيما مر بالقرب منهما بائع ارغفة يحمل سلتين احدهما على راسه والاخرى بين يديه . كان بائع الارغفة يصيح مناديا المشترين :

– حار ، حار ، يحرق اليدين ! من سكر مصنوع لا من طحين ، بالسمن معجون لا بالماء ، من لا يشترى يفوته ، والندم من بعد لا ينفع ! نادى كورى اشكامبه عليه ، اختار من سلته رغيفين ومن غير ان يساله عن السعر او يتماحك معه بسببه وضعهما على مهشة الذباب الممددة امام صاحب الدكان ، ثم اخذ يتظاهر بعد ذلك باخراج النقود من جيبه والبحث عنها فيه ، الا انه اخرج يده فارغة ومن غير اضطراب مد يده فكسر رغيفا قائلا لبائع الفرفورى :

– ايه يا اخ ، اتضح ان جيبى يخلو من فئات النقود الصغيرة .

اعمل لى معروفا وادفع عنى ثمن الرغيفين !

ومن غير ان ينتظر ردا راح ياكل فيهما .

تخشب بائع الفرفورى من الدهشة ، وراح ينظر مرة الى كورى اشكامبه ومرة الى الرغيفين بين يديه ، ثم ثاب الى رشده اخيرا واستفسر من بائع الارغفة عن ثمنهما ، وبعد ان حك قفاه مد يده الى صندوق النقود واطلق سراح بائع الارغفة .

اما كورى اشكامبه فقد كان يبدو وكان الامر لا يهمه ، كانت نظرته متجهة الى مهشة الذباب . يقتطع من الرغيفين ويعب منهما فمه عبا . فهم بائع الفرفورى ان كورى اشكامبه لا ينوى ان يقترح عليه مشاركته فى الاكل وسرعان ما ستختفى الرغيفان من امام ناظريه تماما . وهكذا فقد تناول قطعة ورص بها الى جوفه بسرعة لا حقا اياها برشفة من الشاى ، ولما راى كورى اشكامبه هذا اخذ يزحم فمه بالرغيف بحيث لم يكن بمستطاعه التلفظ كلمة واحدة ، ثم اشار بيده الى بائع الفرفورى ان يشرب شايه بسرعة كى يصب له الشاى ، فقد كان المسكين لا يستطيع ابتلاع الاكل المحصور فى بلعومه من غيره . وفى الوقت الذى كان فيه كورى اشكامبه يشير الى براد الشاى بيد كان قد وضع يده الاخرى على آخر قطعة من الرغيف بقيت على مهشة الذباب خشية ان تكون فى متناول يد صاحبه .

شرب البائع شايه البارد جرعة واحدة ثم صب لكورى اشكامبه الشاى من البراد ، وراح يبتسم هازئا وهو يمد يده اليه بقدح الشاى مراقبا كيف يبتلع كورى اشكامبه ما تبقى من الرغيف ، فتناول هذا منه قدح الشاى ونفخ عليه ثم اخذ رشفة صغيرة ، ثم بصعوبة بالغة استطاع ابتلاعها وادخالها الى جوفه . وما ان فرغ فمه لحظة حتى دفع بآخر قطعة من الرغيف اليه ، اكمل شرب شايه ثم ترك القدح جانبا ونهض من مكانه . ومن غير ان يلفظ كلمة واحدة تحول الى الطريق ومضى فيها .

اما انا فقد سرت فى اثره .

ولم اكد اخطو عشرين خطوة حتى رايت كورى اشكامبه يجلس من جديد ، عند دكان بائع صناديق هذه المرة . وللاسف لم يكن بالقرب من هذا الدكان مكانا مناسبا للمراقبة فاضطررت الى الابتعاد قليلا . ومن زاويتى عينىّ رايت صاحب الدكان يجلس فى مؤخرة دكانه وقد امال حاسبته * الى جانب ، يبدو انه وضع امامه شيئا

---

* الحاسبة : تصنع من خرزات خشبية للمساعدة فى اجراء بعض العمليات الحسابية البسيطة وعندما توضع بهذا الشكل فهو ايذان بالانقطاع عن العمل فترة . **المترجم** .

ما لياكل ، هكذا كان قد عزل نفســـــه عن المارة ليتناول فطوره براحة . ولكن ، اكان بالامكان اخفاء طعام عن عينى كورى اشكامبه الحادتين مثل عينى الزاغ !

جاس كورى اشكامبه على عتبة الدكان من غير تردد ومد يده عبر الحاسبة مشاركا فى فطور الرجل رغم كل تحوطاته .

لم استمع الى حديثهما وكيف وعمّ كان يدور الا اننى لا اشك فى ان وقتا قليلا جدا قد صرف على الحديث ، لان كورى اشكامبه كان ممتلئا طيلة فترة جلوسه بالطعام . ولا اعتقد اننى اخطأت بهذا الشأن ، اذ ما ان بسط صاحب الدكان حاسبته الى جانبه حتى نهض كورى اشكامبه وسار فى طريقه .

* * *

دخل كورى اشكامبه سوقا مسقفا وسار بين صفى دكاكين . كانوا يتاجرون هنا عادة بالطاقيات والاقمشة الحريرية . وهكذا انعطفت بدورى نحو هذا المكان واسرعت الخطى كيلا اتاخر عن كورى اشكامبه الذى وجدته يتوقف عند دكان بائع طاقيات سائلا :

– واذن ، هل بعت طاقياتى ؟

هذا السؤال جعلنى اتخبط فى حيرتى اكثر من ذى قبل ! فهذا الانسان الذى يتشبث بالحصول على قطع القماش مثل المتسولين من مآتم الناس الغرباء ، والذى يفرض نفسه فى الاعراس من اجل الحصول على قصعة الرز باللحمة ، والذى يقيم العلاقات الحميمة مع مستخدمى المصرف ، اتضح انه الآن بين خياط طاقيات ومتاجر فيها ! كانت رغبتى للاستماع الى حديثه كبيرة انستنى حذرى فتقدمت منه اكثر وتوقفت وراء ظهره فيما جاءه رد بائع الطاقيات :

– كلا ، لم ابعها .

نظر كورى اشكامبه نحو البائع متشككا :

– قد بعتها وانزلت اثمانها الى الشغل ؟

اجاب البائع منفعلا وهو ينحنى ويخرج من احد الرفوف المغطاة بستارة مجموعة من الطاقيات مطبقة الى بعض :

– اوخ ! ما اكثر شكك يا عم كورى !

ثم وضع البضاعة امام كورى اشكامبه متسائلا :

– اليست هذه هى طاقياتك ؟

واذ اعترف كورى اشكامبه بذلك دفع البائع الطاقيات نحوه معلنا :

– خذها ! لا اريد ان اتحمل كلاما مهينا او لوما بدل الشكر على المعروف الذى اصنعه معك !

راح كورى اشكامبه بعد ذلك مباشرة يعتذر ويلتمس :

– ماذا دهاك وماذا اصابك ؟ اننى اثق بك . ولقد كنت امزح معك لا غير ، وها انت تتصور المزاح جدا ، بل وتزعل ايضا !

فقال البائع بلهجة اهدأ وقد برد غضبه كما يبدو :

– اوخ ، وما فائدة الغضب معك ، وهل هى المرة الاولى التى اسمع فيها مثل هذا المزاح منك !

فاستغل كورى اشكامبه هذا فى الحال هاتفا :

– هذا بديع ، ولنترك المزاح جانبا . اسمع يا عزيزى ، اننى اليوم فى امس الحاجة الى نقود ، فهلا ساعدتنى بالدفع عـــن طاقياتى مقدما ؟ . . نصف القيمة على الاقل ان لم يكن كلها ، وعلىّ ان ادعو لك بالتوفيق لك ولاولادك .

– ها انت تمزح مرة اخرى . اما اذا كان كلامك جادا فهذا لا يناسبنى .

فرسم كورى اشكامبه الدهشة على وجهه :

– ولماذا ؟

– لانك نفسك تطلب منى ان ابيع طاقياتك بالمفرد وبسعر عال للنازلين الى المدينة . وما دمت ابيعها بالمفرد فان عملية بيعها لن تتم بين عشية وضحاها . وهكذا ، فكيف تريد منى ان اضيع رأسمالى على بضاعتك ؟ ما ربحى منها وما الذى اكسبه من بيعها ! وبعد ذلك كيف تريدنى ادفع ايجار الدكان ، ومن اين اصرف على بيتى ومعيشتى ، ومن اى مدخول استطيع التخلص من دينى لك وانت الذى تأخذ افحش ربا عليه !

وصمت البائع برهة يلتقط انفاسه . ثم اضاف :

– لنتفق هكذا . . اما ان لا تحسب على دينى لك ربحا مدة شهر ، او ترضى ان تترك لى طاقياتك بسعر الجملة ، فى هذه الحالة

استطيع ان ادفع لك قيمة بضاعتك كلها نقدا الآن . ماذا تقول ؟ موافق ؟

قال كورى اشكامبه :

– كلا . هذا لا يناسبنى .

لم يجر الحديث على هواه فاستعد للمغادرة ، وهتف البائع متحاملا عليه :

– ما الداعى للعجلة ؟ اجلس قليلا لاوصى لك على قورى شاى من ثمن طاقياتك .

فرد كورى اشكامبه عليه :

– لا ، اشكرك . حان وقت ذهابى الى المصرف ، هناك ساشرب الشاى .

واضاف متهكما ساخرا :

– الشاى الذى تريد التوصية عليه من ثمن طاقياتى لا يروى عطشى ولا عطشك !

وعندما مضى كورى اشكامبه وقعت نظرة بائع الطاقيات على . فسالنى :

– هل انت بحاجة لشىء ؟

فرددت وقد صعب على ان اشرح لم كنت طيلة ذلك الوقت اقف خلف كورى اشكامبه :

– اريد شراء طاقية .

وما ان سمع كورى اشكامبه هذا حتى استدار الى البائع وترجاه :

– اره طاقياتى ربما تعجبه واحدة منها فيكون الشراء امامى واستلم الثمن الآن ، اننى فى اشد الحاجة اليه والله !

مد لى البائع مجموعة طاقيات كورى اشكامبه قائلا :

– اختر من هذه !

لم اكن متهيئا لشراء طاقية ولذلك نظرت اليها بحيرة . ثم اخترت واحدة منها كما اتفق وسألت عن السعر فاجاب البائع :

– خمس تينغات .

فقلت وانا ارجع له الطاقيات كلها :

– اثنان .

وكنت افكر فى نفسى «ماذا لو وافق البائع فجاة على هذا السعر وانا الذى يخلو جيبى من النقود ؟ فكيف ساعتذر عن الشراء ؟» وغرقت فى عرقى مع هذه الفكرة . وتدخل كورى اشكامبه فى المعاملة :

–حكمّ ضميرك يا اخ ! فسعر قماش الطاقية وحده اربع تينغات ! اضف له سعر الخياطة . . اوخ ، لنترك سعر الخياطة هدية لك ، اربع تينغات ، هيا . .

لم ارد على كلمات كورى اشكامبه وكانى لم اسمعها .

تناول البائع – المجرب الذى يعرف المشترى الحقيقى من غيره – الطاقيات من يدى ووضعها وراء الستارة قائلا لكورى اشكامبه :

– عبثا تامل من بيعها شيئا ياعم كورى فان هذا الفتى لن يشتريها .

واذ تاكد كورى اشكامبه من اننى لن اشترى طاقية واصل سيره فى طريقه . فسرت بدورى فى اثره .

* * *

خرج كورى اشكامبه الى الشارع المؤدى الى سوق البقالين وتوقف مرة اخرى عند احد الدكاين . اقتفيت اثره مجددا متظاهرا اننى اعتزم شراء حاجة ما .

حيا كورى البقال وبادره قائلا :

– اعطنى قطعة غولقند * وسجلها دينا على احفاد احفادى .

ابتسم البقال ورفع غطاء اناء نحاسى كبير كان امامه . ثم تناول ازميلا حديديا واقتطع من القند قطعة بحجم الجوزة ، ومد بهايده الى كورى اشكامبه . اخذ كورى قطعة القند ودفع بها الى فمه وراح يمتصها . ثم قال :

يبدو ان حفيد حفيدى صغير ! التصق الغولقند باسنانى ثم ذاب فى حلقى دون ان يصل منه شىء الى جوفى .

– دكانى صغير وراسمالى متواضع وبضاعتى قليلة لا اقبال

---

* دواء شعبى استخدمه الناس لمعالجة امراض المعدة . **المترجم** .

عليها ، لذا فانا معدم . فى مكان مثل هذا لا يشب الاحفاد بسرعة ولا يبلغون سن النضج فى وقت قصير .

– طيب ، اذن اعطنى قطعة قند اخرى لا على حساب احفادى بل لوجه الله ، والا فان معدتى لم تعد تتقبل الاكل . وعبثا احاول ارجاع شهيتى التى فقدتها ! اعطنى وسوف ابتهل الى الله ان يمن عليك برؤية عرس اولادك .

فتاوه البقال :

– الحمد لله ان معدتك عافت الاكل والا لابتلعت العالم كله دون مضغ !

قال البقال ذلك بحرقة ولكنه اقتطع لاشكامبه قطعة اخرى من القند .

يبدو ان البقال حسبنى من جماعة كورى اشكامبه فلم يبادرنى بكلام ولم يسأل عما اريد ، بيد ان كورى اشكامبه ذاته راح يتاملنى فجأة من قمة راسى الى اخمص قدمى بنظرات نافذة وسألنى وهو يمضغ القند :

– هل لك معى شغلة يا اخ ؟

يجب الاعتراف ان الاضطراب استولى على ، وبدل الافصاح عن رغبتى لاستئجار حجرة منه قلت ، رغما عنى ، ما كنت قد اعددته فى حالة توجه البقال الى بالسؤال :

– اريد شراء فلفل اسود !

كان من الطبيعى ان يبدو هذا الجواب اخرق بالنسبة اليه ، فابتسم كورى اشكامبه ساخرا وهو ما يزال ينظر نحوى . ورحت انا امد يدى الى جيبى بغية ان اشترى قليلا من الفلفل لاهرب بعد ذلك واتخلص من هذه الورطة ، الا ان جيبى وكانما يعاندنى خلا من كل قرش اسود . فقلت للبقال وقد غرقت فى عرقى من العار والشنار :

– المعذرة لقد نسيت نقودى ، ساذهب للاتيان بها ومن ثم اشترى الفلفل .

ثم رميت بنظرة الى كورى اشكامبه وانا اتعجل الذهاب فوجدت شفته السفلى وقد برزت وتهدلت وهو يهز راسه هزة ذات معنى ويقول للبقال شيئا لم استطع تبينه بوضوح .

• • •

وهكذا ضاع ذلك اليوم ايضا دون اصطياد شىء ، افزعت الطريدة بنفسى ففقدتها والى الابد كما يبدو ، لقد فهم كورى اشكامبه اننى لم اكن انوى شراء لا طاقية ولا فلفل بل اننى كنت اتظاهر ذلك فى كلا الحالتين . والآن علىّ ان ابعد عن تفكيرى امكانية التعرف عليه فى الشارع .

لقد كانت هفوة لا تغتفر ، كان علىّ ان ارد بالايجاب على سؤاله حسب للانتقال الى الحديث عن مطلبى ومسعاى ، لفهم انذاك لِمَ كنت اتقفّى خطاه ، وفى حالة رفضه تاجيرى حجرته ، كنت على الاقل تعرفت عن كثب على حياة هذا الانسان الغريب وطريقة معيشته لقد اسفت على فقدانى امكانية تتبعه ومراقبته اكثر من اسفى على فقدان الامل بالحصول على حجرة منه .

الا ان اوان التحسر والندم قد فات الآن اذ لم يكن فى مستطاعى تغيير شىء مما حدث .

ورغم ذلك بقيت متفائلا من اننى ، عاجلا ام آجلا ، سوف استطيع التعرف على هذا الرجل والوصول الى سره .

٤

توجهت فى اليوم التالى ، بعد مرورى على السوق العامة ، نحو مجموعة المقاهى الممتدة الى شمال جامع ديوان بيكى بين مدرسة كوكالتاش وجامع مغاك .

وكان خان «جنة المكان» يقع وسط المقاهى الواقعة جنوب الشارع ، مقابل الزقاق الذى يتاجر فيه بالفحم عادة .

وكان ثمة مقعدان عاليان من مقاعد الصوفى يتصدران مدخل الخان على كلا الجانبين ، يقتعد احدهما دائما بائع الحلويات رحيمى قند امام بسطته .

كان رحيمى قند انسانا طريفا للغاية ، وكنت اجد فى الحديث معه لذة كبيرة . كان يعجبنى سماع احاديثه حول الحياة فكنت غالبا ما اجلس على المقعد المجاور لمداولة بعض الامور معه . وما دام ذكره قد جاء فاذن يجب ان اسرد بعض التفاصيل عنه لقارئى .

كان رحيمى قند يعود فى الاصل الى قرية فايق من ناحية

شافريكان الا انه درس فى بخارى مختارا لنفسه مهنـــة عازف موسيقى ، وكان عزفه على الطنبور لا باس به الا انه لم يكن موهوبا بشكل ملحوظ . اما الغناء فلم يكن يجيده على الاطلاق ، كما انه لم يكن متحدثا لبقا فلم يكن يستطيع اشاعة جو من البهجة والظرف فى الولائم والمناسبات ، ولذلك لم يدعه الاغنياء لاعراسهـــم وحفلاتهم . كان الطلب عليه قليلا واذا ما دعى الى حفلة او عرس فقد كانوا يدفعون له النزر اليسير ، لا اكثر من تينغين او ثلاثة مقابل الامسية كلها . وهذا كما تعرفون جعل رحيمى قند فقيرا ، شديد الفقر ، لا يملك غير لباسه ، وليس نادرا ما كان ينام ومعدته فارغة .

ولما كان استدعاء هذا العازف ارخص بكثير من استدعاء غيره فقد كان غالبا ما يدعوه طلبة المدرسة الى حفلاتهم المشتركة .

وهكذا تعرفت عليه فى واحدة من هذه الحفلات .

كان الطلاب اذ تغمرهم موجة اللهو والمرح كثيرا ما يداعبون رحيمى قند بنكاتهم اللاذعة بل ان بعضهم احيانا كان يسمح لنفسه باكثر من المعقول فيتجاوزون بذلك الحدود معه ويزعّلونه .

وفى احد الايام جمع زملائى فى الفصل ، وكانوا يتجاوزون المائة فرد ، مبلغ الف وخمسمائة تينغا فى بداية احد الاعوام الدراسية ، وكانوا ينوون تسليمها الى معلمنا كهدية افتتاح لذلك العام الدراسى ، وقد قدم له منها فعلا مبلغ الف واربعمئة تينغا ، اما المئة تينغ الباقية فقد تقرر صرفها على حفلة ليلية يدعى اليها عازف عـــلى الطنبور .

كانت الدعوة التى سمح بها هذا المبلغ متواضعة جدا ، كما ان العازف الذى استدعى اليها كان ارخصهم .. رحيمى قند . ولقد غنى جميع الهواة كل فى دوره ، ومنذ بداية الحفل ورحيمى قند يعزف على طنبوره والهواة يتناوبون الغنـــاء ، ولســـوء حظ العازف اتضح ان الكثيرين من الحاضرين يتمتعون باصوات جيدة ، ولما كانوا يتناوبون الغناء واحدا بعد آخر فقد ظلوا يغنون ، لا يتعبون ولا يكلون ، فيما بلغ الانهاك برحيمى قند اقصى مداه ، وهو الذى ظل يعزف دون انقطاع منذ بداية المساء وحتى منتصف الليل بحيث لم يعد يستطيع تحريـــك اصابعه التى تخشبت والضرب على اوتار

الطنبور . وهكذا صمت الطنبور ، الا ان الطلاب ظلوا يلحون لكى يواصل العازف الضرب على آلته ، ولكن رحيمى قند رفض ذلك رفضا قاطعا :

– لا استطيع اكثر حتى لو قتلتونى !

فهتف احد المغنين متوعدا ، وكان اسمه امين الا انه كان يلقب بالفار :

– هكذا !

– نعم هكذا ! ولن اعزف اكثر مما عزفت مهما فعلتم .

فصاح امين الفار وهو يطرح رحيمى قند على السجادة :

– هيا يا جماعة لنخضّه قليلا !

فرمى بعض الاشقياء انفسهم فوقهمـــا وراحوا ، مازحين صاخبين ، يضربون ويركلون العازف المسكين ، فاخذ يئن ويتأوه فى البداية ثم طفق بعد ذلك يبكى ويتوسل ان يتركوه فى حاله ، الا ان احدا لم يسمعه واستمروا يكيلون له الضرب حتى وعدهم ان يبدأ العزف من جديد .

نهض رحيمى قند وجلس الى مكانه ، تناول آلته وراح يعزف على اوتارها باصابع مرتعشة . الا ان النغم الآن كان يصدر منها اشبه بطنين ذبابة وقعت فى شبكة عنكبوت . وهنا قدّم للمدعوين آخر ما فى الجعبة ، الرز باللحمة ، فصفّت الاوانى امام الضيوف والقائمين بالحفلة ، وهذا ما انقذ رحيمى قند من معذبيه ، الذين فضلوا الطعام الشهى الحار على الاستماع الى العزف على الطنبور .

وعندما قاربت الحفلة الانتهاء وراح الجميع يتفرقون ادى المشرفون على تنظيم الحفلة ما بذمتهم لرحيمى قند فاعطوه التينغين الموعودين واضافة الى ذلك وضعوا امامه صحنا كبيرا مليئا بالرز واللحمة وعليه ارغفة الخبز ليحمله الى اطفاله .

اوخ ، ما كان اشد فرح رحيمى قند بهذه الهبة غير المنتظرة ! ولقد قال لاصحاب المكان مباركا :

– ليعوضكم الله عن هذا وليجعلكم جميعا مدرسين ومفتيين وائمة ورؤساء وقضاة !

فقال له احد اطلاب :

– اتدرى يا صديقنا بان على المدرسين والمفتيين وكل الرؤساء

الحالين ان يفقدوا مراكزهم كى يستجيب الله لدعائك . ولو سمعوا الآن ما قلت لهياوا لك «خضة» لا تحسد عليها .

فاجاب رحيمى قند وقد افترت شفتاه لاول مرة فى ذلك المساء عن ابتسامة :

– ليكن ذلك ! ولو اعطانى الله دائما بعد كل «خضة» صحنا مليئا بالرز واللحمة اضافة الى الرغيف ما شكوت قسمتى لاحد .

* * *

ما كان رحيمى قند بالطبع ليستطيع اقامة اود عائلتـــه بالتينغين اللذين يحصل عليهما بين يوم وآخر ، دع عنك ما كان يعطى له من الهبات مصادفة بين اسبوع وآخر ، واحيانا بين شهر وآخر ، فى الاعراس والحفلات . ولما لم يكن قد تعلم صنعة له ، ولم يكن قد درس شيئا يذكر فقد راح يتعيش من بيع الحلويات . لم يكن عنده راسمال يهيئه لتجارة كبيرة ولذلك فقد كانت كل بضاعته عبارة عن كسرات من سكر القوالب وكمية قليلة من القند والجكليت . كان يبيع قطع السكر الكبيرة ببولين لكل قطعة ، اما القطع الصغيرة فقد كان يبيعها ببول واحد . وكان يخرج كل صباح ، وقد وضع السكر على جانب من بسطته فيما وضع الجكليت الرخيص والقند على الجانب الاخر ، فيذهب الى خان «جنة المكان» ويجلس على مقعد ، منتظرا ، عارضا بضاعته للمشترين الذين كانوا فى الاغلب من اطفال الشوارع .

ومع مرور الوقت اضيف لاسم رحيمى الطنبورى لهذا السبب كلمة «قند» فاصبح يعرف باسمه الحالى بين اهالى بخارى .

وفى بعض الاحيان كنت انا ايضا اشترى من «تجارته» ، اختار لنفسى قطعة سكر او جكليت اضعها فى فمى وامصمصها جالسا على المقعد المجاور . لم اكن اشترى الجكليت منه لرغبتى التلذذ بشىء حلو ، لا ، بل كانت قصصه ونوادره هى التى تستهوينى وتجعلنى اجلس بالقرب منه للاستماع اليه ، وكان هو يفرح بذلك دائما ، مستعدا للانخراط فى الحديث مع اتفه المشترين جيبا .

كان رحيمى قند يتحدث اكثر ما يتحدث عما لاقاه فى حياته ،

عما راى وسمع ، وخلال ذلك كاف يشطح به الخيال فى كثير من الاحيان حتى انـه كان يبتدع البدع بحيث يجعل سامعيه يفغرون افواههم دهشة ، وكنا لطلاوة حديثه نعتقد وكانه راى او شارك فعلا بما كان يتحدث عنه ، بل يبدو انه هو نفسه كان يصدق بما يمر على شفتيه ، ولقد كانت اختلاقاته الشبيهة بما يدور فى الحكايات تعجبنى ايما اعجاب .

ومن الاشياء التى سمعتها من رحيمى قند اذكر قصتين ، بودى ان اسجلهما هنا .

شكى رحيمى قند لى فى احد الايام نوائب الزمن وقال ان الناس فقدوا الذوق الحسن وكفوا عن تقدير الفن الحقيقى ، قائلا :

– لو كان عند الناس ذوق ولو عرفوا كيف يقدرون الفن لاستطاعوا تمييز الفنان الحقيقى وعزفه عن غيرهما ، ولما راحوا يرفعون العازفين السيئين الى السماء فيما يتركون فى الوحل مـــن مثلى ! ليس كل عازفيكم الذين تباهون بهم غير مبتدئين لم يروا فى عيونهم معلما حقيقيا ، ولم يعرفوا المدارس الحقيقية . فنموا فى تربة الفن كما ينمو العشب البرى فى اصص الزهر . ولكنهم بالمقابل يخدعون السذج كما يريدون ، يمتدحون انفسهم امام الذين لا يفقهون فى هذا الامر وينتزعون منهم النقود . اما انا فقد تعلمت بين ايدى امهر الفنانين عدة سنوات وتمكنت من المهنة خير تمكن والنتيجة اننى لا استطيع الحصول بعملى على رغيف الخبز ولا اللّبس لاكساء عريى .

ثم استمر رحيمى قند بعد هذه المقدمة :

– لقد تعلمت وخدمت بين يدى نصر الله بائـــع القدور والقزانات عشر سنوات . كان الناس يطلقون عليه للاختصار نصر الله قزانجى ، هكذا ببساطة . اما هو فقد كان يعتبر فى زمانه من احسن عازفى المقام . وعندما تمكنت من اصول فن اداء المقامات على الطنبور وراحت الحانه تنساب بين اصابعى مثلما تنساب جداول الماء اخذ معلمى يصطحبنى معه الى الحفلات ، وفى احدى المرات اصطحبنى نصر الله قزانجى الى الحفلة التى اقامها صهر قاضى القضاة فى بستانه الواقع فى قضاء خيتويون .

كان هناك مغنون وعازفون آخرون ، ضبطنا آلاتنا على ايقاع واحد ورحنا نعزف سوية ، والمغنون يغنون جوقة واحدة . استمر

الكيف والطرب حتى منتصف الليل . وبعدما تناول الضيوف آخر طبق من الرز باللحمة وتفرقوا كل فى طريقه ليناموا ، توجه معلمى الى صاحب الدعوة قائلا :

– اذا كنتم ترغبون وتسمحون لنا فبودى ان اعزف مع تلميذى على انفراد .

واضح ان صهر قاضى القضاة وافق بكل سرور ، اما نصر الله فقد امرنى ان استعد لاداء نغم نافو * . ضبطت طنبورى ، واخذ المعلم آلة الجوزة فى يده ، وراح يغنى على الايقاع وانا ارافقه بادائى .

وفجأة هبط علينا بلبلان وحطّ على تلك الشجرة التى كنا نجلس تحتها . ظلا يستمعان الينا برهة ، ويبدو انهما تعرفا على الايقاع الذى كنا نعزف عليه اذ راحا يرافقانا الاداء . الهَم هذا معلمى اكثر واخذ يتبارى مع البلبلين مطلقا اعذب الآهات . ولم اتأخر انا عنه وباصابعى الحاذقة جعلت اوتار الطنبور ترتعش مثل اوتار القلب . اما المستمعون فقد ذابوا اعجابا بعزفنا ، واما البلبلان فقد منيا بالهزيمة فى هذا السباق ولاذا بالصمت ، وبعد دقيقة رأيناهما ينطلقان ويطيران مبهوتين نحونا . حطّ احدهما على عرف طنبورى ، واما الثانى فقد هبط على حتر جوزة معلمى . سيطر على جميع المستمعين انبهار لا مثيل له ، ثم تصاعد المديح منهم يشق اعنان السماء !

لم اكن اشك فى ان قصص رحيمى قند من هذا النوع كانت بعيدة عن الواقع ، الا اننى لم اظهر بمظهر من لا يصدق به ، بل تقبلت كل شىء وكانه امر مفروغ منه . فلو انه شعر باقل شك من جانبى لغضب ربما ، ولقطع فى الاغلب علاقتى به . وعلى كل حال لم اسمع منه بعد ذلك ما يشابه هذه الحادثة .

* * *

كان رحيمى قند يتحدث احيانا عن مآثر بطولية قام بها اناس احياء من الذين يعيشون بيننا . وذات مرة دار الحديث حول الحرب

---

* المقام الثالث من مجموع المقامات الستة . **الناشر** .

بين الامير مظفر والجبليين * ، فاخبرنا رحيمى قند بان الامير مظفر قد ازهق من ارواح الاسرى خلال ساعة واحدة ، بعد انتصاره ما يقارب الاربعمئة جاعلا من رؤوس الجساريين والكولابيّين برجا عاليا ، واضبط من هذا وصف رحيمى قند لى بطولات عزيز الله الذى شارك فى هذه الحرب .

كنت اعرف عزيز الله ، كان ينحدر من مدينة «بلحه» . وقد تعلم ودرس فى احدى مدارس بخارى . وعندما شبت الحرب مع الجبليين تطوع عزيز الله محاربا الى جانب الامير مظفر فوصل الى اعلى المراتب ، وكان انذاك – عندما كان رحيمى قند يحدثنى عنه – قد اصبح رئيسا فى «غيشدوفان» .

اشتهر عزيز الله بشكل خاص بكذبه . وكان هو نفسه يقول بانه ان لم يفلح باختلاق مائة كذبة فى اليوم فانه لا يستطيع فى الليل اغماض جفن .

وقد حدثنى رحيمى قند عن بطولات عزيز الله الكذاب بهذا الشكل :

– كان عزيز الله من ضمن خيرة المقاتلين المقربين من الامير . شارك فى الغزوات التى شنت على الجستاريّين والكولابيين ، وكان يصول على جواده فى المعارك فيحصد من رؤوس الاعداء فى كل رفعة سيف من عشرة الى اثنى عشر . وفى احدى المرات اضطر عزيز الله وهو فى حومة الوغى الى الانطلاق بجواده بين شجرتى توت كانتا جد متقاربتين واغصانهما تشابكت بشكل بحيث اقتطعت راس عزيز الله عن جسده . الا انه لم يرتبك ولم يضطرب بل عاد بجواده فى الحال وخلّص راسه من بين الاغصان ثم ركّبه على رقبته قبل ان ييبس الدم ، فالتأم الراس مباشرة واستمر عزيز الله يقاتل وكان شيئا لم يكن .

عصف بى الانبهار مع هذه القصة فهتفت وقد نسيت ان رحيمى قند ربما يزعل منى :

---

* الامير مظفر (١٨٦٠ – ١٨٨٦) من سلالة المانغيتيين الذين حكموا فى بخارى منذ ١٧٥٣ الى ١٩٢٠ ، ضم الى امارته القطاعيات صغيرة ، خلال حكمه ضمت اسيا الوسطى الى روسيا ، اما امارة بخارى فقد جعلت تابعة . **الناشر** .

– حسنا ان عزيز الله لم ينس فى عجلته تركيب رأسه بالمقلوب ! لوجد عينيه اذن مكان قفاه ولسبب ذلك له فيما بعد الكثير من المشاكل !

شعر رحيمى قند بالشك يتسرب من كلماتى . فاضاف غاضبا :

– ولكنه لم يكن لا اعمى ولا احمق ، كان يعرف جيدا كيف يجب ان يستقر رأسه على رقبته !

اعتذرت من محدثى وطمأنته باننى لا اشك مطلقا فى صحة ما يقول . الا ان رحيمى قند ظل بعد هذا يتحفظ طويلا معى فى سرد حكاياته .

٥

بعد مرورى بالعديد من خانات الشاى المنتشرة على الجانبين وصلت كارافان – سراى جنة المكان . كان رحيمى قند يجلس كعادته امام بسطته على مقعد الصوفى ، فاشتريت منه قطعة قند وجلست بدورى على الصوفى المجاورة .

وضعت نصب عينى اليوم هدف ان اعرف اين يعيش كورى اشكامبه وفى اى حى ، فكانت افكارى كلها متجهة هذا الاتجاه . وهكذا جلست متفكرا ، دون ان احاول دفع رحيمى قند للحديث . ودون ان اطمح لسماع قصة مشوقة منه . الا اننى لم اكد انتهى من قطعة القند حتى رايت كورى اشكامبه يظهر من ناحية مدرسة كوكالتاش ، فتشبثت فيه بعينىّ جاهدا ان اعرف تعبير وجهه .

وما ان اقترب منى اكثر حتى نظر بدوره نحوى ، فقرأت فى عينيه الذكيتين النفاذتين بوضوح : «اها ، مرة اخرى هذا الكذاب !» .

ادرت نظرتى عنه مرتبكا ، متظاهرا باننى لا اعرف هوية القادم . ولكننى ظللت ارقب كل حركاته من زاويتى عينى .اقترب من رحيمى قند فتناول من بسطته قطعة سكر وقطعة قند ارسلهما فى الحال الى مستودع فمه ، ثم اختطف جكليته وراح يفض عنها غلافها مواصلا طريقه .

فهتف رحيمى قند فى اثره بصوت مرتعش وقد امتقع لونه :

– يا عم كورى ، دع المزاح جانبا ، كيف يمكنك ان تفعل هذا ! اننى انسان فقير ، عندى عائلة ! ادفع ثمن ما اخذت ، رجاء ، ادفع !

فافصح كورى اشكامبه ملتفتا اليه :

آه ، يـا ناكر الجميل هل نسيت دعوتى لك ! تذكر الرز باللحمة الذى اكلته امس ! استطيع ان انفعك بعد ، اساعدك لكى تحصل على ما هو اكثر من هذا الهباء ! – وواصل طريقه بهدوء .

فارعد رحيمى قند وازبد : – لئيم ! حقير !

فسألت انا متظاهرا باننى لا اعرف كورى اشكامبه مطلقا : من هذا ؟

فاجاب رحيمى قند : – مرابى – مصاص دماء ، بخيل ، نذل !

– وكيف هان عليك الخبز والملح معه ؟ ولماذا اتهمك بنكران الجميل والجحود ؟ ورد رحيمى قند وقد استشاط غضبه اكثر :

– خبزه وملحه لم تاكل منهما حتى زوجاته مرة واحدة . كان يذكرنى برز الامس ! لقد دعانى سقّى الى عرسه لاعزف لضيوفه على الطنبور ، جلست فى الباحـة على تخت خشبى عريض ورحت اعزف . فظهر ان هذا من بين الحاضرين ايضا ، وسوية مع الآخرين دخل الغرفة التى يقدمون فيها الطعام للضيوف واكل نصيبه مـن الارز . ثم اقترب منى بعد ذلك وجلس على حافة التخت . كان الناس يدخلون الى الغرفة ، ياكلون ما يقدم لهم ويخرجون . اما هو فقد ظل جالسا الى جانبى ، بعد ذلك طلب من صاحب البيت ان يقدم له الشاى . جاء ضيوف آخرون ، جلسوا ، اكلوا ، ثم خرجوا الى سبيلهم . اما هو فقد ظل مرابطا لا يحيد عن مكانه . وعندما قارب كل شىء من نهايته قال للقائم على تنظيم العرس ان يجلبوا لى نصيبى من الرز باللحمة «ليس يديه وحدهما يعملان بل وبطنه ايضا تحتضن الطنبور ! فاجلبوا له رزا دسما ولحمة كثيرة !» .

جلبوا صحنا مليئا بالرز واللحمة ، ولم يبخلوا فى الحقيقة باللحم . كان الرز جيدا . دسما ، ولكننى لم اصب منه بالعشر ! كانت شهية كورى اشكامبه لا تبارى رغم انه كان قد اكل مع الآخرين اكثر من مرة . وما ان اضع فى فمى لقمة واحدة يكون هو قد عبّ فى فمه ثلاث لقمات او اربع ، بل ان النهم كان يتعمد ان يأخذ من

الرز ادسمه مختطفا فى كل لقمة قطعة لحم كبيرة دهينة ، مختارا الاكل من الاسفل حيث الدسم ، بحيث ان الدهن كان يسيل على يده حتى مرفقه .

بعد ان اكلت اردت ان ابدأ العزف من جديد فأخذت اداعب مفاتيح طنبورى لاضبط ايقاعه ، وهنا الصق كورى اشكامبه شفتيه الدهينتين باذنى وهمس فيها :

– يكفى ، انهى العزف ان الضيوف ينصرفون . هل تريد ان ارتب لك صحنا من الرز باللحمة ؟ ولكن ، شرط ان يكون مناصفة بينى وبينك . موافق ؟

فقلت له :

– موافق طبعا .

– اذن اطلب من القائم على العرس ان يتركك تذهب !

فسالت القائم على العرس وانا اخفى طنبورى فى كيسه :

– هل تسمحون لى بالذهاب ؟

دفع لى القائم على العرس حسابى ، تينغين ، ووضع امامى رغيفا من الخبز وحفنة جكليت . وضعت النقود فى جيبى ورحت اربط رغيف الخبز والجكليت بمنديلى . وهنا اشار كورى اشكامبه نحوى قائلا للقائم على العرس :

– لهذا الشخص عائلة فلا تبخلوا عليه بصحن من الرز باللحمة . افرحوا اطفاله وليكن الرز دسما واللحمة كثيرة ، بل وغطوا الصحن بارغفة الخبز ، فلعل حاجتكم اليه تتكرر ثانية !

لم يبق امام القائم على العرس غير ان يجلب لى صحن الرز باللحمة . خرج كورى اشكامبه الاول ، ثم خرجت بعده احمل طنبورى والصحن .

وقال لى القائم على العرس وهو يودعنا حتى الباب :

– لا تنس ان ترجع الصحن !

ما ان قطعنا بضع خطوات حتى قال كورى اشكامبه لى :

– بيتى فى طريقنا ، لنمر عليه اولا لأخذ حصتى من الرز واللحمة ، ثم تحمل انت من بعد حصتك الى بيتك !

سرنا فترة طويلة عبر الشوارع والازقة حتى وصلنا بيته فى نهاية المطاف وقد اتضح انه يعيش فى بيت ابعد من بيتى بكثير . .

قطع رحيمى قند قصته فى هذا المكان ليلتقط انفاسه فاغتنمت الفرصة لأسأل عن عنوان كورى اشكامبه الذى كنت ارغب جدا بمعرفته :

– الى اى شارع وصلتما والى اى حى ؟

– اتعرف حى كيموختغاران ؟ هناك يعيش كورى اشكامبه فى نهاية الزقاق تماما ، خلف الخان حيث يتاجرون بالاحذية والمدس الجلدية ! – ثم واصل رحيمى قند قصته بعد ان شرح لى اين يعيش كورى اشكامبه : – وهكذا ، وصلنا بيته . اخذ منى الصحن وذهب به الى قسم الحريم ليأخذ حصته . وعندما رجع بالصحن الىّ لم ار ارغفة الخبز عليه ، كان كورى اشكامبه قد اخذ اللحم كله ايضا ، واما الرز فلم يبق لى اكثر من ثمنه ، بل وانه صب من الصحن كل ما فيه من دسم كذلك . هذا الشخص ثرى جدا ولكن عينيه لا تشبعان ابدا . لا يوقفه اى شىء ولا يخجل مطلقا من اجل ان يجمع فى يده ما يمكن جمعه ، ولكنه مهما جمع واثرى فهو لا يشبع مطلقا . . – هكذا انهى رحيمى قند قصته .

فاعقبت :

– «سعادى» الشيرازى يقول ان «عينى الغنى الجشعتين لا يمكن ان يشبعهما غير تحقيق الرغبة او رماد القبر» ولكنى اعتقد ان بخل هذا الشخص لا يمكن ان يشبع لا بهذا ولا بذاك .

وما ان انتهيت من هذا القول حتى نهضت عن مقعد الصوفى بعد ان عرفت عنوان كورى اشكامبه بهذا الشكل المفاجئ وبكل هذه التفاصيل ، وهذا ما كنت اسعى اليه . اما الآن فبالامكان المضى الى كورى اشكامبه مباشرة .

٦

خلّفت خان جنة المكان ورائى وعبرت شارع بائعى الفحم حتى وصلت حى كيموختغاران ، ثم دخلت زقاقا ورأيت فى نهايته بوابة غير كبيرة . كانت جميع الدلائل التى ادلى بها لى رحيمى قند ، تشير الى انها بوابة بيت كورى اشكامبه .

طرقت الباب وانا افكر «ليست مصيبة ان لم يكن هذا البيت بيت كورى اشكامبه ، استطيع ان اسأل على الاقل اين يعيش» .

وبعد بضعة دقائق تردد خلف البوابة وقع اقدام وحديث تبادله شخصان ، الا ان الباب لم يفتح لى فطرقته ثانية ، سمعت صوت نسائى :

– من هناك ؟

– انا طالب مدرسة ولى شغلة مع العم كورى .

– عمك كورى ليس فى البيت . ماذا تريد منه ؟

– ساحدثه نفسه فى الموضوع ! متى يحضر الى البيت ؟

فردت المرأة :

– انه لا يأتى الا فى وقت متأخر ، واحيانا يبقى حتى منتصف الليل فى ضيافة اصحابه .

– وهل استطيع ان اراه اذا جئت فى منتصف الليل او بعده ؟

فقال صوت نسائى آخر بلهجة قاطعة :

– لا ، لا . انه لا يستقبل احدا فى بيته بل ولا يفتح لطارق باب ، وقد قال لنا ان لا نفتح الباب لا فى الليل ولا فى النهار ، واكد لنا امس ان لا نفتحه حتى لمن كان من معارفنا . ولذلك ننصحك ان لا تحمل نفسك المشاق عبثا ، كما لا يحاول الحصول عليـــه فى البيت .

– ومن انتما بالنسبة للعم كورى ؟

– نحن زوجتاه !

– لعل عنده ابنا استطيع التحدث معه بشغلتى ليفاتح والده بها ثم ينقل لى من بعد رده .

– ليس عنده ابناء او بنات او خدم ! – كان ذلك صوت المرأة الاولى ، واعقبت الثانية وضحكة ترشح من صوتها :

– انه واحد احد ، مثل شجرة سرو .

فقلت : – طيب ، سآتى فى النهار عسى ان اجده فى البيت . فردت المرأة الاولى : – لن تستطيع الحصول عليه فى البيت ابدا فهو يخرج منه قبل الفجر ولا يعود الا بعد منتصف الليل .

* * *

عندما سلّمت بانى لن استطيع الحصول على كورى اشكامبه فى البيت لا هذا النهار ولا بعده قررت ان امضى من جديد الى شبكة الاسواق لاعثر عليه هناك فاتقدم منه واعترف امامه بكل شىء وافصح له عن نواياى .

كنت افكر بهذا الامر وانا اسير بجانب دكاكين باعة المدس الجلدية حتى وصلت الرواق التجارى الدائرى المقبّب المعروف باسم رواق خوجا محمد بارون ، عبرته ومضيت باتجاه دكاكين باعة التبغ وحافظاته التى تصنع من ثمار القرع الصغيرة . بعد ذلك حاذيت اكوام الكشمش والمشمش المجفف ، ثم قطعت شارع الشماعين ووصلت رواق دكاكين باعة الشاى .

كان النهار يقترب من نهايته فكانت اغلب الدكاكين مغلقة وقد هجرها اصحابها ومضوا الى بيوتهم فيما كان عابرو السبيل جد قلائل . لو صادفت كورى اشكامبه فى طريقى الآن لكان ذلك انسب وقت للتحدث معه . ولكن ، وللاسف الشديد لم يكن يلوح له شبح . وعندما وصلت الى خان جنة المكان وجدت رحيمى قند يجمع حاجياته ويتهيأ للذهاب الى البيت .

واذ رآنى وضع بسطته على مقعد الصوفى وابتسم لى مناديا . . دهشت لذلك جدا ، وقد رايته مبتسما ، لانه لم يبتسم خلال معرفتنا لبعض الا مرة واحدة كما سبق وذكرت عندما اعطوه طبق الرز باللحمة فى تلك الامسية التى اقامها طلاب مدرستنا . كانت جبهته عادة كالحة ووجهه اجمع متغضنا كما لو انه شرب لتوه جرعة كبيرة من خلّ شديد الحموضة . اما الآن فهو لا يبتسم حسب بل ويضحك بهدوء . اقتربت منه فبادرنى بالسؤال :

– ما هذا الذى فعلته لكورى اشكامبه ؟

– لا شىء . ماالذى حدث ؟

جلس رحيمى قند على مقعد الصوفى قائلا :

– ما ان ذهبت ، حتى عاد الىّ وراح يسأل عنك بالتفصيل . فاجبته : «طالب مدرســـة فقير» ، فقال : «كنت على صواب اذن بشكوكى» ،وهز راسه بحركة ذات معنى . سألته : «اى شكوك ؟» فصمت برهة ثم قال : «كثيرون يعتقدون اننى غنى ولذلك فليس مرة ما تعقبنى اللصوص والمحتالون . ولكن ما ان يتاكدوا من اننى

لا املك فلسا احمر فى بيتى يفقدوا اهتمامهم بى ويكفوا عن ملاحقتى . وفى اليومين ، الثلاثة ، الاخيرة كان طالب مدرستك هذا يتعقبنى خطوة خطوة . يبدو انه يريد ان يعرف من اين استلم المال واين اخفيه ، وفيما اذا كنت اجلبة الى بيتى ، ليقتلنى بالطبع ويسلب حلالى» . فاعترضت عليه : «انه ليس من هؤلاء ، وعبثـــا تشك فيه !» رد كورى اشكامبه : «ليس هناك ما لا يحتمل حدوثه اذا كان قد حاد عن الطريق القويم ، وفى كل الاحوال يجب الحذر من ابناء غيجدوان !

وصمت رحيمى قند هنيهة واضاف :

– طلب كورى منى ان اخبرك ، باعتبارك من معارفى ، بانه لا يملك من المال شيئا . واذا حدث ووجد بين يديه شيئا فانه لا ياخذه الى البيت ابدا ، بل ولا يحتفظ باى حاجة ثمينة فى بيته . ليس عنده كما يقول غير بطانيتين ممزقتين قذرتين حالهما اتعس من حال خرقة توضع على ظهر الحمار لامتصاص عرقه .

وفى الختام قال رحيمى قند لى مؤكدا :

– تجنّب هذا الشخص فمنه لا ينتظر خير ، انه مخادع مغتاب .

افهمت رحيمى قند السبب الذى دفعنى للبحث عن كورى اشكامبه وحدثته عن نيتى فى استئجار حجرة منه ثم شرحت له كيف فشلت محاولاتى للتحدث معه خلال الايام القليلة الماضية ، حتى ختمت قولى :

– ولكنه ما دام قد شكك بجوهر انسان نظيف واعتبره لصا ومحتالا فاننى لا ارغب بعد هذا برؤيته ولا باستئجار سكن منه ! يمكن تدبير الامر من غير حجرته ومن غير التعرف عليه . وهكذا كما يقول سعادى «نرجع هديته اليه» .

ثم ودعت رحيمى قند ومضيت فى سبيلى .

٧

مر على هذا الحديث بضعة ايام . لم التق بكورى اشكامبه ، بل لم احاول الالتقاء به . فقد نبذت من راسى فكرة التعرف عليه

واستئجار حجرة منه . وقدّرت ان الا سلم الابتعاد عن هذا الشخص ما امكن .

مرة كنت متفكرا اجلس على عتبة دكان تاجر ملح مقابـــل مدرسة كوكالتاش عندما رايت فجاة ظل احدهم يرتمى على الارض قربى ، الا اننى وقد كنت اغرق فى لجج الافكار لم افعل حتى ان ارفع راسى ، فهبط علىّ من فوق صوت يشدد على حرف «العين» :

– السلام عليكم !

وهاكم دهشتى . كورى اشكامبه نفسه يلقى علىّ تحيته ! كان ينظف اسنانه بعود خشبى مما علق بها من طعام ، ينظر الى ما يخرجه منها ثم يودعه فمه مرة اخرى .

لم اكن قد نسيت بعد شكوكه المهينة التى لم تكن قائمة على اساس ، فرددت على تحيته مرغما وعدت الى افكارى وخواطرى . فقال وهو يجلس الى جانبى :

– ما ابدع الهواء هنا امام مدرسة كوكالتاش !

مكثت فى صمتى . فسال بمكر :

– لعل عندك معى تشغلة يا اخ ، والا فليس عبثا كنت تتبعنى طيلة تلك الايام الطيبة .

فاجبت بحدة :

– بالضبط ! كنت اريد ان اعرف كم تملك من النقود واين تخفيها لاخبر اللصوص فى غيجدوان بعد ذلك لسلبك اياها !

فقال وصوته ينم عن الصدق فعلا :

– يجب الاعتراف ان الشك سيساورك حتما ان وجدت شخصا غريبا يتتبعك . ولقد سالت عنك فعرفت انك انسان نظيف محترم ، ولذا رغبت ان اعتذر منك لما بدر منى . وهكذا تجدنى اجلس الى جانبك وقد راتيك فارجو ان تصفح عنى .

حافظت على صمتى الا انه فهم من التعبير الذى ارتسم على وجهى ان اعتذاره مقبول وان الغضب لم يعد له مكانا فى صدرى . فاضاف انذاك بلهجة جادة :

وعلى كل حال يبدو انه يتحتم على ان احدثك عن نفسى بعض الشىء . يعتبرنى الناس ذا مال ، ولكن هذا غير صحيح . فاذا كنت

احصل على تينغين او ثلاثة لاقيم اود عائلتى ، احفظها بالمناسبة فى ايد امينة ، فاننى انفقها فيما بعد على ضرورات الحياة .

ووشت كلماته هذه عن بقاء بعض الشكوك فى نفسه فىّ الا اننى اقتنعت ان لا سبيل الى محاولة اكتساب ثقته فالشك فى نفس مثل هذا الانسان تجذّر حتى الاعماق وكمن فيها كالمرض المزمن . ورغم هذا حاولت طمأنته بعض الشيء ، فقلت :

احتاج حجرة ، ولقد اخبرنى احد اصدقائى بانك على استعداد للتأجير . لهذا السبب ابحث عن فرصة للتحدث اليك بهذا الشأن ، ولكنى عزفت عن ذلك عندما علمت بأن محاولتى التعرف عليك قد اثارت عندك الشكوك ، ولذا قررت «ان اعيد اليك هديتك» . .

هكذا انهيت حديثى مازحا . فاعقب هو :

– لم يتح لى شراء حجرة بنفسى ابدا ، فمنذ صغرى وانا لا املك المال ولن املكه . الا ان والدى المرحوم ابقى لى فعلا ارثا من حجرتين – ثلاث .

واذ اكد كورى اشكامبه بهذه الطريقة ، ومرة اخرى ، انه لا يملك مالا ، فقد صمت برهة ثم استفسر :

– وهل عثرت على حجرة ام انك ما تزال حتى الآن بلا ماوى ؟

– لا ، لم اعثر .

فاستفسر ثانية :

– وهل ستقوم بطبخ الرز باللحمة كل يوم اذا اصبحت عندك حجرة ؟

خطر لى ان كورى اشكامبه يستفسر عن هذا من اجل ان يعرض على حجرة لا موقد فيها ولا مدخنة ولذلك اجبت هكذا :

– حتى ان كانت الحجرة من غير موقد وموخنة فهى تناسبنى لأننى استطيع العيش من غير رز ولحمة .

فقال كورى اشكامبه هنا بلهجة مداعبة :

– ولكن حجرتى فيها موقد يحتاج ان يستعمل كل يوم لطبخ الرز باللحمة ولشخصين فى آن واحد . .

ثم غير لهجته مضيفا بجد : – عندى حجرتان اجرتهما لتلميذين من المدرسة تحت شرط ان يطبخ كل منهما مرة فى اليوم الرز باللحمة ولشخصين ، الاول يعد طبخته فى الحادية عشرة صباحا والثانى

يعدها مساءا قبل صلاة العشاء فازورهما خلال هذين الوقتين لاتناول طعامى معهما . .

فقاطعته متسائلا :

– وهل تستطيع تناول الرز باللحمة مرتين فى اليوم ؟

فاتقدت عينا كورى اشكامبه جشعا : – اوه ، لو كان بالامكان تناوله اربع او خمس مرات فى اليوم لما توانيت عن ذلك . . احد هذين التلميذين يهيئ طبخته على ذمته وناموسه فى الوقت المحدد كل يوم ، اما الآخر فانه يتحايل علىّ وكثيرا ما يهرب من امام وجهى ويختفى عن انظارى . الا اننى اصطاده فى اليوم الثانى وامسك بخناقه لكنه دائما ينتحل الاعذار ، فمرة لم يجد نقودا لاعداد الطبخة ومرة كان مدعوا فى بيت احدهم . الا ان عذره فى مثل هذه الاحوال لا ينفع ولا يدفع طائلا ! ورغم هذا فقد فوّت على فى العام الماضى طبخة الرز باللحمة اربع مرات تحت هذه الحجة .

صمت كورى اشكامبـــــه وهو ينبش بعود التنظيف ما بين اسنانه الا انه لم يكن فيها من بقايا الطعام شيئا وهكذا اخرج عوده خائبا وقد تدمّى ، قائلا :

– بالمناسبة ها انذا عائد من عند هذا المحتال ، بالامس هرب منى لكنه اليوم طبخ ما عليه . اكلت معه ولو ان الرز لم يكن دسما واللحمة لم تكن كثيرة ، ولذلك فقد انذرته بالطرد ان كرر هذا معى . . . فاذا كنت تستطيع الالتزام باطعامى الرز باللحمة كل يوم طردت هذا التلميذ من حجرته واسلمتها لك رغم انه من معارفى القدماء ، فما الذى تقوله ؟

كان مهينا ان اشرح لهذا الجلف وضعى وما انا عليه من فقر او ان ابيّن له كيف ان النقود لا تزورنى الا نادرا ، ذلك ان الفقراء فى اعين الاغنياء هم احقر المخلوقات واتفههم شأنا . وهكذا فقد اختلقت له هذه الذريعة :

– لقد وعدنى امس احد الاصدقاء ان يعطينى حجرته مؤقتا ، فاذا صعب عليه ذلك فربما استأجرت حجرتك . ان طبخ الرز باللحمة وتقديمه لشخص واحد ليس مشقة كبيرة ولكن الافضل طبعا الحصول على حجرة لا يدفع مقابلها شيء .

اثنى كورى اشكامبه على كلامى ثم اضاف :

– طبيعى ان يحرص كل شخص على مصلحته الخاصة . حسنا ، ان احتجت انت او اى شخص آخر من معارفك على صومعة فانا على استعداد لتقديمها له بالشروط التى حدثتك عنها ، اما من يلتزم بالاتفاق فاننى لن اعطيه صومعة حسب بل وسوف ادعو له بالتوفيق دائما . اننى انسان فقير مضطر الى الحصول على قوتى بهذا الشكل . نعم ، نعم ، اننى لست بالغنى كما يعتقد الناس !

بهذا الحديث بدأ تعارفى مع كورى اشكامبه . ومنذ ذلك الحين وهو يسألنى كلما التقى بى فى الشارع عما اذا كنت قد وجدت لنفسى مسكنا . واذ عرف باننى افلحت اخيرا فى الحصول على حجرة راح يسألنى فيما اذا كان اى من اصدقائى بحاجة الى حجرة .

كنت ارد عليه بالنفى فينتهى حديثنا عند ذاك . ولكن اسئلته تلك واجاباتى نفسها كانت تتكرر فى اليوم بعدد المرات التى نلتقى فيها . ويبدو ان كورى اشكامبه لم يفقد الامل فى العثور على مستأجر من خلالى يهيئ له كل يوم «طبخة الرز باللحمة» فى الوقت المناسب ، وبمثابرة ونزاهة .

٨

كانت العادة المتبعة فى بخارى ان يقوم الناس فى مطلع كل سنة شمسية والذى يصادف شهر خامال * بنزهة العام الجديد فى الحديقة الاميرية المشهورة باسم شير بادان . والى جانب المطاعم الصغيرة التى كانت تقدم مختلف انواع المأكولات للمتنزهين كانت تفتح عادة محلات اخرى لتأجير القدور والاوانى وكل مستلزمات طبخ الرز باللحمة ليقوم هؤلاء بانفسهم باعداد هذه الطبخة وطهيها .

كان اصحاب هذه المحلات ينصبون خياما صغيرة ويعدّون امامها مجموعة من المواقد . ومقابل مبلغ معين يقدمون لراغبى طهى الرز باللحمة القدور والاوانى والحطب ، اما هؤلاء فكانوا يأتون بمواد الطبخة لاعداد الاكلة على ذوقهم .

* خامال : الشهر الاول فى التقويم الشمسى (٢٢ آذار ـ ٢٢ نيسان) . **الناشر** .

وفى احد ايام نزهات العام الجديد قرر طلبتنا ايضا ان يعدوا بدورهم «طبختهم» الخاصة من الرز باللحمة . وهكذا ، وبعد ان انتهى زملائى من تقطيع البصل والجزر واللحم ذهبوا ليتمشوا قليلا فيما بقيت انا امارس اعداد الطبخة . وعندما كنت اقلّى اللحم والبصل بالسمن الغالى ظهر لى فجأة كورى اشكامبه . وبعد اسئلته المعتادة عما اذا كنت بحاجة ، انا او احد اصدقائى لحجرته راح يبدى اهتمامه بمن كان معى فى ذلك المكان ، فذكرت له اسماء بعض الزملاء المعروفين جيدا فوجدته – يهتف :

– اوه ، كلهم من معارفى ! . . – وابتعد عنى داخلا الخيمة المجاورة التى لم يكن فيها سياجا يمنع المتطفلين ، فكان الجالس فى احداها يستطيع ملاحظة ما يجرى فى الخيام الاخرى بكل يسر وسهولة . جلس كورى اشكامبه هناك قرب المجموعة التى كانت تنتظر تقديم الطعام الذى كان معدا الا انه لم يوزع بعد .

وضعت الرز خلال هذا الوقت فى القدر ليغلى ، وعندما امتص الماء كله غطيته بالصحن لتكتمل الطبخة . واذ عاد الاصدقاء توزعوا حلقة واحدة فى باطن الخيمة . وكانوا يوزعون الأكل فى هذه الاثناء فى الخيمة المجاورة فانكفأوا عليه بهمة عالية بحيث لم يلتفت احد منهم نحونا مرة واحدة ، الاّ كورى اشكامبه فقد كان يفعل ذلك بين لحظة واخرى وهو يرمى الى جوفه حفنات الرز الكبيرة الملأى بقطع اللحم .

وهكذا نضجت طبختنا ايضا فصببتها فى الصحن وقد ابقيت منها قليلا فى قعر القدر «ليتفحصها» صاحب خيمتنا . وبعد ذلك قدّمت الصحن الى الاصدقاء .

ما كاد كورى اشكامبه يلمحنى احمل الصحن حتى نهض من مكانه ، ثم انحنى ثانية وغرف بيده بقايا الاكل . كان الدهن ما زال يسيل بين اصابعه عندما عجل خطاه نحونا ، ومن غير سلام او كلام حشر نفسه بيننا وكان الاول الذى يمد يده الى الصحن .

كان بيننا ثمة شاب ، ابن تاجر ، يعتبر من اغنياء الطبقة الوسطى فى بخارى ، كان هذا الشاب وهو من معارفى القدماء على صلة ومعرفة بكورى اشكامبه ، وغالبا ما كان يحب المزاح مع كورى . فقال له اذ رآه ينضم الى مجموعتنا :

– لا يمكن لاحد ان ينجو منك ايها العم كورى ، اينما يذهب يجدك امامه .

– يا بنى اننى اجمع السنابل بعد الحصاد ! ماذا سيحصل لنا نحن الفقراء اذا لم نلتقط لانفسنا قليلا من الحبوب ؟ فليكن لنا ، نحن المعدمين ، شيئا من سنابل الاغنياء امثالكم فهذا لن يضركم بشىء !

– عندما تاكل فى بيتنا تقول ان هذا صدقة «الاحفاد» فما الذى تقوله عن هذا الذى تاكله الآن ؟

فقال كورى وفمه مفعم بالاكل بحيث لم يكن فى المستطاع تمييز كلماته عن بعضها :

– هذا الطعام صدقة «ابناء الاحفاد» ولاكن فدية لكم وقربانا !

ولم يتفوه بعد ذلك بكلمة واحدة ولم يرد على سؤال ، كان يجلس منكفئا على الاكل لا يرفع عنه راسه ، يفرش اصابعه الخمسة ويغرف الاكل بها ما وسعت ، ضاغطا اياه باشد ما يستطيع ، محاولا فى كل مرة اختطاف قطعة لحم اكبر ، فكان الرز يختفى تحت يده كالبرق ، فسرعان ما مد نفقا عميقا فى تلّه القائم فى الصحن . وعندما كان يتنفس ينثر حبات الرز من فمه فتتساقط على ركبتيه ومنهما الى الصحن مرة اخرى .

كففت عن الاكل عندما شاهدت كل هذا ، اذ لم يكن بالامكان النظر نحو الطعام دون قرف . بل وراح الاخرون يمدون ايديهم الى الصحن مرغمين ، متناولين القليل من الرز من قعره ، حيث لم تكن تصل الحبات المتساقطة من فم كورى اشكامبه .

كان كورى اشكامبه يختنق بالرز بين حين وآخر فكان يمد يده اليسرى ليتناول ابريق الماء دون ان يسحب يده اليمنى من الصحن، يبتلع جرعات الماء ثم يواصل الاكل بعد ذلك . قلت له :

– لا باس يا عم كورى ان تطلب لك مدكا للاكل . – ابتسم ولكنه لم يرد بشىء ، فمه المزدحم بالاكل لم يسمح له التلفظ بكلمة واحدة . وسالنى احد الزملاء :

– وما الحاجة الى مدك ؟

فاجبت : – ليدفع به الاكل عبر بلعومه الى معدته . – ورد احد الزملاء :

– الماء يقوم مقام المدك !

واخير انهى كورى اشكامبه حسابه مع طعامنا ايضا . نهض ماسحا يديه بسرواله مدهنا اياه عند الركبتين ، ثم مضى دون ان يودع احدا بتحية .

* * *

افسد ظهور هذا الضيف الكريه مزاج الزملاء جميعا ، وكنت انا اكثرهم تضجرا منه . اى مزاج يمكن ان يبقى بعد ان صرفت كل تلك الجهود لاعداد تلك الطبخة الرائعة ، واذا بى اضطر الى الامتناع عنها بسببه فابقى جائعا ! لم يهتم الآخرون مثلى بما حدث فهم لم يصرفوا الجهد الذى صرفته ، كما انهم اصابوا من الطعام شيئا . اما الشاب ابن التاجر الغنى فيبدو انه قد شعر بشىء من الذنب لمجرد معرفته بكورى اشكامبه وتسببه فى تواجده بيننا ، بل انه احسّ باننى غضبت منه قليلا لهذا السبب ، ولذا فقد نهض من مكانه بهدوء ومضى الى صاحب خيمتنا ، دفع له ثمة ما ابقينا له فى القدر من الرز واللحمة ثم صبه بعد ذلك فى اناء وجلبه ليضعه امامى . الا ان شهيتى كانت قد ضاعت تماما بعدما حدث ، ولكن لم اشأ ان اكدر صفو اصحابى ولذا فقد تناولت من الاناء ما استطعته . اثر اهتمام رفيقى بى كثيرا فهدات وسالته بعد ان زال غضبى تماما :

– من اين لك المعرفة بهذا العنكبوت الجشع ؟

– هناك قصة طويلة وراء ذلك . الافضل ان اسردها على مسامعك فى فرصة اخرى .

– طيب ، اشرح لى على الاقل ما الذى يعنيه بـ«الاحفاد» و«ابناء الاحفاد» . لقد سمعت هذه الكلمات الغامضة منه قبل ذلك . ارجو ان تشرح لى ذلك ، ام لعلى اترجى ذلك منه ؟

– وهل تجهل هذا ! . . انه مراب . والربا او النسبة التى ياخذها عن الاموال التى يدينها للناس يطلق عليها تسمية «الاولاد» . اما الربا الذى ينمو من الربا الاول فيطلق عليه تسمية «الاحفاد» ، وهكذا بالنسبة لـ«ابناء الاحفاد» . وعندما يستدين منه احدهم مبلغا من المال فانه يطلب من المستدين نسبة عالية مقابله يستقطعها

مقدما من ذلك المبلغ ، فيطلق على هذه النسبة «اولاد» نقوده ، وما دام الانسان مدينـــا له بالمبلغ فان كورى يزوره باستمرار فى بيته ، يتناول معه الطعام فيسمى هذا النصيب «احفاد» نقوده . اما اذا استطاع الحصول على شىء آخر اضافة لهذا الطعام ، كأن ياكل معه البطيخ مثلا ، او عنبا ، او حلاوة ، فانه يسمى ذلك «ابناء احفاد» امواله .

٩

ومرت بضعة شهور بعد تلك النزهة فى شير بادان . وفى احد ايام الشتاء وكان الوقت مساء ، وقد انتهيت لتوى من صلاة العشاء ، دخل علىّ فى صومعتى صديقى – ابن التاجر ، فقال لى :

– عندى اليوم شغلة مع كورى اشكامبه ، قال لى اننى استطيع ان اراه مساء الساعة العاشرة فى بيته . . .

فقاطعته :

– ولكنه لا يستقبل احدا فى بيته فى مثل هذه الساعـــة المتاخرة .

– انه مهتم بهذه الشغلة اكثر منى . وهو نفسه من حدد موعد ومكان اللقاء . وكما تعرف فان طرقات بخارى فى الليل لا تخلو من المخاطر ولذا ارجو منك ان تصحبنى فى هذا المشوار .

– عندك اب واخوة وخدم ، فبأى مناسبة تريد منى الذهاب معك ؟ لا اريد ان ارى وجهه ولا استطيع ان اطيقه ابدا .

– رغم هذا ارجو ان توافق . فالمسالة اننى يجب ان اذهب الى هناك سرا ودون ان يعلم والدى او والدتى واخوتى . كان عندى خادم مخلص مطلع على اسرارى الا انه مرض ورحل الى بلدته . ولقد جئتك لاننى اثق بك اكثر من الآخرين ، بالاضافة الى انى اعرف انك تستطيع الاحتفاظ بالسر .

– افصح لى عن نواياك لافكر واقرر فيما اذا كنت سأشاركك هذه القضية .

قال الشاب :

– القضية يا صاحبى اننى استدنت من هذا المرابى مبلغ

الف تينيغ بالربا ودون ان يعلم والداى . اليوم استطيع ارجاع هذا الدين ، فمتى استطيع ان افعل ذلك ان لم يكن فى الليل كاتـــم الاسرار ؟

فوافقته فى رايه :

– هذا صحيح . ورغم اننى اكره حتى الموت الدخول الى بيت كورى اشكامبه الا اننى لا استطيع ان ارفض طلبك ، فهيا بنا نذهب سوية .

* * *

نزلنا الى الطريق حوالى العاشرة فوجدنا الليل معتما لا قمر فى سمائه . ولم يكن من السهل السير فى مثل هذه الليالى فى طرقات بخارى الضيقة المتعرجة عديمة الانارة . ومن حسن الحظ ان الثلج ذلك اليوم كان قد هبط فاستطعنا الى حد ما تمييز موضع خطانا فى الضوء الخافت المنعكس منه فتجنبنا الاصطدام بالبيوت والاسيجة ، والوقوع فى الحفر .

كنا قد وصلنا حى كيمو ختغاران حيث يعيش كورى اشكامبه عندما سمعنا خلفنا دربكة جواد . كان ذلك هو الحارس وجماعته يطوفون فى الطرقات ، وكانوا يصيحون باعلى اصواتهم ويقرعون الطبول المعدنية المثبتة بقربوس السرج . ذلك ان الحارس وجماعته انفسهم كانوا يخافون من اللصوص وقطاع الطرق ولا يجراون فى الليل على الاقتراب منهم ، بل كانوا يعمدون الى اصطياد الناس الابرياء الذين يصادفونهم فى طريقهم وينتزعون منهم فدية ، اما من يمتنع او لا يستطيع تقديم هذه الفدية فانهم كانوا يودعونه السجن .

ارتبكت وصاحبى فى البداية ولم نعرف ما الذى يجب عمله . فاذا لجانا الى الهرب فان جماعة الحارس ستعرف مباشرة باننا اناس ابرياء فيطاردوننا ويلقون القبض علينا ، واذا سرنا فى طريقنا والتقيناهم فان الحارس سيرى باننا لا نخافه واذن فالطريدة جاءته بنفسها .

اما صاحبى فقد كان خوفه لا يقبل المزاح ، فاذا وقعنا فى

ايدى هؤلاء فان ذلك يعنى ان يدفع الفدية من النقود التى يحملها الى كورى اشكامبه ، وقد يقبضون علينا ويضعوننا فى السجن وهذا يعنى افتضاح السر الذى اراد صاحبى اخفاءه عن والده بكل السبل .

طمأنته ، واكدت له ان ليس هنالك ما نخافه ، ثم اشرت له ان يسير خلفى . اما انا فرحت اتسلل بحذر محاذيا الجدار . وعند دكان بائع اصباغ كادت فرقة الحارس ان تلحق بنا . اختفينا فى ظلمة احد الدكاكين ورحت انتزع بيدى طابوقة غير كبيرة من الجدار متهيئا لكل المفاجآت .

صاح البعض من جماعة الحارس بنا نية ان يعرفوا فيما اذا كنا من قطاع الطرق اذ لمحونا نختفى فى ظلمة الدكان :

– من هناك ؟

الا اننى بدل ان ارد عليهم رميت الحجر فى اتجاههم فتصوروا اننا من قطاع الطرق . فادار الحارس جواده ، وهو الذى كان يسير فى مؤخرة مجموعته ، ولاذ بالفرار مدركا به باتجاه سوق الفحم قاصدا مركز حراسته الواقع قرب السوق العامة . وباثره هربت مجموعته وقد كفت عن الصياح وقرع الطبول . وعندما اختفوا عن انظارنا خرجنا من ملجئنا . درنا حول المستنقع الذى تصب فيه مياه فى كيموختغاران القذرة ، واستدرنا الى اليسار داخلين الزقاق الذى يقع فيه بيت كورى اشكامبه .

* * *

اشار لى صاحبى ان اقف الى جانب البوابة بهدوء وحذرنى من احداث اى صوت او ضوضاء :

– إن خمّن كورى اشكامبه اننى اصطحب معى غريبا لن تُفتح بوابته ابدا .

ابتعدت الى جانب ، وطرق صاحبى البوابة .

كان كورى اشكامبه ينتظره كما يبدو فى المجاز الضيق المؤدى اليها فقد هتف فى الحال :

– من الطارق ؟

– انا من تنتظر يا عم كورى فافتح البوابة !

فتح كورى اشكامبه درفة من البوابة ، الا انه صرخ فجاة وهو يلمحنى ، وسحب الدرفة اليه فزعا ناويا غلقها . الا ان صاحبى لم يمهله كى يفعل ذلك فقد سحبها بدوره واضعا قدمه بين الدرفتين قائلا :

– لا تخف يا عم كورى انه صديقى !

ثم التفت نحوى داعيا اياى للدخول ، ولم يدخل هو الا بعد ان رآنى ادخل قبله . وضع كورى اشكامبه المغلاق فى مكانه وقفل عليه بالقفل جيدا ولم يتبعنا الا بعد ان تاكد من مناعته .

كان المجاز شديد الظلمة والضيق ، واذ كنت اتحسس الطريق بيدى تبينت بابا كان يؤدى كما يبدو الى قسم الحريم من البيت . عبر كورى اشكامبه هذا الباب الى آخر يجاوره ففتحه لنا ، اتضح وراءه ثمة سلم حلزونى ، راح كورى اشكامبه يرتقيه فى الظلمة داعيا ايانا كى نتبعه .

صعدنا السلم ونحن نعتمد بايدينا على الجدار متحسسين درجاته باقدامنا ، فادى بنا الى ممر صغير مكشوف يطل على المجاز ، وينتهى بغرفة بابها من درفتين ، تقوم احداهما مقام الشباك . فيما كانت ثمة ستارة تقابل تلك الغرفة ، فى الجهة الثانية من الممر المكشوف ، مر كورى اشكامبه تحتهـــا وفتح بابا ، ثم دعانا الى الدخول .

وجدنا انفسنا اخيرا فى غرفة شديدة الظلمة ، لم نر فيها شيئا ، فوقفنا لا ندرى اين نجلس . عبرنا صاحب البيت الى الزاوية الامامية فتناهى منها حفيف غامض ، فرفع رفيقى صوته متسائلا :

– ما الذى تفعله هناك يا عم كورى ؟

– ابحث عن الفانوس . . .

ثم اعقب :

– هل اجد عندك علبة كبريت ؟

فرد صاحبى وهو يبحث فى عبّه وجيوبه :

– لا ، ليس معى .

واضفت بدورى :

– وكذلك انا .

سمعنا كورى اشكامبه يضرب ارضية الغرفة بقدمه . فسالته :

– ما الذى تفعله يا عم كورى ؟ هل ترقص هناك ؟

فاجاب كورى :

– هناك من يسكن تحت هذه الغرفة وعلى صوت الضربة سياتى ليساعدنى باشعال الفانوس .

وما ان مرت فترة قصيرة حتى سمعنا فعلا وقع اقدام تتناهى من السلم فاشار كورى اشكامبه لمن كان واقفا هناك :

– هات فانوسك لاشعل منه هذا .

فسأل صاحبى من كورى اشكامبه :

– لماذا تطلب منه ان يجلب لك الفانوس بدل علبة الكبريت ؟

فاجابه :

– كل شىء فى بيتى يمشى وفق نظام صارم ، فخلال اليوم الواحد يجب ان لا يهدر اكثر من عود كبريت واحد ، وذلك عند الصباح عندما يقومون بتحضير الشاى . – ثم صمت برهة واضاف : – يعتقد الناس ان القرشين – ثلاثة التى فى حوزتى جاءتنى من الربا ولكنهم ليسوا على صواب ، فكل ما عندى جمعته بالحرص . وكما يقال «الحرص امام الموقد يخلق التجار» .

فخرجت عن صمتى وتمتمت :

– وماذا اذا انكسرت الزجاجة وهو يحمل الفانوس الى هنا ، هذا ممكن الحدوث ، والثلج الآن يهطل فى الخارج . الخسارة آنذاك تعادل الف مرة قيمة عود الثقاب .

فاجاب كورى اشكامبه :

– وماذا يهمنى من هذا ! الخسارة يتحملها صاحب الفانوس ، ولهذا فاننى طلبت ان يؤتى بالفانوس من قسم الحريم ولم اسمح ان يجلبوا فانوسى الخاص الى هناك !

– ومن هو صاحب الفانوس اذن ؟

اجاب كورى اشكامبه باسهاب :

– زوجاتى ! انهن يعملن بخياطة الطاقيات . سابقا كنت استلم منهن نصف اثمان الطاقيات مقابل تزويدهن بالفانوس

والكيروسين . الا انه اتضح ان النساء اكثر مكرا بالحساب منى فقد اعلن : «انك لا تصرف الكثير على الضوء لتستحق نصف اثمان الطاقيات !» وبعد هذا اخذن يصرفن بانفسهن على الانارة ولكنهن يستلمن كل اثمان الطاقيات .

فسالته ، ليس من غير ضغينة ، وانا انوه عن الحديث الذى دار بينه وبين بائع الطاقيات والذى كنت شاهده :

– افهم الآن السبب الذى جعلك تحاول بيع الطاقيات باغلى سعر . وهذا غريب ! فانت تدعي بحديثك عن الفانوس انك لا تكسب شيئا الآن من وراء زوجاتك ، فما الذى يجبرك اذن على محاولة بيع الطاقيات غاليا ؟

– اننى لا اعبأ بغير مصلحتى ! – هكذا اعلن كورى اشكامبه متبجحا بانه ياخذ هذه الطاقيات من زوجاته بسعر الجملة الذى يدفعه عادة تجارها ، ومن ثم يعطيها الى بائع من معارفه يبيعها له بسعر المفرد ، فيبقى الفرق من هذين السعرين حصة جيبه .

فقال له صاحبى : – اذن فانت تتعاطى التجارة ايضا ؟

اجاب كورى اشكامبه :

– نعم ، اننى اتاجر ، ولكن ليس مثل الآخرين . فانا لا ادفع بنقودى الى التجارة ، ولا احتجز لنفسى مكانا فى دكان لاعقد الاحاديث مع المشترين . اننى اتاجر ولكن من غير مصاريف ومن غير جهد .

جاء احدهم فى هذا الوقت ووضع فانوسا مضيئا عند الدرجة الاخيرة من السلم ، فذهب كورى اشكامبه وجلبه الى الغرفة ليضعه على منضدة صغيرة واطئة . اخفض فتيله وراح ينتزع الزجاجة ، ويبدو انها كانت ساخنة وقد احرقت اصابعه لانه اخذ ينفخ فوقها مرددا : «اوخ اصابعى !» . . فقلت له :

– لم تمسك الزجاجة من غير منديل او خرقة تقيك !

– حسنا فعلت عندما لم استخدم منديلا او ردنا لذلك فالم الاصابع يزول ولكن ماذا لو احترق المنديل او الردن ! كنت اصبت بخسارة اكبر بالطبع !

وعندما ولّى الم انتزع كورى اشكامبه قشة من الحصيرة التى كانت تغطى ارضية الغرفة ، حاول ان يشعل بها فانوسه من نار الفانوس الآخر ، واذ فعل ذلك حمل فانوس زوجاته ومضى الى

السلم ثم عاد ووضع فانوسه على منضدة واطئة مغطاة ببطانية حفرت تحتها حفرة صغيرة لتستوعب فحم التدفئة .

كان فانوسه صغيرا استطعنا رغم ضوئه الشحيح تبيّن ترتيب الغرفة . ثمة بساط رخيص عتيق على الارضية ، تآكلت حافاته فى كثير من الامكنة . اما البطانية التى كانت تغطى منضدة موقد التدفئة فقد كانت قذرة حقا كما وصفها كورى اشكامبه لرحيمى قند عندما قال له بانها لا تختلف عن خرقة توضع على ظهر الحمار لامتصاص عرقه . واما المراتب الموضوعة حول المنضدة فقد كانت اكثر قذارة من خرقة حمار لا ينقل غير الازبال .

مكثنا فى اماكننا واقفين وسط الغرفة مستنفظين الجلوس على مثل هذه المراتب ، فدعانا كورى اشكامبه الى الجلوس :

– تفضلا ، رجاءا ، خذا راحتكما .

جلسنا نلملم اطراف صايتَيْنا خشية التلوث بالمرتبة التى جلسنا عليها والبطانية التى تغطى منضدة غرفة «الاستقبال» هذه . مددنا ارجلنا تحت المنضدة آملين ان نصيب شيئا من الدفء ، الا ان البرد هناك كان اكثر منه فى الخارج ، فاضطررنا الى سحب ارجلنا تحتنا ، وعلق صاحبى على ذلك :

– يبدو انك تصنع ثلجا تحت المنضدة بدل الفحم فارجلنا تكاد تجمد من البرد ! – فدهش كورى قائلا :

– ايعقل ان يؤثر عليك مثل هذا البرد الطفيف ! الآن افهم اى جلد طرى عند ابناء الاغنياء . .

فتدخلت فى الحديث :

– ليس عند الطالب القروى جلد طرى كما هو معروف ومع ذلك فرجلاه تجمدتا ايضا من البرد ، وهذا يحدث حتى للبعير فى مثل هذا الشتاء القارس فكيف الحال بالناس اذن الذين يدخل الثلج فى مِدسهم ؟ ! اخرج وامش فى الشوارع المغطاة بالثلج لتعرف كيف تجمد الارجل فى ذلك البرد ! – فرد كورى اشكامبه :

– ولكننى جئت لتوى من الشارع ، ولقد مررت باكثر من منطقة ، نصف المدينة قطعت وليس على قدمى غير المداس الجلدى والاسمال الممزقة ، ورغم هذا لم اشعر ببرد ! فهل هذا يعنى ان رجلى اقوى واكثر تحملا من خفوف البعير ؟

فقال ابن التاجر : – بل يعنى ان جلدك اكثر سمكا من جلد الفيل .

تذكرت مثلا معروفا «وهل يشعر الفيل بوخز العصا التى يساق بها الجاموس» ثم توجهت الى صاحب البيت متسائلا :

– اسمح لى ان اسالك عما اضطرك الخروج الى الشارع فى مثل هذه الليلة الثلجية . .

– اضطرنى ؟ . . سؤال غريب ! كنت عند اصحابى اتناول العشاء والشاى معهم . ولو لم اكن مرتبطا بهذا الموعد اليوم لمررت على بيوت اخرى يتعشون فيها بوقت متاخر ولما عدت منها الى بيتى الا فى منتصف الليل بعد ان اكون قد شبعت تماما .

– وهل تتعشى بعض الاحيان فى بيتك ؟

فضحك كورى اشكامبه :

– ابدا ! ولم اشعل النار فى موقدى وابذر النقود التى احصل عليها بشق النفس اذا كنت اجد عند الاصدقاء الرز والخبز حاضرين . والذين يفهمون قالوا «البديع فى بيت الغريب انك لا تشغل نفسك بكيفية الحصول على الماء والحطب» . – وتفكّر كورى اشكامبه برهة ثم استدرك : – لم اقل لكم الحق كله ، فاننى اكل فى العام مرتين فى بيتى ! – فقال صاحبى :

– لا ! اننى لا اصدق هذا ، لا يمكن ان اصدق انك تهدر النقود على تحضير الطعام !

فهتف كورى اشكامبه :

– خذ هذا ! انا لا اهدر النقود ! ان زوجاتى يصرفن الكثير من مالهن الخاص على المآتم التى يقمنها على ارواح اهاليهن شهرى محرم ورجب !

فسال صاحبى ساخرا :

– ولم لا تقوم انت باعباء المآتم فلا تجعل المال يتسرب منك ؟

فقال كورى اشكامبه متحسرا :

– هذا صحيح . اننى شديد الرغبة لان افعل هذا ، ولكن زوجاتى – وآه من النساء طويلات الشعر قصيرات النظر – لا يقبلن

بهذا . فهنّ يدعين باننى اخدع حتى الرب ، آخذ النقود ولا اقوم بقراءة القرآن كما ينبغى ، هذا هو الحال .

هكذا انهى كورى اشكامبه حديثه متنهدا ثم اضاف :

– لا بأس ، فاننى وجدت طريقة مثلى للحصول ولو على جزء من هذه النقود .

فسألت : – وما هى هذه الطريقة ؟

– اعتادت زوجاتى ان يكلفننى بدعوة ثلاثة مقرئين لاحياء طقوس المآتم ، ويسلمننى سبعة تينغات لكل واحد منهم ، ملفوفات على حدة فى ثلاث ورقات . الا اننى الحق دائما فى المجاز بانتزاع تينغين من كل ورقة ادفعهما الى جيبى واما الباقى فاحمله الى مقرئى القرآن . والنتيجة ان كل واحد منهم يستلم خمسة تينغات اما انا فاستلم ستة .

– قلها صريحة انك تسرق ستة تينغات هى من نصيب مقرئى القرآن .

فاعترض كورى اشكامبه ممتعضا :

– اى سرقة هذه ! ان المقرئين يستلمون النقود مقابل قراءة القرآن ولكنى اجيد ذلك خيرا منهم ! واذا كانت زوجاتى الحمقاوات يجهلن ذلك فان الرب لا يمكن ان يجهله !

وقال صاحبى : – احادثيك الطويلة يا عم كورى لا تدفع البرد عنا فاذا اردت ان تستلم النقود اسرع بجلب الفحم . لقد تجمدت قدماى وتخشبت يداى ولن استطيع ان اجلس بعد هكذا اكثر ، دع عنك ان اعد النقود .

فقال كورى اشكامبه وهو ينهض من مكانه : – انك تعرف كيف تصيب الهدف والى اين توجه السهم . – وضرب بقدميه ارضية الغرفة مستطردا : – تهددنى بالامتناع عن دفع النقود ان لم اجلب الفحم ، هذا يعنى انك تصيبنى بسهم قتال فى اوجع موضع !

ولم تمض دقيقة حتى تناهى الى سمعنا وقع اقدام . نزل كورى اشكامبه الى تحت وجلب وعاءا حديديا ، الرماد فيه اكثر من الفحم ، وضعه بين اقدامنا تحت المنضدة المغطاة بالبطانية ، فسألته :

– لم وضعت الوعاء فى مكانه هذا من غير ان تزيح عنه الرماد؟

– لهذا حكمة ايضا .

– اى حكمة ؟

– ستفهم فيما بعد !

ورغم قلة الدفء ذاب الثلج الذى كان لاصقا بمداسينا ، فقلت :

– قبل قليل كانت هناك ثلاجة تحت المنضدة اما الآن فقد تحوّلت الى حفرة فيها ماء مثلّج !

فداعبنى كورى اشكامبه مذكرا اياى بشكوكه القديمة حولى :

– لابأس ان تبقى عندك ذكرى عن بيتى كبرميل ماء بارد فذلك يخفف من حرارتك ويجلب لى الهدوء فى نفس الوقت .

وشت كلمات كورى اشكامبه هذه ببقاء بعض الشكوك فى نفسه .

قال صاحبى : – هيا اخرج دفترك لننهى هذه القضية بسرعة فنذهب . البقاء فى هذا البيت فترة طويلة خطر ، دقيقة اخرى ونتجمد !

نهض كورى اشكامبه وهو يشير لصاحبى انه يرغب التحدث معه على انفراد ، ثم خرج من الغرفة . فغمز صاحبى لى بعينه وتبعه . تهامسا برهة وراء الباب ، ذهب اثرهما كورى اشكامبه الى مكان ما . اما صاحبى فقد عاد الى مكانه ضاحكا ، فسألته :

– ما هذا الجو من الاسرار ؟

– اى اسرار ! كل المرابين على شاكلة واحدة ، يقول انه لا يستطيع ان يستلم منى النقود بحضورك ويبقيها فى البيت ، لا يثق بك . ذهب لاحضار شخص يثق به . ويقول بانه ، لا بأس ، سوف يستلم النقود منى بحضورك ويسجلها عنده ثم نخرج جميعا سوية لنذهب نحن فى طريقنا . اما هما فيذهبان الى مكان معلوم لديه ليضع فيه النقود كى ترى بعينيك ولا تفكر انه يبقيها فى البيت .

شعرت بالاهانة وانا استمع لما يقوله صاحبى ولكننى هدأت اذ فكرت بانه لا يجب الاهتمام لقول مجنون ، فمثل هذا الشك المقيم لا يمكن ان يكون الا علامة من علامات الجنون ! بل اننى شعرت بالعطف على هذا المسكين الذى يعذب نفسه طيلة حياته بخوف موهوم لا اساس له .

كنت افكر بهذا عندما عاد كورى اشكامبه فسأله صديقى :

– ماذا ؟ ألم تجد صاحبك ؟

– لم اذهب اليه بعد فقد تذكرت قضية هامة جدا اضطررت الى العودة بسببها . – واقترب منا اكثر شارحا لنا جوهر هذه القضية الهامة : – انتما تعرفان بعضكما البعض جيدا ، وكل منكما يميز صوت صاحبه جيدا ، فما الداعي اذن لابقاء الفانوس مضيئا وانتما لم تفعلا شيئا فى غيابى غير التحدث ؟ هذا تبذير لا مبرر له ، مصرف زائد ، سأطفئه واخذه معى الى تحت ، وعندما اعود اشعله ثانية من فانوس زوجاتى وآنذاك نستطيع ان نتحاسب على ضوئه ، اليس هذا صحيحا ؟

وقبل ان نفلح بالرد عليه ، اختطف الفانوس وحمله الى تحت وهناك خنق ضوءه !

* * *

– ما دمنا اصحاب ونعرف بعضنا البعض باصواتنا فى الظلمة ، هيا بنا نتحدث اذن عما يعن لنا . – هكذا افتتحت حديثى مع صاحبى وواصلت : – ها انت ابن تاجر غنى ، واموالك كما اعرف كلها تحت تصرفك . فما الذى دفعك لاستدانة النقود من مراب ؟ بالنسبة لى ، انا الفقير ، لا استطيع ان افهم هذا . واننى اكون جد سعيد لو صارحتنى بذلك ، وستدفع قصتك هذه عن نفسى الغم الذى جاءنى من الحديث مع هذا المخلوق التافه البائس .

– وماذا فى ذلك ، لقد ائتمنتك اسرارى واصطحبتك معى الى هنا . فاسمع اذن من اين جاءنى هذا الدين . انت تعرف باننى اجلس فى دكان واحد مع والدى ، وهو امّى يجهل الحساب . ولعلك لاحظت ان كل النقود والحسبات فى يدى . واحيانا اصرف على نفسى من نقود الدكان ، وغالبا ما صرفت الكثير ، خمسمئة تينغ ، بل والف . ويحدث احيانا انه يتوجب علىّ ان احمل النقود الى البنك او ادفع التاجر عن بضاعة مباشرة بعد هذا الصرف . وهكذا اضطررت الى الاستدانة لأسد هذا النقص من غير ان يعرف والدى عنه شيئا . ومن بعد آخذ من الدكان مبالغ صغيرة واجمع النقود لاسد الدين والفوائد المترتبة عليه .

قلت : – لا بأس ، هذا يحصل فى احسن العائلات . ولكن ما الذى يدعوك للتوجه الى مثل هذه الدابة ؟ لِمَ لا تذهب الى الهنود او الى اى مراب آخر غيره ؟

– اخشى افتضاح السر ان ارتبطت بمرابين آخرين فيعرف والدى . اما كورى اشكامبه فانه يعطى راسه للقطع ولا يفشى السر . لهذا السبب استدين المال من هذه «الدابة» .

* * *

قطع وقع اقدام اعتراف صاحبى . عاد كورى اشكامبه الى الغرفة يحمل فى يده الفانوس وكان ثمة شخص بصحبته . وضع كورى الفانوس على المنضدة فعرفنا على ضوئه هوية القادم معه ، كنا نعرفه حارسا لمستودع الشركة الروسية «القفقاس وعطارد» .

نزل كورى اشكامبه الى تحت مرة اخرى وجلب دفترا . ثم انخرط هو وصاحبى فى الحسابات حتى استلم كورى اخيرا النقود منه ، فيما استلم صاحبى من كورى ورقة الدين ، مزقها ووضعها فى جيبه . ونهضنا بعد ذلك بنيّة الخروج .

فقال كورى اشكامبه ، وهو يعطى الفانوس للحارس ، ماسكا دفتره بيد ، وبيده الاخرى يحمل وعاء الفحم الذى خبا فيه كل اثر لنار بعد ان تحول كل الفحم الى رماد : – انتظرانى سنخرج سوية !

فسألته : – وما الذى تنوى ان تفعله بهذا الرماد ؟

– ليس كل ما هنا رماد ، هنا ايضا قليل من الفحم . ولو وضعت كل الفحم فى الحفرة تحت المنضدة لتحول كله الى رماد ، اما وقد وضعته فى الوعاء فاننى استطيع نقله الآن الى غرفتى حيث انام لادفئ به قدمى قبل النوم .

نزلنا من السلم الى المجاز ، ومن هناك خرجنا الى الشارع . وكان كورى اشكامبه قد نادى على زوجاته وامرهن ان يغلقن البوابة ولا يفتحنها لاى طارق . ثم توجه هو والحارس الى السوق العامة . اما انا وصاحبى فقد درنا حول المستنقع الذى يشغل حيزا ملحوظا من حى كيموختغاران واوسعنا الخطى باتجاه البيت . وكان الثلج ما يزال ينهمر بغزارة بحيث كانت اقدامنا تغوص فيه حتى الارساغ . واما البرد فقد اصبح لا يطاق .

١٠

مـــا دمت قد ذكرت صاحبى – ابن التاجر الغنى فى سياق حديثى عن كورى اشكامبـــه يمكننى الآن اذن ان اعرفكـــم به عن كثب .

يعود الفضل فى تعرفى على هذا الشاب للشاعر المرحوم محمد صديق خيرت * ، الذى كان واحدا من اقرب اصدقائى .

كان ابن التاجر الشاب انسانا طيبا لم تغرّه ثروة والده ولم يطغ ويتغطرس بها كما يحدث فى كثير من الاحيان مع شباب متمكنين آخرين ، بل انه لم يقيم علاقات صداقة مع ابناء الذوات الذين كانوا يدرسون فى نفس المدرسة مفضلا جماعتنا عليهم .

كان والده انسانا من طراز خاص . فقد كان يخفى جهلـــه بالقراءة والكتابة لا عن الغرباء فحسب بل وعنى انا ، صديق ابنه . كنت غالبا مـــا أمرّ بدكانه ، واحيانا كان يستلم رسالة تتعلق باعماله فى الوقت الذى لم يكن فيه ابنه المتعلم فى الدكان ، فيضطر الى دعوتى هاتفا :

– تفضل رجاءا واشرب الشاى معنا !

كنت اقعد الى دكانه ، فيخرج الرسالـــة ويمدها نحوى ، فأسأله :

– هل تريد ان اقراها ؟

– لا ، لقد قراتها . ولكن هناك بعض الكلمات غير واضحة . لقد شخت وعيونى اخذت تضعف . ارجو ان تقرأ لى فى الامكنة التى اشير اليها .

ثم يبدأ يشير الى «بعض الكلمات» التى هى فى واقع الحـال النص المهم من الرسالة والذى يأتى عادة بعد السلامات التقليدية . وكان ثمة خط يفصل بين هذا النص وبين تلك السلامات لتسهيل مهمة القراءة . كنت اقرأ له بعض السطور منفصلة عن بعضها ، فكان

---

* محمد صديق خيرت (١٨٧٦ – ١٩٠٢) شاعر طاجيكى ، تلميذ احمد دانيش المنوّر الطاجيكى فى القرن التاسع عشر . كان صديقا لصدر الدين عينى . **الناشر** .

عندما يفشل فى اصطياد المعنى منها يطلب منى ان أبدأ القراءة اعلى من الاول .

ثم يجبرنى بعد ذلك على قراءة فقرات اخرى منها ، وهكذا حتى يكون فى النهاية قد سمع الرسالة كلها من بدايتها الى نهايتها ، عدا مقدمتها طبعا التى لم تكن تحوى على شىء يذكر .

كان يحب ان يجعل من نفسه ملاّ . وكان عندما يفرغ مـــن اشغاله احيانا يدعو اليه اى ملا من عابرى السبيل فيعقد معه نقاشات عن موضوعات دينية يعرفها بالسماع فقط . وكان يحاول احيانا ان يشركنى ايضا فى هذه النقاشات الا اننى كنت اتهرّب من ذلك متحججا باعمال تشغلنى لا تقبل التأجيل او بعدم تحبيذى وحبى للنقاشات بصورة عامة ، فكان ردا على ذلك يبتسم بسخرية ويقول لائما :

– عندما لا يعرف الشيخ شغلته جيدا يتحجج بضيق المكان فى المسجد . . . ثم يتحول العجوز الى الوعظ والارشاد مستطردا : – لقد اغواك الشعر شر غواية ، ولم تعد تفكر بالكثير من المسائل الاهم . يجب ان تعرف ان لا طائل من تصديع الراس بقراءة اشعار الآخرين ونظم القصائد ، فهل سمعت عمرك بشاعر اغتنى من شعره ؟ عليك ان تطرح جانبا الاعتقاد بامكان تجميع رأس مال من تعاطى الشعر .

كان عارفا باصول الشريعة .وكان يحاول دائما ان يجعـــل خطواته تتماشى واحكام الدين ، فاذا اراد الدخول الى المرحاض فهو بالتاكيد يفعل ذلك مقدما ساقه اليسرى ، اما اذا اراد الدخول الى البيت او الى المسجد فهو يقدم ساقه اليمنى ، وكان هذا شغله الشاغل دائما ، ولم يحدث فى يوم ان خرق هذه القاعدة وكان لا يكتفى بالالتزام بها بعناد بل وينصح الآخرين على الاقتداء به ، وقد ضيق الخناق على ابنه كى يتبع اصول الشريعة كما ينبغى ولم يكن يسمح له بالتدخين رغم ان الكثيرين كانوا يدخنون فى بخارى . ولكن هذا لم يكن يعيق ابنه لا عن التدخين ولا عن شرب النبيذ ، الذى حرمه الاسلام وكان هذا التحريم يطبق فى بخارى اشـــد ما يكون التطبيق .

كان هذا التاجر بخيلا يدقق بنفسه مصاريف البيت ، وكان قد منع ابنه منعا باتا من صرف قرش واحد لحاجاته الخاصة لا داخل البيت ولا خارجه . الا انه سمح له باقامة وليمتين فى العام ، تحت

اشرافه ، لاصدقائه . وكانت احدى هاتين الوليمتين تقام عادة فى البستان العائدة اليهم . اما الثانية فكانت تحيى – خارج المدينة ايضا – فى مزار الحاج بهاء الدين اثناء النزاهات التى تصاحب عادة عيد «الخشخاش الاحمر» * .

كان عدد المدعوين لا يتجاوز الخمس – ست اشخاص ، يقوم الوالد نفسه باختيارهم ، يُضم اليهم ابنا العجوز الاصغران ، وخادم واحد . الا ان صاحبى لم يكن يتقيد بهذا النظام فكان يدعو كل اصدقائه سرا الى هاتين الوليمتين .

وفى اليوم المحدد لاستقبال المدعوين كان يعطى العجوز ابنه الرز والسمن وارغفة الخبز المصنوعة فى البيت على عدد الزوار الذين عيّنهم ، كما انه كان يشترى اللحم والجزر والبصل بنفسه بما يناسب عدد الضيوف هذا . ثم كان يأمر بتحضير عربته الخاصة ذات العجلات الصغيرة لنقل المدعوين الى مكان الوليمة . وبعد ذلك يجر ابنيه الصغيرين الى جانب ويشد اذنيهما لينقلا له كل ما سيجرى فى الوليمة من مصاريف اضافية وامور ربما رتبها ابنه الاكبر خفية عنه .

كنت احضر هذه الولائم ضمن المدعوين الذين يختارهم الاب العجوز ، فكنا نضع المواد التى اعطاها لنا فى الخرج ، ثم ننقله الى العربة ، وننطلق فى طريقنا .

وما ان كنا نخرج من المدينة حتى يوقف صاحبى العربة ويسأل اخويه الصغيرين :

– هل تريدان ان نستخدم عربة مكشوفة ؟

– نريد ! نريد !

– حسنا ، ساستاجر واحدة على شرط ان لا تخبرا ابى بشىء .

– لن نخبره ! لن نخبره !

---

* عيد ربيعى يقام عادة مع تفتح بواكير الازهار ، يخرج فيه سكان آسيا الوسطى الى الضواحى واماكن الراحة «لقطف الزهور» محتفلين بنوروز . اما الحاج بهاء الدين فهو من صوفيى القرن الرابع عشر ومن مؤسسى الفرقة النقشبندية . يقع مزاره بالقرب من بخارى ، يحجه الناس فى الاعياد والمناسبات .

وكان يذهب الى البورصة ويستأجر عربتين عصريتين جديدتين مزودتين بجياد اصيلة مطهّمة . نجلس فيها ونواصل سيرنا . وفى الطريق تحمّل العربة بكل الخيرات ، اضافة الى المواد التى اعطاها العجوز لنا .

وفى الوقت الذى نصل فيه مكان الوليمة ، يصل ايضا الضيوف الآخرون الذين دعاهم صاحبى الشاب دون علم والده ، وفى عربات مكشوفة كذلك ، يكون صاحبى هو دافع اثمان استاجارها .

واما العجوز فقد كان فرحا بمكره ، ظانا انه استطاع بهذه الطريقة الرد بمصاريف جد قليلة على الدعوات التى وجهت لابنه طيلة العام كله .

* * *

كان ذلك زمن برد شتائى قارس . وعلى خلاف المعتاد فى بخارى حيث الامطار قليلة ظلت الثلوج تهطل اسبوعا كاملا منذ ذلك المساء الذى كنا فيه عند كورى اشكامبه ودون ان تنقطع .

لم تكن هنالك باحات امام البيوت كالعادة ولذلك اضطر الناس الى ازاحة الثلج مباشرة من السطوح الى الشارع . وامتلأت الازقة الضيقة فى ذلك الشتاء بالثلج بحيث ان كثبانه كانت اعلى من سطوح البيوت . فكان اصحاب البيوت يشقون بالرفوش والمعاول ممرات ضيقة من ابوابهم بين كثبان الثلج وبعد ذلك يحفرون فى الثلج درجات يرتقون عليها الى الشارع .

كانت ملابسى لا تدفع عنى غائلة البرد فى مثل هذا الزمهرير ولذا قررت عدم الذهاب الى الدروس فى اليوم الاخير من اسبوعنا الدراسى وكان ذلك يصادف يوم الثلاثاء . اضطجعت فى حجرتى وقد تدثرت جيدا . وفى حوالى الساعة العاشرة سمعت طرقا على الباب . كان الطارق التاجر نفسه ، والد صاحبى ! دهشت جدا لمجيئه اذ لم يصادف ان زارنى من قبل مطلقا ، فتلبكت وبدل ان اقول «تفضلوا بالدخول رجاءا» سألت دون وعى منى :

– ما الذى حدث ؟

فسمعته يقول : – هل تستطيع المرور علىّ فى البيت .

اجبت : – حسنا .

ومن غير ان اسال واناقش مشيت وراءه . واما العجوز فلم يتلفظ بكلمة . لم يكن عندى ما اقله ، فسرنا صامتين . الا اننى خمنت من تعبير وجهه انه قد وقع فى مازق صعب جدا . وعندما دخلنا الى بيته فتح لى غرفة الاستقبال ، فجلست على كرسى بقرب منضدة واطئة مغطاة ببطانية . وبارتياح عميق مددت رجلىّ نحو الفحم المتقد .

جلب العجوز شايا وخبزا ووضعهما على المنضدة ، ثم جلس فى الجانب المقابل . ورحنا نشرب الشاى سوية . وكان يرمى نحوى نظرة خاطفة بين آن وآخر وهو سادر فى صمته . كنا بمفردنا فى الغرفة وقد اخذ الصمت يثقل علىّ فسالته :

– واين ابنك ؟

– فى الدكان ، يجلس بدلا عنى عندما اغيب عنه اذ لا يمكن اغلاقه فى النهار .

– ولم تركت الدكان فى حمية السوق ؟

– عندى شغلة مهمة معك !

كنت حائرا : اى شغلة يمكن ان تكون للعجوز عندى ! انه لم يقصدنى فى اى يوم لغرض او هدف ان لم تاخذ قراءة الرسائل بنظر الاعتبار ، وهو كان يطلب ذلك منى فقط فى الحالات التى لا يجد فيها ابنه الى جانبه . فما الذى حدث ؟ ايكون قد علم بدين ابنه ويريد ان يعرف منى كم بذّر هذا ؟ كيف اذن ارد عليه ؟ قول الحقيقة يعنى الخيانة ، واما التستر فيعنى الكذب . . صمتُ ارزح تحت وطاة الافكار فيما ظل هو متحصنا بصمته بعناد ، يوجه نحوى نظراته كما لو انه يحاول فهمى وتقييمى بهذه النظرات !

سالته وقد مللت البقاء فى دوامة الغموض هذه :

– اى شغلة لك عندى ؟

وكما لو انه استيقظ من غفوة نبر العجوز :

– نعم ، نعم . . عندى لك رجاء ولكنى لا ادرى ان كنت ستلبيه ام لا .

– ان استطعت . .

– لا احد غيرك يستطيع !

– طيب ، قل لى ما هى المسالة ؟

– اريدك ان تسافر الى قرية روزموز فى منطقة فابكيندسكى .

– المسافة من بخارى الى روزموز ليست بمثل قرب حجرتى الى بيتك ! انها تعادل اربعة سانغات * . واعتقد انك توافقنى ان الذهاب بمثل هذا البرد الى هناك ليس بسيطا .

– لن تذهب مشيا على الاقدام بل ساسرج لك جوادى الخاص !

– ملابسى خفيفة وستبتل بالمطر والثلج ، ولا صاية جوخ ولا ما يدفع عنى المطر عندى .

– هذه توافه . ساعطيك بدلتى الخاصة ولن تحس فيها ببرد او رطوبة .

قال العجوز ذلك ثم عاد الى صمته . يبدو انه فكر فيما اذا كنت ساعتبر صايته فيما بعد ملكى . ولم اخطا ، فقد اضاف بعد دقيقة :

– كنت اعطيتك بدلتى الى الابد ولكن المصيبة اننى لا املك غيرها ، غير انى سارد لك جميلك اما بالشاى او بالنقود . انا لا اريد معروفا من غير جزاء .

– ان كنت سالبى رجاءك فليس ذلك من اجل البدلة بل لعلاقة الصداقة التى تربطنى بابنك ، والرجل العاقل لا يهلك نفسه فى مثل هذا الجو من اجل النقود !

فقال العجوز فرحا : – بارك الله فيـــك . لقد سمعت بان الغيشدوفانيين على استعداد للذهاب الى الموت من اجل الصديق . اما الآن فقد تاكدت من هذا .

لمس العجوز نقطة الضعف فى . كنت فى ذلك الوقت ما ازال غيشدوفانيا احمق ، شديد الحماقة . وكنت احسب ان الغيشدوفانى ان لم يلب نداء الصداقة فانه سيجلب العار الى عشيرته كلها . وفى تلك اللحظة كنت اعتقد بانى ان لم انفذ طلب والد صديقى فان قومى الغيشدوفانيين سيقولون حتما «انت لم تطرق الطريق الصعب كرامة لعين صديقك ، اذن فقد كللت بالعار رؤوس الغيشدوفانيين واهنتنا امام اهل المدينة . فتبا لك ولعارك !»

هذا الاعتقاد هو الذى جعلنى اقرر واقول :

---

* السانغ : وحدة قياس طول تساوى ٨ كم . **الناشر** .

– حسنا ، كرامة للصداقة سامضى مهما حدث !

ولما رأى العجوز الاثر الذى تركه علىّ بمداهنته تلك اراد ان يلعب بى اكثر :

– كان عندى خادم امين شجاع اسمه عبد النبى مرض ، فسافر الى قريته وهناك مات . انت تعرف بهذا . اما ابنى فتعوزه الجراة للاسف ، انه لا يستطيع ان يخرج من المدينـــة شتاءا اذا خلت البوادى والحقول من الناس ، اضافة الى ان المكان المقصود هو قرية ورزموز حيث تقطن عشيرة القديس فيضى * ، ولكن ليس ابنى وحده من يخاف الذهاب الى هناك فى مثل هذا الوقت من العام وانما ابناء المدينة كلها ايضا . واما من يذهب الى هناك فانه يفقد اما ملابسه واما جواده . ولانى اعرف انك من الغيشدوفانيين الذين لا يهابون شيئا فقد قررت ان اجور معك فاعتمد عليك !

فهتفت بمباهاة غيشدوفانية معروفة :

– اننى لا اخاف احدا او شيئـــا ! ومن هم احفاد القديس فيضى ؟ ليُبعث فيضى نفسه من القبر فيقطع طريق ترانى ازيحه عن دربى بغير عناء . متى يتوجب الذهاب ؟

– اليوم ، الآن !

– فى هذا الوقت المتاخر ؟ ولكنى ان بدات الاستعداد للسفر الآن فساكون جاهزا الساعة الواحدة ظهرا ، فلا يبقى لمغيب الشمس غير اربع ساعات ، وهذا لا يكفى للوصول الى روزموز بخاصة فى مثل هذا الجو الصعب .

وهنا تكمن صعوبة هذه السفرة ، اذ يتوجب المغادرة هذا اليوم بالذات . يجـــب ان تاتينى غدا بشخصين مـن هنـــاك ، احتاجهما هنا صباح الخميس . واذا لم نفلـــح بهذا فـــلا معنـى للسفرة كلها .

– اوخ !.. ليكن ما يكون !

فراح العجوز يسرج لى جواده . وجلست انا اقلب الفكر بما

---

* القديس فيضى : متمرد مشهور من قرية روزموز . كان يقوم بالسطو على بيوت الاغنياء والجباة فينتزع منهم الاموال . عاقبه الامير مظفر برميه من منارة جامع بخارى الكبير . **المؤلف** .

ينتظرنى فى طريق هذه الرحلة الطويلة وسط الثلج المنهمر والجليد الذى يغطى الاماد . وسرعان ما عاد العجوز الى الغرفة قائلا بحمية :

– تفضل رجاءا ، الجواد جاهز .

فسالته : – ولكن اشرح لى فى نهاية الامر ، الى من اتوجه واى شخصين آتى بهما ؟

فضحك العجوز : – هذا صحيح ، لقد نسينا التفاصيل فى غمرة الحديث عن الصداقة والطريق . .

ثم مد يده الى جيبه الجانبى واخرج رسالة مختومة سلمها الىّ مصيفا :

– يوجد فى روزموز شخص محترم جدا هو ارباب حاتـــم . تذهب اليه مباشرة وتعطيه هذه الرسالة وعلبة الشاى الذى وضعته فى خُرجك . اما هو فسيجد لى الشخصين المطلوبين ويبعثهما معك .

حشرت الرسالة فى جيبى الداخـــلى ، وارتديت صاية الجوخ العائدة للعجوز ، ثم خرجت من الغرفة . قذف العجوز الخرج على ظهر الجواد ثم حرره وقاده من رسنه الى الشارع .

امتطيت الجواد ، ثم اخذت السوط من يد العجوز ، الذى اخرج من عبه رغيف خبز بيتى سميك واعطاه لى قائلا :

– من الصالح جدا ان تحمل معك رغيف خبز اثناء الطريق فذلك فيه كل الخير ويقيك من شرور كثيرة .

ثم رفع يديه هامسا بدعاء وهو يمررهما على وجهه :

– ليحفظك الله ولينزلك دربك !

وضعت رغيف الخبز فى عبى ونخست الجواد بقدمى منطلقا به .

* * *

كان السير فى طرقات المدينة المعمورة بكثبان الثلوج صعبا جدا ولذا تعجلت الوصول الى الطريق العريضة المطروقة الموصلة الى بوابات المزار ، رغم ان ذلك كان يطيل من طريقى . وعندما اصبحت خارج البوابات توجهت بمحاذاة اسوار المدينة حتى جانب ساحة ماشكى سربس ووصلت الى بوابة سمرقند التى يمتد منها طريق تقود الى غيشدوفان مباشرة .

لم يكن الثلج كثبانا على الطريق العريضة فقد داسته حوافر الجياد والحمير وعجلات العربات وحولته الى نثار اسود اللون يشبه الاسفلت . فكان جوادى يزلـــق باستمرار فيكاد يلامس الارض ببطنه . وكان كل ما حولى ، الحقول والاحواض والحفر والجداول ومسايل المياه والقنوات ، مغطاة بثلج ساطع يعشى الابصار .

وكانت المياه فى الجداول المحاذية للطريق مرتفعة ، تلامس الجسور وجوانب الطريق . اما اشجار الصفصاف والغَرَب والتوت النامية على الجانبين فقـــد كانت تذكر وقد كساها الثلج الابيض الاشجار المشمش المزهرة فى الربيع . وللاسف لم يكن بالامكان التمتع طويلا بمرآها فقد كان الضياء المنعكس عنها باهرا بحيث لم تكن تقوى العيون الصمود امامه .

لم يكن ثمة مخلوق حى فى البادية ، الا اسراب الغربان فقد كانت تسبح فى الثلج كانها الدجاج فى سحب الغبار ، كانت مضطجعة بصدرها على الثلج تغرفه بارجلها وتدفعه تحت اجنحتها ، ثم كانت تغمر رؤوسها فى نديفه كانها البط يدفع رؤوسه فى الماء . لو كان فى استطاعتى اعادة تسمية المخلوقات لاطلقت على الغراب اسم «طائر الثلج» . لم يكن يكدر صفو هذه البادية الميتة غير نقيقها الشديد العالى .

لم يكن يبدو للعيان اى مخلوق حى حتى فى شوارع القرى التى كنت امر بها . وليس من علامة لحياة غير بعض دخان كان يلوح هنا وهناك فوق اكواخ الفلاحين يخفف قليلا من ضراوة فراغ تلك الحقول الصامتة .

عناما وصلـت قرية غالا – اسيّا التى تبعد بحوالى فرسـخ واحد عن بخارى كان النهار يوشك على الانتهاء ولم يبق لغروب الشمس غير ساعة واحدة تقريبا ، فرحت استحث الجواد بالحاح خشية مجيئ الليل بظلامه والبقاء وحيدا فى هذه البادية المهجورة ولكنه كان قد فقد قواه كلها . كان الزبد يعلوه تماما ، والبخار يتصاعد منه كما لو كان يتصاعد من قدر ، اما الجليد المتشبث بصهوته وذيله فقد كان يهتز مذكرا بشرائط ضفائر الفتيات . وكان خطر الوقوع على الارض يتهددنى فى كل خطوة غير موفقة يمكن ان يخطوها الجواد .

خلّفت قرية غالا – اسيّا ورائى وتوجهت نحو قرية يالانغى وكان سرب من الغربان يحلق امامى فى الهواء تارة ، وتارة اخرى يحط على الارض ، فيما كانت صقور كبيرة تهوّم عاليا فوقها فارشة اجنحتها ، وكان هذا قد اخاف جوادى فراح يتلفّت حواليه مرتبكا الا ان ضربات السوط اجبرته على التقدم الى الامام . . .

وعندما اقتربت من المكان الذى كانت الغربان تحلق فوقه رايت جثة حصان نافق ، لعل قوى المسكين خانته هنا ولم يعـــد بامكانه مواصلة السير ، او انه كبى فسقط محطما رقبته فتركه صاحبه بعد ان انتزع منه كساءه تاركا جثته لتنهشها الجوارح .

كان هناك عدد من الكلاب تدور حول الجثة ، تتنابح وتنتزع لحمها بانيابهم لتاكله بوحشية ، وتتعارك فيما بينها بين حين واخر مشتبكة ببعض بالمخالب والاسنان ، ثم تفض الاشتباك وتعود الى الأكل .

وكانت الغربان تتطاير من كل الجهات محاولة كل جهدهـــا وشجاعتها ان تنال نصيبها من الجثة ، فتنظر الكلاب اليها شزرا وتهرّ وتنبح ، اما الطيور فكانت تلوذ بالهواء هاربة لحين ، لا تحط على الجثة ولا تبتعد عنها ، حاسدة الكلاب على تلك الوليمة ، اسفة على القليل الذى قد يتبقى لها منها . شعرت بالقشعريرة وانا امر جانبا .

هبط الليل اسود كالقار . ولولا بياض الثلج الهامد عـــلى الجانبين يضيء الطريق قليلا لما استطعت تبين دربى ابدا . اصبح جوادى الآن يخطو بحذر مدهش ، متحسسا الارض بحوافره . .

* * *

وهنا خطرت لى فكرة «ماذا لو انزل عن الطريق ؟» سيسهل السير على الجواد فى الثلج الناعم ، وان صادفت جدولا او قناة او مستنقعا فليس ذلك مصيبة ، لان كل شيء جمد هنا بشكل طيب ، واذا كُسِر الجليد فى مكان ما فليس هناك ما يهددنى ما دام الجواد نفسه يستطيع تجنب هذا .

ولم افكر طويلا . فعلت كما خطر لى ، فكان السير على الارض

غير المطروقة مريحا فعلا . سار الجواد بحرية اكثر وكانه يدوس على تربة صلدة . وعندما كان يصادفه جدولا او حفرة فانه كان يجتازها بسهولة . الا ان الشيء الوحيد الذى كان يقلقنى هو اننى لم اكن على ثقة تامة من ان طريقى الجديد يقودنى الى هدفى . فماذا لو انى فقدت الاتجاه الصحيـــح فجاة ووجدت نفسى فى الاتجاه المعاكس ؟

كنت اتلفت طيلة الوقت متفحصا ما حولى ولكننى لم اكن ارى شيئا غير امتداد البادية المغطاة بالثلج دون ان تلوح اية علامة لانسان .

مرت ساعة تقريبـــا ، واذا بى ارى فجاة ، على مبعدة الف خطوة ، عمودا اسود من الدخان تتطاير منه الشرر ويتصاعد نحو السماء . خمنت اننى وصلت سوق يالانغى . وكان الدخان يتصاعد بطبيعة الحال من تنور مخبز السوق او من موقـــد فى باحة احدى الخانات .

شعرت بشيء من الطمانينة اذ عنى ذلك اننى لم انحرف عن الطريق مسافة كبيرة . وسقت جوادى باتجاه الشمال مباشرة .

وبعد مرور ساعة اخرى رايت امامى حقلا عريضا محروثا ومتروكا ، تغطيه كتل ترابية كبيرة لم تهشـــم بعد فكانت تلوح للعيان حتى من تحت طبقة الثلج السميكة التى تغطيها .

قررت ان اقطع الحقل قطعا ولكن الجواد حاول العناد مذعورا ، ممتنعا عن التقدم خطوة واحدة الى الامام . ضربته بالسوط ولكن ذلك لم ينفع معه ، وكان تحت كل ضربة يهز راسه مزنخرا ولكنه لم يتزحزح عن مكانه . فنقلت السوط الى يدى اليسرى وضربته على بطنه ، لم يستطع تحمل هذا . ومن غير ان يقوى على مقاومة رغبتى خفض خطمه نحو الارض ثم خطا خطوتين الى الامام ، فغطست قائمتاه الاماميتان فى التربة كما لو انه يخوض فى سائل قذر. توقف . فرحت الهب بطنه بالضرب من جديد . فخطا خطوتين اخريين رغما عنه وفى نفس الوقت انبجس الماء من تحت قوائمه جميعا ، واحاطنا تماما . وسرعان ما وصل الماء الى الركاب وراح يسيل بين الكتل الترابية حولنا .

الآن فقط عرفت حقيقة المازق الذى وقعت به ، فما حاولت

عبوره ليس حقل كما بدا لى بل نهر زيرافشان الذى كان قد تجمد . والانهار سريعة الجريان تبدا بالتجمد فى درجات الحرارة الواطئة جدا لا من السطح كالعادة بل من القاع . وهكذا فالتيار يدفع الثلاجات المتجمدة وتتصل بها قطع جليدية اصغر ، تتصادم فيما بينها فيبرز بعضها الى اعلى ، فيبدو سطح النهر كما لو انه مغطى بقطع كبيرة من الصخور او التربة ، واذن فقد خلت فى الظلام نهر زيرافشان المتجمد حقلا محروثا . وعندما وصـــل الماء الى السرج فهمت اننى اصبحت فى مجرى النهر . نزلت مسرعا من متن الجواد على الجليد وانتزعت الخرج ورميته الى جانب ، الا اننى ظللت ممسكا باللجام خشية ان يتكسر الجليد تحتى فاسقط بين شقوقه ، فالتشبث بالجواد ضمان فى هذه الحالة لانقذ نفسى .

ثم تراجعت الى الوراء بحذر لمسافة سمح لى طول اللجام بذلك بها . ولما تاكدت من صلابـــة الجليد تحت قدمى اردت ان اترك اللجام الا اننى لم استطع فتح يدى فقد كانت قد تجمدت ببرونز اللجام . وهنا انتفض الجواد منتزعا اللجام من يدى بنفسه ، فالهب الالم راحة يدى وكان جرحا شق فيها وصب الملح فيه . الا اننى لم اكن مهتما بالالم قدر اهتمامى بالوصول الى الشاطىء . ولقد افلحت فى ذلك ، الا ان الجواد ظل يكافح فى الماء من غير طائل . خطا خطوة اخرى باتجاه التيار الا ان الجليد انكسر هناك ايضا ، فطمس فى الماء اكثر من السابق . مكث الجواد فى مكانه هادئا برهة من الزمن دون حركة وكانما يجمع قواه . ثم قفز ثانية باتجاه الشاطئ ، وراحت انفاسه وقفزاته تتوالى حتى وصل الى الشاطئ اخيرا . نفض عفرته بقوة ، ثم سكن وخفض راسه صافنا . كان يرتجف كانه اصيب بالبرداء ، وكانت قطع الجليد اللاصقة بشعر عفرته وذيله تصلصل وهى تصطدم واحدة باخرى .

لقد اصابنى البلل ايضا وكسى الجليد مداسى الجلدى واذيال صايتى ، وشعرت بالبرداء بدورى .

واعتمادا على حساباتى فقد كنت قد وصلت الى مكان لا يبعد كثيرا عن جسر مختار قاسم . وضعت الخرج على السرج . ثم امسكت برسن الجواد المبلل وقد سحبت ردن سترتى على يدى ، وقدت الجواد فى اتجاه الشرق .

لم اخطأ فى حساباتى . وجدت نفسى بعد ربع ساعة امام السوق العامة القريبة من جسر مختار قاسم ، وبعد بضعة دقائق اخرى كنت قد اصبحت الى جانب دكاكينها المسقفة .

* * *

طرقت باب اول شايخانة صادفتنى . استيقظ صاحبها وفتح لى الباب . ولما رأى معى جوادا ايقظ خادمه وامره ان يستلمه منى . واذ رأى ملابسى المبللة هيأ موقده واشعل فيه النار . نزع عنى ملابسى ونشرها لتجف فيما اعطانى صايته لاضعها علىّ . ثم خلع من قدمى حذائى ووضعه مع مداسى الجلدى الى جانب النار . الا انه لم يسمح لى ان امد نحو الموقد قدمى المتجمدين الذين تخشبا من البرد تماما ، بل لفهما بالبطانية الدافئة التى كانت فوق الموقد . ورحت اجلس امام النار الملتهبة الساطعة ، معرضا صدرى وكتفى لدفئها الحى . . .

وما ان نلت قسطا من الراحة والدفء حتى اخذت اشعر من جديد بالالم الحاد الذى كان يلهب يدى فقربتها من النار ورأيت انها كانت ممزقة بشكل عنيف . جمع صاحب الشايخانة من الجدران قليلا من نسيج العنكبوت ، وكان فيها ما يكفى ووضعه ضاغطا على جرحى ثم شد يدى بمنديل .

— لن يبقى شىء حتى الصباح . سيلتئم الجرح ولن تلحق لترى كيف التأم .

فعلا ، لم توجعنى يدى الا فترة قصيرة . وبعد خمسة ايام لم يبق اثر لمكان الجرح .

وبعد ان هدأت وعدت الى نفسى حكيت لصاحب الشايخانة ما حدث لى عند النهر . فقال لى :

— ما دام الامر هكذا ، يجب تدفئة الجواد ايضا .

ونادى على خادمه ثم امره ان يشعل نارا فى الاسطبل لتدفئة الجواد وتجفيف عدّته .

ولما فار الماء فى الاناء النحاسى اضاف صاحب الشايخانة له الشاى . وقطعت لى نصيبا من رغيف الخبز ، الذى اعطانى اياه العجوز والد صديقى لكى «يحفظنى فى الطريق من المكاره» .

اعادنى الشاى الساخن الى الحياة بصورة نهائية وشعرت بالحرارة تدب فى اوصالى . وسمح لى صاحب الشايخانة ان ادفع عن قدمى البطانية وامدهما نحو النار . وكان الموقد ما يزال حيا ، مفعما بالفحم الملتهب كانه الجلنار ، وضع صاحب الشايخانة المنضدة فوقه ، وغطاها بالبطانية . فاضطجعت متوسدا يدى ، حاشرا قدمى تحت البطانية . وبدون ان اشعر بشىء نمت .

كان الفجر قد انبثق فى السماء عندما فتحت عينى . طلبت ان يسرج لى الجواد . ولم يكن معى نقود لادفع لصاحب الشايخانة فاخرجت علبة الشاى التى وضعها لى العجوز فى الخرج لاسلمها الى ارباب واعطيت لصاحب الشايخانة منها جزءا صغيرا . هكذا عبرت له عن شكرى وامتنانى للراحة والرعاية اللتين احاطنى بهما . فقال لى مبتسما :

— لا داعى للشكر . فمن يسكن على الطريق عليه ان يبدى استعداده لخدمة عابرى السبيل الذين يصادفون فى طريقهم المشاكل . ولا يخفى عليك انه يحدث احيانا ان يزورنا اشبال حاملين معهم الغنائم فنضطر آنذاك للوقوف على قدم وساق لخدمتهم ورعايتهم ونستلم لقاء هذا جزءا لا بأس به من الغنيمة . وهكذا فان ما قدمته الان يكفى كثيرا لتقديم الخدمات المطلوبة لا مثالك من الناس .

كان يشير بكلامه هذا الى قطاع الطرق الذين كانوا ينزلون عنده بعد عمليات السلب التى كانوا يقومون بها .

واصلت السير فى طريقى ، وبعد عبورى جسر مختار قاسم سقت الجواد الى يمين الطريق باتجاه قرية روزموز ، كان الطريق اليها رغم الجليد القابع عليها افضل من طريق الامس ، فسار الجواد فيها واثقا مطمئنا . . .

* * *

وصلت روزموز فى العاشرة صباحا . سألت من المارة عن ارباب حاتم واين يعيش ، فاشاروا لى نحو بيت كبير ذى بوابة هائلة تكفى لمرور عربة محملة وبعير فى آن واحد .

قابلنى خادم فى مدخل البيت قادنى الى غرفة الاستقبال قائلا :

— ارباب موجود هنا !

كان ثمة شخص ضخم الجثة ، مجدور الوجه ، يجلس فى مكان الصدارة من الغرفة امام الموقد ، يبدو فى الخمسين ونيف من عمره كما تشى بذلك لحيته الطويلة الشائبة قليلا . وكان راسه الكبير يتربع فوق بنيان صلد . فكان يمكن اعتباره جميلا لولا حوَل عينه اليسرى .

كان امتلاء جسده يشير الى جودة تغذيته وطيب عيشه . وقد ارتدى ثلاث صايات ، اثنان قطنيتان تمنطق عليهما بحزام عريض ، وثالثة من الجوخ الجيد ذات لون ازرق سماوى . فيما لف راسه بعمامة وبرية بيضاء تتدلى احدى نهايتيها الطويلة على صدره .

وكان هناك عجوزان يجلسان فى الجانب المقابل من الموقد يشبهان بعضهما ولا يكادان يتميزان فى عن بعض بشىء ، فقد كان كلاهما احمر رفيع الوجه ، ذا عينين دامعتين لا اهداب لهما ، لكلاهما ايضا لحية عنز مدببة ، وشاربان قصيران . الا انفاهما فقد كانا يختلفان ،فلأحدهما انف افطس طويل حاد وللاخر محدودب معقوف .

كما انهما كانا يبدوان بعمر واحد بين الستين والسبعين . ولهما قامة نحيفة واحدة ملفوفة بلباسها باحكام . كان كل منهما يرتدى صاية مزررة خيطت من قماش بيتى النسج بنى اللون ، وعليها صاية اخرى خفيفة . وكانت نهايتا عمامتيهما الكبيرتين المعدتين من نسيج منشى تتدليان على صدريهما .

قرب العجوز ذى الانف الافطس ابريق شاى ، راح يصب منه السائل الاحمر الساخن .

وكالعادة المتبعة سلمت اول الامر على الشخص الجالس فى مكان الصدارة ، ثم اتبعت ذلك بسلام على العجوزين .

نهض الرجل الممتلئ قليلا وهو يرد على سلامى ، بينما اكتفى العجوزان بمد يديهما الى دون ان يتحركا من مكانيهما . ولما رايت انهما لا يعبآن كثيرا باصول اللياقة والمجاملة جلست دون انتظار دعوة لذلك فى الزاوية الخالية من الموقد ، فى مكان اوطأ من مكان الرجل الممتلئ ولكنه اعلى من المكان الذى جلس فيه العجوزان . وعلى العادة المتبعة رفعت يدى وتلوت الدعاء . فبدأ الرجل الجالس فى مكان الصدارة الحديث قائلا :

– اعتقد اننى لا اخطأ ان سألت من اين قدم الضيف وتفضل الينا ؟

فاجبت وانا اخرج الرسالة من عبىّ :– من بخارى .

الا اننى لم اعرف اى من الثلاثة هو ارباب حاتم . اذ لا يفرض بصاحب البيت الجلوس فى مكان اعلى شأنا من مكان الضيوف ،بخاصة ان كان هؤلاء من ذوى الاعمار الكبيرة . فاذن لا يمكن ان يكون الرجل الممتلئ هو ارباب حاتم .

الا ان تخمين اى من العجوزين الجالسين بمكان اوطأ من مكانه هو صاحب البيت كان صعبا . ولكن المتعارف عليه ان يقوم صاحب البيت بخدمة ضيوفه ، فمن المحتمل اذن ان يكون العجوز ذو الانف الافطس الذى كان يصب الشاى من الابريق هو ارباب حاتم نفسه . فمددت له يدى بالرسالة قائلا :– ابلغك تحيات كاتب الرسالة .

لم يستلم العجوز الرسالة من يدى وقال متعثرا بكلامه :

– اننى لا اعرف كاتب الرسالة ، بل لا اتذكر اسمه . ولعلك قد اخطأت .

– ولكن ، الست انت ارباب حاتم ؟

نظر ذو الانف الافطس نحو الرجل الممتلئ ضاحكا فابتسم هذا ايضا :

– انا ارباب حاتم . الفأل يقول ان جلس صاحب الدار اعلى من ضيوفه فان الاسعار ستنخفض . وها انا ذا اجلس اعلى من ضيوفى .

قدمت الرسالة اليه فاخذها منى وفض المظروف متوجها الى بالسؤال :

– هل بامكانكم القيام بقراءتها ؟

فابتسمت :– سوف نرى ، لعلى افلح فى ذلك .

بعد السلامات المعتادة والدعاءات كتب العجوز يقول : «ابعث الىّ بشاهدين اكثر دهاءا ، اتفق معهما على الدفع واكتب لى عن الموضوع» . وفى نهاية الرسالة يشير الى انه ارسل هدية علبة شاى * مع حامل الرسالة واعدا ارباب ان يقوم له بالخدمة فى

* فى الاصل : ليمجة شاى . والليمجة وحدة وزن تعادل ٤٠٠ غم تقريبا . **الناشر** .

المستقبل . وانهى رسالته بالتحيات وبتوقيع «خادمكم المطيع . .»

تركت الغرفة بعد قراءة الرسالة . فاخرجت علبة الشاى من الخرج ووضعتها امام ارباب ، وحكيت له كيف وقعت فى النهر وكيف توجب على اعطاء كمية منه الى صاحب الشايخانة . فقال ارباب حاتم :

– لا بأس . هذا الشاى نزل على من السماء ولا ضير ان تحمل الريح جزءا منه من جديد .

ثم نادى على خادمه وامره باحضار السفرة والشاى ، وان لا ينسى جلب الكازى * ايضا . واشار للعجوزين فخرج معهما سوية من الغرفة . ثم عادوا اليها بعد حين وهم يتهامسون فاتخذوا اماكنهم السابقة ، بينما جاء الخادم بالشاى والطعام . قطع ارباب الكازى ، ورحنا ناكل . .

وبعد قليل سألنى صاحب البيت :

– طبيعى انكم ستبيتون عندنا ؟

رددت بانه يجب على ان اعود الى المدينة مع الليل ، واعتذرت لعدم تمكنى من البقاء .

– اذا كان الامر هكذا فيجب اطعام الجواد !

ونادى على خادمه وامره ان يحل رسن الجواد ويقدم له علفا .

– ليس عندنا فى القرية كلها شخص واحد يستطيع الكتابة بخط جيد : وانت ، هل تعرف ان تكتب ؟

اجبت ارباب : – الى حد ما !

– هل تستطيع اذن ان تكتب لى رسالة الى الباى ** ؟

– بكل سرور .

– وهل تحمل قلما ؟

– لا ، لم اجلبه معى .

نادى ارباب على الخادم وامره ان يذهب الى امام الجامع بطلب قلم وورقة . ولكن الخادم عاد بعد خمس دقائق فارغ اليدين .

---

* الكازى : هو لحم الخيول يعد بطريقة خاصة مع مختلف انواع التوابل . يعتبر من المقبلات . **الناشر** .

** باى : كلمة تطلق على اغنياء القوم احتراما . **المترجم** .

– الامام ليس موجودا فى البيت . ذهب الى طاحونة دوستباى للدعاء على احد المرضى .

قال ارباب : – حسنا ، ولم الكتابة ما دام بالامكان نقل ما نريد كتابته شفاها . فلم يوافقه العجوز ذو الانف المحدودب :

– الافضل ان تكتب رسالة فتكون بمثابة وثيقة .

فنبر ارباب : – اذن ، جد لى قلما بنفسك !

فقال محدودب الانف : – استطيع الحصول على قلم ولكنى غير واثق من العثور على ورقة .

فهتفت : – اعطنى قلما وسنكتب الجواب على غلاف علبة الشاى !

انحنى محدودب الانف امامى قائلا :

– ليوفقك الله فى مساعيك كلها لعثورك على هذا المخرج .

ثم غادر الغرفة . وبعد قليل عاد يحمل قلما صغيرا جدا ، فسأله ارباب مرتاحا :

– من اين حصلت عليه ؟

– من اسطه رضا النجار . رأيته عنده عندما كانوا يبنون بيت باى نوروز ، كان يؤشر به على الالواح !

فعلق ذو الانف الافطس : – حسنا انه لم يفقده حتى الآن .

مد لى ذو الانف المحدودب يده بالقلم فاخذته منه . بريته بالسكين التى قطع بها اللحم . واهال ارباب الشاى فى منديله ، ثم اعطانى غلافه .

كتبت : «بعد السلام ، نحيطكم علما بأن . .» ونظرت الى ارباب متسائلا :

– وبعد ، ماذا اكتب ؟

– اكتب : «بعد الصلوات والف الصلوات على رسول الله ، ندعو لك اطيب الدعاءات ، ونرسل اليك اجمل التحيات . انا الفقير الى ربى ، الحقير ، المسكين ارباب حاتم . .»

فقاطعته : – لقد كتبت كل هذا ، قل لى ماذا تريد اخباره . .

مد ارباب والعجوزان رقابهم وتطلعوا الى ما كتب من كلمات ، حتى قال ارباب بغير ثقة :

– لقد قلت الكثير ولكنك لم تكتب الا القليل .

فرددت عليه : – اننى اكتب بحرف ناعم فالكلمة تشغل مكانا صغيرا عندى .

هز العجوز ذو الانف الافطس اصبعه مؤيدا قولى من مكانه فتظاهرت اننى لم افهم شيئا . فقال ارباب مواصلا الاملاء علىّ :

– اذا كان الامر هكذا فاكتب اذن : «ارسل اليك شاهدين داهيتين . احدهما هالك والثانى يحمل اسم رزيق» . واكتب ايضا : لقد اتفقت مع الشاهدين بانك ان كسبت هذه القضية فانك ستدفع لكل منهما خمسين تينغا . وان خسرتها فستدفع خمسة وعشرين تينغا . واما مصاريف السفر فستتحملها انت» . واكتب ايضا بانه يجب ان يقدم للشاهدين كل صباح الشاى والزبدة ، على ان يكون هناك الكثير من الزبدة . واما فى المساء فيجب ان يقدم اليهما الرز الدسم الجيد باللحمة . اكتب : «كما انه يجب تقديم العلف لحصانيهما ، برسيما وشعيرا» . واكتب ايضا : «لكم تحياتنا» . ووقع : «المسكين ابد الدهر ، الحقير ، ارباب حاتم من روزموز» .

لم اكتب بالطبع كل ما املاه علىّ ارباب بل ذكرت جوهر الموضوع فى سطور قليلة . طبقت الورقة اربع مرات ، وحشرتها فى جيبى الداخلى . ثم توجهت الى ارباب اسأله :

– حسنا ، واين هالك ورزيق ؟ علينا البدء برحلتنا اسرع ما يمكن !

فاشار ارباب حاتم الى العجوزين برأسه وقال :

– هذان هما .

ثم اضاف وهو يشير الى ذى الانف الافطس :

– هذا هو هالك .

وبرأسه ايضا اشار الى ذى الانف المحدوب واعقب :

– وهذا هو رزيق .

* * *

جاء هالك ورزيق على حصانيهما الى بوابة بيت ارباب حاتم ، فاعتليت بدورى جوادى . وتوجهنا ثلاثتنا الى بخارى . كانت الشمس فى سمت الراس وقد انتصف النهار .

كان حصانا صاحبى اتعس هيأة من جوادى ، الا انهما كانا يسيران على الثلج افضل منه ، سألت العجوزين عن ذلك فقال رزيق :

– لحصانينا حداو اما حصانك فليس له مثلها ، واذا كانت له فهى مكسورة . كان هالك يسير خلفنا فهو يرى حوافر جوادى جيدا ، قال : – ليست له حداو على الاطلاق .

وصلنا جسر مختار قاسم حيث تبدأ منه تلك الطريق السوداء الفظيعة ، فحدثت رفيقَىّ السفر عما حدث لى ليلة البارحة وكيف كان يمكن ان تنتهى بموتى وهلاك الجواد . اخذ العجوزان هذه «التجربة» بنظر الاعتبار وابتعدنا عن مكان الخطر .

وعندما وصلنا قرية غالا – اسيا كانت الشمس على وشك الغروب . وكان امامنا ان نصل الى البوابة قبل حلول الليل والا توجب علينا التوقف فى احدى الشايخانات لان البوابة تغلق فى الليل . كان ضروريا ان نسرع الجرى ، ولكن جوادى كان قد نزف كل قواه ولم يعد يستطيع مضاعفة الجهد بخاصة بعد ان اضطررنا الرجوع الى الطريق المغطاة بالجليد اثر عبورنا القرية ومصادفتنا الكثير من القنوات والحفر والمطبات بحيث اصبح متعذرا اجبار الجواد على توسيع خطاه . وقد كانت قوائمه اربع تزحف فى مختلف الجهات بعد كل ضربة اوجهها اليه من سوطى .

اضطر هالك الى التخلى عن حصانه لى بعد ان رأى حال حصانى ، اما هو فقد راح يمشى على قدميه ويسوق جوادى . وعلى هذا الحال وصلنا جميعا بوابة المدينة مع صلاة العشاء .

سلمت الباى ، والد صديقى ، «البضاعة» التى جلبتها له من روزموز ، وحصانه الحافى ، ورسالة ارباب حاتم . ونزعت البدلة التى اصبحت بعد تجفيفها امام النار يابسة كالخشب ، فسلمتها اليه ايضا . وبرغم الحاحه علىّ للدخول الى البيت لتناول الرز باللحمة واصابة شىء من الدفء ، اعتذرت عن قبول دعوته متعجلا العودة الى حجرتى . لم استطع النوم فترة طويلة رغم تعبى الشديد . بل يمكن القول اننى لم انم ابدا طيلة الليلة الفائتة فقد كانت الافكار تتخاطفنى حول الشاهدين اللذين جئت بهما . كنت افكر طيلة الوقت ، لماذا

سوف يُدفع لهما خمسون تينغا ان كسبت القضية ، ولماذا سوف يدفع خمسة وعشرون اذا فشلت ؟ وعلى العموم ، ما حقيقة هذه القضية الغامضة !

* * *

استيقظت فى التاسعة صباحا . شربت الشاى ، ثم خرجت الى الشارع . وكان شأن هذين «الشاهدين» ورسالة ارباب حاتم ما زال يحيرنى . لم يكن بالامكان حل هذا اللغز الا بالتشاور مع صديقى ابن التاجر ، فتوجهت اليه فى دكانهم . فوجدته وحده هناك لحسن الحظ .

جلست الى جانبه وحدثته عن سفرتى وعن رسالة ابيه الى ارباب والرد عليها . كذلك حدثته عن العجوزين اللذين ارسلهما ارباب الى هنا شاهدين . وسألته ما الذى يعنيه كل هذا . فقال :

– اننى اثق بك ثقة كاملة واعرف انك لن تفشى سرنا الى احد . . ان والدى يرتكب تجاوزا كبيرا على خادمنا القديم عبد النبى . خدمنا عشر سنوات كاملة لم ينل خلالها شيئا غير طعامه ولباسه . دع عنك اننى كنت اعطيه خفية عن والدى من صندوق الدكان اربع او خمس تينغات بين حين واخر . . .

شرب الشاى من القدح الماثل امامه ، ثم صب لى فى قدح آخر . واضاف :

– عندما مرض عبد النبى لم يعره والدى اهتماما فاضطر هذا الى العودة الى قريته الام حيث اخوته الفلاحين الفقراء . تغلب المرض عليه هناك وسرعان ما مات . بعد هذا اثار والدى قضية ضد اخويه يدعو فيها بانه سلّم عبد النبى قبل مرضه مبلغ الفين تينغ مقابل عمله عندنا مدة اربع سنوات قادمة ، وكما لو ان نصف هذا المبلغ دفعه والدى اليه مقدما ، اما عبد النبى فقد مات دون ان يعمل مقابل هذا المبلغ . اما الآن فان والدى يطالب اخوى عبد النبى بارجاع هذا الدين باعتبارهما ورثته .

قاطعته مستفسرا : – ولكنهم ما داموا فلاحين فقراء كيف يستطيع انتزاع مثل هذا المبلغ منهم ؟

– المهم بالنسبة له ان يركّب هذا الدين برؤوسهم ويجعلهم تابعين له ليثرى هو . واذا صدقت المحكمة هذا الدين فان والدى يعرف كيف ينتزعه منهم . انهم يعملون بالمياومة . وببساطة سيدفعون اليه كل ما يملكون ويتنازلون حتى عن اكلهم وملبسهم . وباختصار فانهم سيكونون عبيده طيلة حياتهم .

– وكيف سيتمكن والدك من تلبيس هذا الدين برؤوسهم .

فشرح لى ابن التاجر : – ولكنك جئت بالشاهدين المطلوبين اللذين سيؤيدان دعوى والدى . القضية نوقشت مرة واحدة يوم الثلاثاء الماضى فطلب القاضى اما ان تبرز الوثائق اللازمة لاعطاء هذا المبلغ او يُحضر شاهدان لتأييد الدعوى . والدى وعد باحضار الشاهدين يوم الخميس وها هما موجدان الآن للبث فى هذه الدعوى .

– ولكن هذين الشاهدين لا يعرفان عبد النبى ولا يعرفان ابيك ، فكيف يمكنهما اذن تقديم الدليل ؟

– اننى واثق من ان والدى لم يرهما ايضا من قبل . والبارحة بعد العشاء اخرجنى والدى من الغرفة واجرى معهما حديثا سريا خاصا . حاولت ان اتصنت لهذا الحديث ولكننى لم افز بطائل . يبدو انه علمهما كيف يسلكان اثناء المحاكمة ، ولكن ما الذى قال لهما بالضبط . . ذلك ما لم اعرفه !

– ما الذى قال لهما ؟ . . ليس صعبا معرفة ذلك .

ثم ودعته ومضيت الى بيت القاضى مباشرة .

* * *

كان هنالك الكثير من الناس يتجمهرون فى باحة بيت القاضى ممن كانت دعاواهم تنظر هذا اليوم . وفى احدى الزوايا كان الباى العجوز ، والد صديقى ، يجلس مع «شاهديه» الى جانب المتهمين ، اخوة عبد النبى ، الذين جلبوا معهم مختار قريتهم .

بعد فترة قصيرة تقدم فراش القاضى من الباى وقال له :

– تفضلوا للدخول رجاءا فقد حان دوركم !

صعد الباى مع «شاهديه» فى المقدمة ، يتبعهم اخوة عبد النبى ومختار قريتهم الى دكة عالية تقابل ديوان القاضى .

كان القاضى يجلس فى غرفته تحت النافذة مباشرة . وكان له وجها ضيقا يشبه وجه الطيور ، ولحية «ماعز» خفيفة لكنها جد طويلة ، واما عيناه فقد كانتا اشبه بعيون القرود ، ضيقتين ، باجفان ملتهبة لا اهداب لها ، واذناه طويلتين كآذان الارانب . فيما كان انفه الحاد المدبب اشبه بمنقار .

كان المشتكون والمتهمون يجلسون سوية على حصيرة فرشت على الدكة المقابلة للنافذة ثانين ارجلهم تحتهم ، وعندما استقر الباى واخوة عبد النبى على الحصيرة تفحصهم القاضى واحدا بعد آخر مضيقا فتحتى عينيه ، حتى سأل فراشه :

– هم م م ، ماذا هناك ؟

اجاب الفراش منحنيا له باحترام وهو يقدم اوراق الدعوى :

– لقد احضر الباى شاهديه .

امر القاضى نظرة على الاوراق ثم سأل الباى :

– لمن اعطيت هذين الالفين تينغ ؟

اجاب الباى مشيرا الى المتهمين :

– لعبد النبى شقيق هؤلاء الرجال ، ها هم ، اشقاؤه وورثته .

فسأل القاضى المتهمين ممررا عينيه الضيقتين على وجوههم :

– هل تعترفون بهذا الدين ام لا ؟

فنبر احدهم وهو الاكبر كما بدا .

– لعلنا نعلم متى نموت اما ان نعلم بهذا الدين فذلك اصعب ! نحن لا نعلم الا ان اخانا عبد النبى خدم عند هذا الشخص عشر سنوات لم يستلم خلالها اى اجر ، اما عندما مرض . .

قاطعه القاضى بخشونة : – لا تشذ عن الموضوع ! اجب : تعترف ام لا ؟

– لا ياحضرة القاضى .

وجه القاضى نفس السؤال الى الاخ الثانى فاصاب نفس الجواب . فاستفسر من المشتكى :

– هل عندك وثيقة ام شهود ؟

– شاهدان يا حضرة القاضى !

سلّم القاضى الاوراق الى الفراش امرا : – اخرجهم وابحث الامر معهم ! ان افلحت فبها الخير وان لم تستطع فارجعهم ثانية .

فقال الفراش منحنيا باحترام : – حسنا يا حضرة القاضى .

واشار اليهم ليتبعوه .

وعندما نزل الجميع من دكة العدل اعلن الفراش :

– اجلت قضيتكم الى السبت . نمنحكم يوما كاملا للتفكير بالقضية . فاذا تصالحتم نعطيكم ورقة بغلق القضية . واذا لا ، تحضرون السبت مرة اخرى امام حضرة القاضى . اما الان فهيا ادفعوا لى ثمن اتعابى !

اخرج الباى خمس تينغات واعطاها الى الفراش ، فهتف هذا : – انه قليل ! اليوم ، الغد ، ثم السبت ، هذه ثلاثة ايام . عن كل يوم تدفعون خمس تينغات ، فالمجموع اذن خمسة عشر تينغا ! فقال الباى وهو يمد يده الى جيبه :

– خذ منهم ايضا . وهاك منى تينغا آخر كى لا تضيع كلماتك هدرا . واعقب الفراش متوجها الى اخوة عبد النبى .

– جاء دوركم ، هيا !

فتح المختار حافظته ليدفع بدلا منهم فقال احد الاخوة بكامل صوته :

– يكفيه منا خمس تينغات !

فدهش المختار قائلا : – ولماذا ؟ الا تعرفون نظام الحكومة ! ما دامت القضية جارية يدفع الطرفان بالتساوى المصاريف . اما عندما تنتهى فالقاضى هو الذى يقرر من الذى سيدفع كل هذه المصاريف .

وسحب من الحافظة اثنا عشر تينغا وسلمها الى الفراش ، فقال هذا وهو يرمق المتهمين بنظرة متسلطة :

– هيا ، ارضوا المختار ايضا !

فاعترض المختار :

– يكفى اننا ارضيناك انت . اما نحن فسنتفق بعضنا مع بعض .

وتفرق الجميع بعد ذلك .

اسفت لان القضية لم تحسم هذا اليوم فقد كنت راغبا جدا الاطلاع على نتيجتها ، وفكرت : «هل استطيع الحضور لمشاهدة الجلسة يوم السبت ، وهو يوم دراسى حافل !» . كانت هناك ست محاضرات تنتظرنى وفى اماكن متفرقة متباعدة . ولكن احداها كانت

مع القاضى نفسه ، والدرس عين ليكون فى الساعة الحادية عشر ، فهل سيتطابق هذا الموعد مع موعد النظر فى هذه القضية ؟

* * *

يوم السبت كنت اركض كالمجنون من مدرسة الى اخرى ، اتعجل انتهاء كل المحاضرات للذهاب مبكرا الى ديوان القاضى . ومن الطبيعى ما كان تعجلى ليفيدنى لا فى اعادة ترتيب المحاضرات ولا فى تقصير وقتها . ورغم هذا ظللت متعجلا ، اترقب فرصة حضور المحاكمة ومشاهدة كيف سيتكلم شاهدى الزور المرتشيين .

وما ان انتهت المحاضرة الاخيرة حتى هرعت الى الشارع اكاد اجرى ، فوصلت بناية المحكمة قبل بدء الدرس عند القاضى بخمسة عشر دقيقة . فرايت البناية ، من الخارج والداخل ، ملأى بالناس المدعوين الى القضاء . ولكن من كنت ابحث عنهم لم يكونوا يلوحون لعينى .

جلست يائسا قرب الباب الى جانب زملائى فى انتظار بدء درسنا مع القاضى .

وشيئا فشيئا حضر جميع الزملاء . وكانت مجموعة الطلاب السابقة لنا قد خرجت لتوها من ديوان القاضى . فراحت مجموعتنا تتوزع فى رحاب الديوان حيث كان يجرى فيها القاء بعض المحاضرات على طلبة المدرسة . شكل الطلاب حلقة اشبه بالتى تعقد حول المداحين حيث يسرد هؤلاء على الاسماع سير الأئمة والانبياء ، وكان عدد الطلاب كافيا حتى كانت حلقتهم باتساع الديوان اجمع .

سمح لى حضورى المبكر اشغال مكان يقابل النافذة حيث كان القاضى يجلس فى القرب منها ، وكان هذا المكان عادة من نصيب اولئك الطلاب الطوال العراض الذين كانوا يقفون فى المداخل ولا يسمحون لاحد بالمرور ، كى يكونوا على مقربة من القاضى وفى مجال رؤيته .

واما القاضى فقد كان يفلح بين درس وآخر مع مجموعتين من الطلاب بالنظر فى بعض الدعاوى الماثلة بين يديه . وكان يقف الآن فى الممر مستجوبا بعضهم مستغلا الدقائق القليلة المتبقية لبدء الدرس .

عندما انتهى بحث القضية التى كان يستمع اليها قبل وصولى جاءت مجموعة اخرى من المتخاصمين وجلست على الحصير ، ثم اعقبتها مجموعة اخرى .

اتضح انهم من كنت انتظر . . الباى واخوة عبد النبى .

اصبحت كلّى اذانا صاغية . ولم احد بنظرى عنهم .

اخذ القاضى دعوى الباى من يد فراشه ، والقى نفس الاسئلة التى وجهها قبل يومين ، فتلقى نفس الاجوبة . آمر آنذاك الباى :

– ليتقدم شاهداك !

فاشار الباى الى «شاهديه» اللذين جئت بهما من روزموز ، وكانا يقفان وراء ظهره ، فجلسا جنبا الى جنب الباى . . .

ساورنى امل ان يعلن القاضى زيف هذين الشاهدين بعد ان يستمع اليهما ، فيرفض شهادتيهما ، بل ويرميهما فى السجن ايضا . . سمح القاضى لهالك اولا بالكلام وكان يجلس متقدما عن اصحابه بعض الشىء :

– اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم . اشهد امام الرب دون كذب ان المرحوم عبد النبى ، اخ هؤلاء (واشار بيده نحو المتهمين) استلم من الباى دينا بحضورنا ، وذلك عندما كنا فى ضيافته ، مبلغ الفين تينغ ، اى ما يعادل ثلاثمائة روبل روسى من اوراق البنكنوت ، على ان يعمل مقابلها عند الباى مدة اربعة اعوام .

القى رزيق ايضا نفس الشهادة ، فاستحق بنفس «النزاهة» مبلغ الخمسين تينغا .

وخلافا لتوقعى نظر القاضى نحو المتهمين قائلا :

– واذن فالدين الآن على عاتقكم ، وكذلك مصاريف المحاكمة . يجب ان يُدفع كل شىء نقدا هنا ، فى ديوان المحكمة . والا فالسجن عقابكم . اما اذا اتفقتم مع الباى فيمكن اعداد وثيقة لاتفاق طويل الامد الآن وهنا ايضا .

هتف المتهمون :«حضرة القاضى ! حضرة القاضى ! . .» ناوين ان يشرحوا له شيئا ما . الا انه اغلق النافذة بصخب ، كانت الاوراق تنوب مكان الزجاج فيها ، ثم استدار نحو الطلاب ليبدأ محاضرته .

قفز المتهمون راجفين باكين من مكانهم نحو النافذة ليكلموا

القاضى . ولكن الفراش صرخ بهم بخشونة ، وجرهم بالقوة من دكة العدل . الا ان اصواتهم ظلت تصلنا وقد تهدم جدار الاحترام بينهم وبين الباى فراحوا يلعنونه بكل ما اوتى على لسانهم . حاول فراشو القاضى اخافتهم واجبارهم على الصمت فكانوا يصيحون «امسكهم ، شد وثاقهم ، خذهم الى السجن !»

لم ادر بماذا فكر القاضى ولكنه صمت برهة مطاطا الراس . خطر لى ان ضميره يؤنبه على الظلم الذى الحقه باولئك المساكين ، وانه نادم على الحكم الجائر الذى اصدره . اخيرا ، نظر نحو مراقب الفصل ، الذى يقرا دائما النصوص التى نناقشها ، وقال له :

– اقرا !

لم امهله لكى يبدا القراءة ، فقد رفعت يدى متوجهـــا الى القاضى :

– اسمح لى يا سيدى بالكلام . .

فقال لى القاضى مستغربا :

– ماذا هناك ؟

– القضية التى بتت فيها الآن يا سيدى اعرف جوانبها . الباى يكذب ، اما شاهداه فهما شاهدا زور . فهما لم يعرفا من قبـــل لا المرحوم عبد النبى ولا الباى !

قلت ذلك بتعجل وارتباك .

اما القاضى فقد غضّن شفتيه وظل ينظر نحوى بتفحص وامعان ثم افصح اخيرا :

– عوقب المتهمون بدفع الدين . اما انت فلا تستطيع ان تثبت بان الباى يكذب او ان الشاهدين مرتشين . واذا ما عرفا بانـــك تنعتهما بهذه الصفة فانهما يستطيعان تقديمك للمحاكمة بتهمـــة توجيه الاهانة اليهما . الافضل اذن ان لا تتدخل فى مثل هذه القضايا ، بل ان تحاول فهم دروسك اولا .

لم يبق لى بعد هذه العظة الا ان اصمت واخفض راسى . اما الابتسامات الساخرة التى رسمها بعض الزملاء على شفاههم فقد انبأتنى انهم يؤيدون القاضى فى كلامه فجعلنى هذا اخفض راسى اكثر .

ولحسن الحظ بدا الدرس . راح المراقب يتلو بصوت عال النص المعروض لمناقشة اليوم . وبعد ان انتهى القراءة اشتبك

الطلاب فيما بينهم كالديوك المتعاركة مختلفين على تفسير فقرة من النص ، فنسوا فى غمرة النقاش بطبيعة الحال ما كنت قد قلته . ظلوا ساعة كاملة يصخبون ويتبادلون الاتهامات دون ان يسمع او يفهم احد منهم ما كان يقوله الآخر . وفى الاخير لم يحتمل القاضى اكثر فراح يشتم الجميع :

– اوخ يا ايها الحمير ! اوخ يا ايها البلداء ! ايها الجهلاء ! اخرسوا ! الافضل ان تعرفوا ما الذى ارادان يقوله المؤلف المرحوم، غمره الله برحمته الواسعة !

عرفت من الفراش ان المتهمين الذين أدينوا عليهم ان يدفعوا بالاضافة الى الالفين تينغ ، مئة تينغ آخر عن مصاريف المحاكمة . والاكثر من هذا انهم القوا بهم فى السجن لانهم شتموا الباى .

بعد هذه الحادثة لم اسمع اى شىء عن الباى ، وعن ابنه ، فكل ما كان بمقدورى ان افعله هو ان اقطع علاقتى بهما .

١١

نعود الى كورى اشكامبه ، فقد عرفت بعض الاشياء عـــن ماضيه .

اطلق والده عليه اسم عصمت الله . وكان قليلا ما يذهب الى المدرسة . وما كاد يتعلم القراءة بعض الشىء حتى سحبه والده من المدرسة ودفعه الى مكان ليتعلم قراءة القرآن فختمه وحفظـــه غيبا .

مات والده فى ذلك الحين تاركا له ارثا مكونا من بيت وحجرتين فى احدى مدارس بخارى التى كان لهـــا الكثير من املاك الاوقاف ، فعادت هذه الحجرتان الى مالكها بدخل جيد .

اخذ كورى النبيه يدين الاموال ، التى تاتيه من اجار الحجرتين ومن قراءة القرآن فى البيوت ، لجيرانه ضعاف الحال وللتجار الصغار مقابل نسبة مئوية يضيفها عليها .

سرعان ما وجد له وسيلة اخرى لكسب المال . فقد صادق صبيان محلتهم وراح يعلمهم لعب القمار ، فكان يحصل لهم على ورق اللعب ، والكعاب ، ويحرضهم على الانخراط فى اللعب مقابل

نقود . كان يلون الكعاب ويبيعها لهم باسعار عالية . وكان عنده دائما فى عبه ورق لعب جديد يبيعه للمقامرين بثلاثة اضعاف سعره عندما يصيب البلى اوراقهم القديمة .

اصبح كورى يحصل على دخل ثابت من العاب القمار ، قائم على نسبة معينـــة من بنـــك اللعب العام . وكان يعتصر الخاسرين «الساقطين فى العبودية» * بأن يدينهم النقود حتى المساء التالى على ان يعيدوها اليه مضاعفة .

لم يكن كورى عصمت يصرف من امواله على نفسه شيئا . كان يتغدى مع اولئك الذين يقطنون حجرتيه . اما فى المساء فقد كان يأكل حتى الشبع بجلوسه على مائدة المقامرين ، الذين يجلبون معهم من البيت متاعهم وزادهم .

الا ان صداقته مع صبيان المحلة لم تستمر طويلا . ففى احد الايام استمر لعب القمار من المساء حتى الفجر . وفى النهاية اجروا الحساب فتبين ان بعضهم خسروا كل ما فى جيوبهم ، بل وانهـــم استدانوا ايضا من كورى عصمت ، فيما وجد البعض الآخر انهم رغم محالفة الحظ لهم اكثر من مرة فقد اتضح ان النقود فى جيوبهم هى فى نهاية اللعب اقل منها فى بدايته ! وضع الجميع نقودهم على المائدة مقررين التأكد فيما اذا كانت توافق حساباتهم . سأل احدهم :

– كم كان عندك من النقود فى المساء ؟

– عشر تينغات .

– وانت ؟

– عشرون . .

وهكذا حسبوا ما كان فى جعبتهم قبل اللعب واضافوا له ما استدانه الخاسرون من كورى عصمت . ثم جمعوا كل ما فى حوزتهم آنذاك فاتضح انه لا يساوى حتى نصف ما كان عندهم قبل اللعب . فدهش الاصحاب :

– اين ولّت النقود اذن ؟

---

* كان مقامرو بخارى يعتبرون الخاسر «ساقطا فى العبودية» اى عبد الرابح . ولم يكن الخلاص من هذه العبودية ممكنا الا بدفع الدين الباقى فى ذمة الخاسر . **ملاحظة المؤلف** .

فقال احدهم فجاة :

– ولكننا لم نحسب ما اعطيناه لكورى عصمت !

هتف الآخر ناظرا اليه : – فعلا ! هيا ، هيا ، اخرج ما عندك لنرى ان كان ذلك يتوافق مع حساباتنا ام لا . شد كورى عصمت رفرفى صايته حوله بشدة قائلا :

– هذا ما كان ينقص ! كلا ، كلا ، لن اريكم نقودى مطلقا !

فاقترح عليه احد الشبان بلهجة مؤدبة : – ارنا اياها لنحسبها فقط ونردها اليك .

تمسك كورى برفرفى صايته بقوة اشد قائلا بلهجة حاسمة :

– قلت كلا ، وهذا يكفى !

فهتف احدهم مشتبكا بكورى : – ان لم ترض بالطيب فسنفعل ذلك بالاكراه ! وهجم الاخرون عليه يعينون صاحبهم ، اخفى كورى راسه بين كتفيه ، ضاما ساقيه الى بعضهما ، حتى اصبح اشبه بقنفذ مرعوب . طرحه الشبان على الارض الا انه راح يتدحرج مثل الكرة . ولم يستطع احد ان يفل يديه وساقيه المضمومة الى بطنه فينتزع حافظة نقوده من جيبه ويظهرها الى اعين العالمين .

– صاح احدهم : – اضربوه !

فانهالت القبضات الصغيرة على راســـه كالمطر ، وافلت احدهم ضربة غير محكمة على يا فوخ كورى فصاح الاول متألما وهو ينفخ يده :

– آه ما اصلبها من راس ! الويل لك يا كورى !

ثم اختطف حجارة كانوا يستعملونها اثناء اللعب وانزلها على راس كورى عصمت .

جاءت الضربة جد قوية فسال الدم من راسه المشجوج وبغير ارادة منه تداعى وافلت يديه عن صايته . اخذ الشبان الحافظة ونزحوا جميع ما فى جيبه من نقود جمعها كورى خلال تلك الليلة . وزعوا ما عثروا عليه فيما بينهم ، ثم ادوا الصلاة واقسموا على ان لا يلعبوا القمار ثانية ولا يسمحوا بذلك لاحد من محلتهم . اما كورى عصمت فقد طرد الى الشارع وأمر ان يذهب الى البيت . الا انه لم يكن يقوى على السير ، وكان راسه ما يزال ينزف دما ، وهكذا تهاوى على مقعد الصوفى وظل مضطجعا عليه . . .

عرفت والدة الشاب ، الذى كان يجرى اللعب فى بيتهم ، بأمر الشجار . فجاءت من الغرف الداخلية ، ولما رأت كورى عصمت اشفقت عليه ، فوضعت على جرحه قطعة شاش وشدت له راسه . ثم اخذته الى احدى الغرف واضجعته على سرير ولم يفق كورى عصمت على نفسه الا بعد ساعة وليس الا آنذاك جرجر قدميه الى بيته .

بقى لكورى من هذه الحادثة تذكار ، ندبة اشبه بصلعة فى قمة الراس . فاستطاع كورى ان يستغل حتى هذه الندبة ليحصل منها على فائدة ، فقد كان يدفع للحلاق بسببها نصف ما يدفعه الآخرون .

* * *

عندما فقد كورى عصمت دخله من القمار تحول كليـــة الى الاشتغال بالربا ، وكان يعمل بشتى الوسائل للحصول على دعوات الغداء والعشاء عند مدينيه ، وعند طلاب المدرسة الذين يؤجر لهم حجرتيه .

وعندما تجمع لديه راسمال لا باس به ترك صفقات الربـــا الصغيرة ، التى كانت محفوفة بمخاطر فقدان النقود دائما وتحول الى التعامل مع التجار الكبار ، الذين لم يكن الدين يضيع معهم ابدا . اما اذا حدث وافلس احدهـــم فانه يحاول اقصى جهوده ايفاء كورى عصمت حقه ، لانه يعرف جيدا ان هذا يستطيع ان ينفعه مستقبلا .

وكما يروى كورى اشكامبه فانه حدث مرتين فى شبابه ان هدد الضياع نقوده . فقد افلس احد الايام شيخان من علية القوم كانا قد استدانا منه مبلغا كبيرا ، الا ان كورى رغم ذلك استطاع الالتفاف حول القدر ، فاخذ من الشيخين ، مقابل ذلك ، ابنتيهما زوجتين له دون ان يدفع تينغا واحدا لنفقات العرس . فكن هن من تحدث معى من وراء الباب عندما ذهبت الى كورى اشكامبه اول مرة .

واذ اقام كورى عصمت الصلات ، وعقد الصفقات ، مع التجار الكبار فانه تخلص نهائيا من حاجته لشراء اللحم والسمين لبيته . كان يذهب كل مساء الى احد مدينيه فياكل عنده ويشرب حتى الشبع والارتواء .

اصبح كورى يسمن بسرعة كبيرة ، واتسع بطنه اكثر فاكثر . فاضاف الناس الى اسمه آنذاك كنية «اشكامبه» التى تعنى كما ذكرنا «المعدة» ، فاصبح اسمه كورى عصمت اشكامبه . الا ان الكثيرين كانوا يستثقلون التلفظ بالاسم كاملا ، فتحول اسمه شيئا فشيئا الى «كورى اشكامبه» حسب .

* * *

وقت تعرفت بكورى اشكامبه قيل ان راسماله وصل حدود الخمسمائة الف تينغ ، اى ما يعادل خمس وسبعون الف روبـــل ذهبى .

كان كورى اشكامبه يحتفظ بالنقود ، التى لم يعطها بالربا الفاحش بعد لاحد ، فى البنك . وفى احد الايام حدث ما كاد يفقده ثقته بالبنك الى الابد ، وقد جرى ذلك هكذا :

كان كورى اشكامبه يحتفظ بنقوده فى البنـــك الروسى – الصينى ، او البنك الروسى – الاسيوى . وهو من البنوك التجارية التى كان لها فروع فى بخارى آنذاك .

وقد كانت بناية البنك تقع فى شارع ضيق يبدا من مجمع لمعامل صغيرة ويمتد بمحاذاة شبكة من الازقة ، ثم يجتاز تل بوشتايزاغان حتى يصل بوابة المدينة .

وراء بوابة البنك كان يقف حارس مسلح . وفى احد الايام ، بعد انتهاء اشغال البنـــك واغلاقـــه ، حدث ما افزع كورى اشكامبه .

كان جميع الناس قد غادروا البنك عدا مستخدميـــه . وفي هذه الاثناء تسلل الى البنك بشكل غير ملحوظ عشرة اشخاص او اثنـــا عشر ، يرتدون جميعهـــم الملابس الاوربية . وقفوا جميعا بصـــف واحد ملتصقين بالجدار بحيـــث لم يكن باستطاعة الحارس رؤيتهم من فتحة الباب .

طرق اولهـــم البوابة ، ففتح الحارس شقا ضيقا فيهـــا قائلا :

– الساعة الآن الثانية والبنك مغ . .

وقبل ان يفلح بقول ما يريده عاجله الطارق على البوابـــة

بضربة وارتمى عليه منتزعا منه سلاحه . وهب الباقون فى اثره الى الداخل . اغلق احدهم البوابة ، واجبر آخرون الحارس على الصمت مهددين اياه باسلحتهم ، فلم ينبس هذا بحرف خشية على حياته . طرحوه على الارض وانتزعوا منه بدلته الرسمية ثم ربطوا يديه ورجلية ، بينما شغل مكانه احدهم ، الذى كان قد ارتدى ملابسه . واما الآخرون فقد صعدوا ومسدساتهم فى ايديهم الى الطابق الاعلى حيث كان مستخدمى البنك ينهون اعمالهم ويقيدون حساباتهم فى دفاتر السجلات .

– ارفعوا ايديكم !

اضطر المستخدمون الى الاذعان لمشيئة المسلحين ، وارتعب بعضهم بحيث لم يبدوا حراكا من اماكنهم ، ووقع البعض الآخر على الارض فاقدا وعيه . اخرج افراد العصابة حبالا من عبوبهم وشدوا وثاق المستخدمين ، ايد وارجلا ، ثم كمموا افواههم ورموهم على الارض . قطعوا سلك التلفون بعد ذلك ، وراحوا يقومون بعملهم : كسروا الخزائن ، نهبوا الاموال والمستندات الثمينة ، ثم وضعوها فى اكياس البنك الخاصة وخرجوا بها بعد ان هددوا مستخدمى البنك ، تاركين منهم شخصين لحراستهم . فتح زميلهم ، الذى كان يقف مكان حارس البنك ، لهم البوابة واخرجهم . فيما ظل هو مرابطا فى مكانه «يحرس» البنك . وبعد برهة هبط اللذان ابقيا لحراسة الاسرى وهربا مع صاحبهم ، بعد ان اغلقا البوابة بقفل كبير . وهكذا استطاعوا الافلات جميعا بنجاح .

ولم يستطع مستخدمو البنك التخلص من كماماتهم وقيودهم الا بعد مرور خمسة عشر دقيقة ، كان اللصوص خلالها قد وصلوا بالطبع مكان بعيد .

* * *

تجمع الناس على صياح مستخدمى البنك وهرجهم . وما ان انتشر الخبر حتى حضر رئيس الحراس الليليين ، ومساعد رئيس الحامية العسكرية والرئيس نفسه . كسروا القفل ودخلوا الى البنك . وبعد الاستفسار راحوا يبحثون عن اللصوص ، الا انهم لم يعثروا على اى شخص يثير الاشتباه .

ارسل رئيس الحامية العسكرية فرقة كاملة من الجندرمة الاميريين المختارين الملقبين بـ «القفقاسيين» لانهم كانوا يرتدون بدلات الجيوش القفقاسية . فبحث هؤلاء فى جميع ارجاء المدينة وضواحيها الا انهم لم يعثروا على غير اكياس البنك الفارغة التى سرقت فيها الاموال ، مرمية عند حدود مستنقع شوركول وراء بوابة المدينة الشمالية .

ارسلت فرقة الجندرمة باتجاه الشمال ايضا الا انها لم تعثر ايضا على اثر للصوص .

وليس الا جماعة من المطاردين كانت قد توجهت الى الجنوب الشرقى من المدينة صادفت فى طريقها ثلاثة من الغربباء بالقرب من محطة سكك حديد مورغاك . حاولوا القاء القبض عليهم الا ان هؤلاء فتحوا النار فجرحوا احد المطاردين وفر الباقون نافضين ايديهم من المطاردة .

وهكذا لم يلق القبض على اللصوص .

بعد هذا الامر حدثت بعض التغييرات فى اعمال البنوك الموجودة فى بخارى ، اذ لم يعد احد منها يبقى امواله بعد ذلك فى المدينة ، بل كانت ترسل حال الاغلاق الى كاغان حيث الخزينة المركزية ، ثم كانوا يعيدون فى الصباح ما يحتاجونه منها لمعاملاتهم تحت حراسة مشددة الى بخارى .

وبعد هذا اخذ الناس يخيفون كورى اشكامبه بادعائهم ان اموال جميع المودعين ضاعت حتى ان كورى اشكامبه نفسه لم يعد واثقا من استرجاع امواله ، فكان تاثير ذلك عليه من القوة بحيث اخذت علائم الجنون تظهر على تصرفاته .

الا ان تلك المخاوف لم يكن لها اساسا من الصحة فحال ان فتح البنك ابوابه طالب كورى اشكامبه باستعادة امواله فاعطيت له دون كلام .

وآنذاك ازدادت ثقته بالبنوك وتوطدت ، فاعاد امواله فى نفس اليوم الى نفس البنك وراح يودع فيه كل تينغ يزور جيبه . وعندما كانت النقود تاتيه فى المساء او فى نهاية النهار ، فى الوقت الذى يكون البنك فيه مغلقا ، فانه كان يعيش حالة قصوى من القلق ، لانه ، من ناحية ، كان يشعر بالحرقة على تعطل تلك النقود

فى بيته يوما من غير ان تجلب له الفائدة التى يمنحها البنـــك لودائعه ، ومن ناحية اخرى فانه كان يخشى عليها السراق ، ولذلك كان يبحث دائما عن اكثر الاماكن خفية وامانا كى يودعها فيها .

وهكذا رحت افهم شيئا فشيئا تعاســة حياة هذا الانسان : فقد كان يعيش حالة خوف دائم ، ويشك فى جميــع من يقابلهم ، متصورا ان هنالك دائما من يتبعه لمعرفة اين يخفى نقوده ، لينهبها .

كان كورى اشكامبه يثق بشخص واحد لا غير هو حارس خانة «القفقاس» ، فكان هو وحــده من يعرف اين يخفى كورى الاموال التى تأتيه بعد اغلاق البنك .

اما كيف نشأت هذه الثقة فلذلك قصة تستحق السرد . مرة ، كان كورى اشكامبه يخرج من خانة «القفقاس» فاراد حــارس الخانة ان يمزح قليلا معه فرمى فى طريقه على الارض قطعة نقدية من فئة الخمســة عشر كوبيكا الا ان كورى لم ينتبه اليها فصاح حارس الخانة وراءه :

عم كورى ! هل سقطت هذه القطعــة النقدية منك ؟

فاسرع كورى عائدا ، متظاهرا بفقدانها فعلا ، وهو يســأل باهتمام شديد :

– اين سقطت ؟ اين ؟ . .

رفع حارس المقهى القطعــة المعدنية من الارض وأراها له فاختطفها هذا هاتفا :

– نعم ، نعم ، نعم . هناك ثقب فى جيبى سقطت منه هــذه القطعــة . شكرا ، شكرا . . . واخفى القطعــة المعدنية مضطربا فى نفس الجيب «المثقوب» حسب كلماته ، واستانف : – ليبعث الله اليك السعادة يا اخى ! لو كان غيرك فى هذا المكان لمــا اعاد لى قطعتى هذه . يبدو ان زماننا هذا لا يخلو من ابناء الحلال الذين لا يريدون ادعاء ملكية الغير لانفسهم .

اولى كورى اشكامبه هذا الشخص ثقته بعد تلك الحادثة . ومنذ ذلك الحين وهو ياخذه معه كلما كان عليه استلام نقود من احدهم فى المساء .

ولهذا كان بصحبته ايضا عندما استلم كورى دينه من صاحبى ابن التاجر ، ثم حملاه سوية الى مكان لا يعرف به احد غيرهما .

الا ان ثقته بهذا الشخص لم تدم طويلا . فقد حدث ما جعل حارس الخانة يتدنّى حتى اسفل دركات الجريمة . فآمن كورى بعد ذلك ان لا احد فى الدنيا تبقى بعد يستطيع مقاومة اغراء مد اليــد الى ممتلكات الغير . اما كيف حدث هذا ، فذلك ما سنقصه عليكم فيما بعد ، عندما يحين وقته .

١٢

لم يكن كورى اشكامبه ليستطيع الحصول على اكثر من تينغين ونصف على المئة فى الشهر الواحد فى مدينة تعج بالمرابين مثــل بخارى . كان كل التجار الاغنياء مرتبطين بالبنوك الروسية حيــث يحصلون على قروض بفائدة سنوية قدرها ثمانية بالمئة ، اى انهم كانوا يدفعون عن كل مائة تينغ ثماني تينغات فقط الى البنك سنويا وليس فى الشهر الواحد . الا انهم رغم ذلك كانوا يضطرون احيانا الى الالتجاء الى كورى اشكامبه وغيره من المرابين طلبا لخدماتهم . فقد كان البنك يعطى قروضــه للتجار آخذا بعين الاعتبار مقدار املاكهم ، وهذا الشرط لم يكن مناسبا لهم دائما . ففى مرحلــة شراء البضائع الموسمية الثمينة ، كفرو استراخان والقطن ، يحتاج التجار الكبار الذين كانوا يقومون بعقد الصفقات الكبيرة الى الكثير من الاموال التى كان البنك يعجز عن تقديمهــا لهم ولذلــك كانوا يلجاون الى المرابين امثال كورى اشكامبه فيدفعون لهم مرتين او اكثر عما كانوا يدفعونــه الى البنوك .

كان من المرابين فى بخارى تلك الايام مَنْ هم اشهر واغنى من كورى اشكامبه ، ورغم انهم كانوا يسمون انفسهم صيارفة لا غير الا انهم كانوا يقرضون الاموال للتجار الكبار وحدهم . وهكذا كان على المرابين الصغار امثال كورى اشكامبه ان يكتفوا بحضور اولئك المنافسين الاقوياء بفوائد اقل ممــا كانوا ياخذونهــا من زبــائنهم العاديين اى التجار ذوى الدخل المتوسط واصحــاب الدكاكين .

وكان المرابون الريفيون يعتصرون فى تلك الايام من الفلاحين الفقراء نسبا تقارب عشرة تينغات فى الشهر الواحد عن كل مائة تينغ ،

فكان كورى اشكامبه يشعر بالغيرة والحسد تجاه اولئك المرابين عندما يسمع عن تلك النسب ، وكما يقال كان يحترق لهذا السبب كالشعرة فى النار .

لم يتعدى كورى اشكامبه اسوار المدينة فقد كان يشعر بالخوف حتى فى المدينة ، وهو فى حمى السلطة الاميرية ، وكان يعذبه خوف دائم ، ويتصور ان الجميع يضمرون له النوايا السيئة . فكان يستفظع الفلاحين الفقراء ومرابيهم على حد سواء .

كان يفكر : «انا لست احمق للذهاب الى القرى من اجل فوائد اكثر ، ففى ذلك تعريض حياتى ونقودى للخطر ، فكيف بذلك اذا كانت النقود عندى اثمن من الحياة !» وهكذا كان مضطرا الى الاكتفاء بنسبة التينغين ونصف التى يحصل عليها من اصحاب الدكاكين والتجار الصغار ، بالاضافة الى الدخل الموسمى – الذى لم يكن جد كبير والذى – مع انه كان يحصل عليه من التجار الكبار . وهكذا نستطيع ان نفهم لم لَمْ تكن كل امواله مستثمرة فى ميدان العمل ، فقد كان مضطرا الى الاحتفاظ برأسماله الحر فى البنك ، مستلما عليه نسبة سنوية من الفوائد تقارب خمسة بالمائة وحسب . لم يكن كورى اشكامبه راضيا عن البنوك اكثر من رضاه عن زبائنه . فقد كان يقول :

– اذا كانت البنوك اغلى من الجميع فهى اذن الابخل . اصحاب الدكاكين المساكين يعطوننى تينغين ونصف فى الشهر ، اما البنك فلا يعطينى غير الخمسة بالمائة فى العام كله .

اما اكثر «الحاتميين» * كرما فهم الفلاحون الفقراء فى نظره ، فقد كانوا يدفعون عشر تينغات فى الشهر عن كل مئة يستدينونها .

وكان يؤكد : – الربح الحقيقى يُجنى من القرى فقط . آه لو اتيح لى ان اعقد بعض الصفقات مع الفلاحين لكنت شعرت بالشبع اخيرا لحصلت بدل فوائد «بخلاء» البنك الشحيحة على عشرة اضعافها او اكثر من الفلاحين . ترى جيوبهم فارغة ولكن ما اغنى قلوبهم !

* * *

* نسبة الى حاتم من قبيلة طىّ الذى ذاع صيت كرمه فاصبح مضرب الامثال . **الناشر** .

واخيرا حدث ما فتح الطريق لكورى اشكامبه لاقامة العلاقات مع القرية . ففى احد الايام جاء كورى حسب عادته لاداء صلاة الفجر فى جامع بخارى القديم المعروف باسم «ماغوك» . وما كاد ينتهى من اداء الركعة الاولى حتى تناهى الى سمعه ابيات من «المثنوى» * فتصنت اليها مستمعا ، ثم ادى ركعته الثانية مع طلوع الشمس . وخرج من الجامع حاملا مسبحته بين يديه ليجلس على مقعد الصوفى قرب المدخل قارئا بعض السور الاضافية ، ذاكرا اسماء الله الحسنى ، وهو يطقطق حبات مسبحته واحدة بعد اخرى .

تقدم منه فى هذا الوقت فلاح شاب ، متوسط القامة ، بملابس رثة ، وكأنه يتقدم نحو صديق طيب قديم . مد يديه نحو كورى اشكامبه محييا باحترام . ثم جلس على مقعد الصوفى الثانى فى الجهة الاخرى من مدخل الجامع مطأطئا راسه نحو الارض وهو ينظر اليه بين اونة واخرى .

فكر كورى اشكامبه ان هذا الشخص هو احد اولئك الذين يحملون النذور الى الجامع فاعتقده شيخه ما دام يحمل مسبحة بين يديه ويجلس فى مدخله . وقرر ان الفلاح ينتظر انتهاءه من قراءة ادعيته ، فراح يتلوها بصوت اقوى ، وتأثير اشد ، علّه يفوز بنذر الفلاح ، بل ربما رق قلبه فاضاف شيئا آخر الى ذلك النذر . وهكذا بذل كل ما فى وسعه لأداء لفظ الحروف العربية كما ينبغى ، مطقطقا بحبات مسبحته بقوة كما يفعل التجار بحاسباتهم الخشبية .

واذ اقتنع كورى اشكامبه من أنه ترك فى نفس الفلاح التأثير المطلوب رفع يديه بالدعاء الى اعلى كما يفعل دائما عند البدء بعمل ما ، ثم مرر راحتى يديه بعد ذلك على وجهه وهو يحمله تعبيرا خاشعا نبيلا . وليس آنذاك رد على تحية الفلاح .

وقال :

– اسمع يا اخى ، ان كنتَ قد جئت بنذر فهيا اخرجه . سوف اقبله منك باسم الامام الخضر الذى يحضر بصورة غير مرئية فى هذا الجامع كل يوم طيلة اوقات الصلاة الخمسة .

* يقصد بذلك القصيدة الصوفية الفلسفية «المثنوى المعنوى» للشاعر الكلاسيكى الخالد جلال الدين الرومى (١٢٠٧–١٢٧٣) . **الناشر** .

اجاب الفلاح : – ليس عندى اى نذر ! لقد جئت اليك لاستدانة بعض النقود .

فاعقب كورى اشكامبه : – وماذا فى ذلك ! لا بأس به ايضا ، كم تحتاج وباى الشروط ؟ ثم ، من هو ضامنك ؟

اخذ اصحاب الدكاكين المجاورة يصلون دكاكينهم فى هذا الوقت ، ولاحظ كورى اشكامبه انهم كانوا يتصنتون لحديثه مع الفلاح وهم يفتحون ابواب الدكاكين .

ولما كان كورى اشكامبه يتطير لا من عقد الصفقات بحضور الناس فحسب بل ومن الحديث عن النقود بشكل عام ، فقد اضاف دون ان يعطى الفلاح فرصة للرد :

– هيا انهض يا اخى واتبعنى ! لنبحث لنا عن مكان افضل من هذا !

وتوجه الى صف خانات الشاى المتجاورة ، وعبره منعطفا نحو زقاق دكاكين ومحلات صنع الامشاط ، سار فيه بضع خطوات ثم دخل بناية تقع فى الجانب الشرقى من الزقاق ، فعبر الفلاح العتبة فى اثره .

اغلق كورى اشكامبه الباب وراءهما رغم ان موعد صلاة الضحى كان جد بعيد ومن غير المحتمل دخول احدهم عليهما . ثم جلس على دكة طينية داعيا الفلاح للجلوس الى جانبه ، واعاد عليه سؤاله :

– قل لى ، اى مبلغ تحتاج واية نسبة تستطيع تقديمها ؟ ومن هو الشخص الذى يضمنك ؟

اخبره الفلاح بانه من قرية بولماخورون ، ويمتلك قطعة من الارض تجاور املاك شخص يدعى ارباب رضا يريد ضم هذه القطعة الى اراضيه ، ولاجل هذا فانه اتفق مع مختار قريتهم ارباب حميد فاختلقوا له دعوى قضائية بهذا الشأن .

– انتهت القضية امس لا لصالح احد ، ولكنى خرجت منها مديونا فقد استدنت من صاحب خانة مبلغ خمسمائة تينغ لدفع مصاريف الدعوى ، وهذا المبلغ ينمو كل يوم بقيمة خمس وعشرون تينغا . وهكذا فدينى اصبح حتى هذه الساعة خمسمائة وخمس وعشرون تينغ . فاذا اعطيتنى هذا المبلغ اليوم سددت دينى ، اما

اذا انتظرنا حتى غد فانه يصبح خمسمائة وخمسون تينغ . فكلما مر الوقت زاد الدين . وهكذا فالنسبة التى استطيع تقديمها اليك منوطة بك وبعدالتك ، وانت كما يقولون مراب عادل .

سال لعاب كورى اشكامبه وهو يرى هذا «الخروف السمين الذى جاء بنفسه اليه» . الا انه كان لا يفهم امرا واحدا ، اذ كيف استطاع هذا «الخروف» الافلات من براثن «الذئاب البرية» والوصول الى «ثعلب المدينة» سالما هكذا ؟

ففكر : «ام لعله يخفى شيئا ما او ان اعدائى يصنعون الاحابيل للايقاع بى ؟» .

وسأل الفلاح وقد استولت الشكوك عليه :

– وهل تخلو قريتكم من المرابين الطيبين الذين يستطيعون تقديم العون لك وانت تملك خير ضمان بقطعة الارض التى فى حوزتك ؟ . فلماذا جئت الىّ لهذا الغرض حتى المدينة ؟

– يوجد عندنا مرابيان وهما ارباب رضا وارباب حميد ولقد حدثتك عنهما ، فاذا استدنت منهما مبلغا فانهما لا يكتفيان بالنسبة وحدها بل يريدان الحصول على الارض نفسها ، وهكذا سافقدها ان لم استطع دفع الدين فى ميعاده .

فهتف كورى اشكامبه : – هذه هى المسألة . وانا ايضا لا اعطيك النقود من غير رهن !

– ولكننى احسب انك لن تاخذ ارض حتى لو رهنتها عندك لانك لا ترغب بالتاكيد الذهاب الى القرية لحراثتها وزرعها . وهكذا ايضا يفكر اولئك الذين ارسلونى اليك . اليس كذلك ؟

– هذا صحيح . وكم تينغا تدفع فى الشهر عن كل مائة تستلمها منى ؟

فقال الفلاح : – ساعطيك خمسة تينغات فى الشهر عن كل مائة .

فاعترض كورى ممتعضا : – لا ، ابدا ! اعطنى عشر تينغات ونستطيع ان نتفاهم . اما اذا كنت ترفض فاذهب الى مرابيك اللذين يتحرقان شوقا للحصول على ارضك .

– مرابيا قريتنا ، ارباب رضا وارباب حميد ، يطلبان عشرة تينغات ايضا . ولكنى هذا لا يناسبنى ، اخشى ان يكبر دينى

بحيث لا استطيع تسديده فافقد ارضى . ولقد نصحونى بالتوجه اليك باعتبارك مرابيا عادلا لا تأخذ غير التينغين ونصف عن المائة . وانا لا اريد ان ازعلك وهكذا فانى موافق على دفع الضعف . اما اذا دفعت عشرة تينغات فلن استطيع بطبيعة الحال تسديد دينى وساضطر فى نهاية الامر الى بيع ارضى الى مرابيى قريتنا . واذن ، وافقْ على قبول نسبة الخمسة تينغات وهى ضعف ما تأخذه من الآخرين وآنذاك ننقذ الشاة ونشبع الذئب فى نفس الوقت . فكر بالامر ، اما اذا لم يوافقك هذا فانى افضل ان استدين من مرابيى قريتنا ، على الاقل اكسب رضاهما وراحة بالى لوقت ما .

صمت الفلاح فترة ثم اجاب كورى اشكامبه عن سؤاله حول ضامنه :

– سارهن عندك الارض . نتكاتب امام القاضى ونصدر وثيقة بذلك . وآنذاك لن نحتاج لضامن اوكفيل ! فاذا لم استطع تسديد دينى اليك يمكنك ان تبيع ارضى وتسترجع نقودك . وانت تعرف ان الضامن مطلوب عندما لا يوجد رهن بين يدى المستدين . ثم اضاف الفلاح متجنبا المماطلة فى الحديث وهو يرى شهية كورى اشكامبه لم تستثر بعد :

– اذا كنت تثق بى يا عم كورى وتريد ان تعطينى النقود فاننى سادفع لك خمسة تينغات فى الشهر عن المائة . امامك «حساء من اللبن» فاذا كنت ترغب به خذه . لا ، ادلقه ! «كلاب البادية» ليكون من نصيب مرابيى قريتنا . والامر فى النهاية مرهون بمشيئتك !

نهض الفلاح بعد ان قال هذا . الا ان كورى اشكامبه اجلسه من جديد قائلا بلهجة مصالحة :

– لا بأس . اريد ان اشرب هذا «الحساء من اللبن» . الا اننى التمس منك ان تضيف له ملعقة من السمن ، تينغا واحدا آخر ، لتكون ستة تينغات ! ان لم تفعل هذا اكراما لقرضى فافعله اكراما للدعوات التى ساتلوها مع صلواتى كل يوم ليوفقك الرب . – ومد يده الى الفلاح : – هيا وافق وبارك الله فيك !

فكر الفلاح ان الامر لا يستأهل تسبيب الزعل لمدينه هذا . وهكذا قدم له يده ايضا ، وتصافحا .

– وبارك الله فيك . وما دمنا قد اتفقنا فلاذهب الى ديوان

القاضى لاعداد الوثيقة كى تستطيع تقديم النقود لى هذا اليوم والا فدينى لصاحب الخانة سوف يكبر .

فانفجر كورى اشكامبه بوجهه قائلا : – لا ادرى هل انت ساذج ام محتال ! كيف استطيع تقديم النقود اليك مقابل ورقة بسيطة وحسب ، انا لم ار الارض ولا اعرف عنك شيئا ؟ النقود ليست روحا حتى يمكن التضحية بها من اجل كل من هب ودب !

– اذن ، متى تستطيع المجىء الينا لترى ارضى وهل ستبدأ استفساراتك عنى قريبا ؟

– احتاج الى يومين وربما الى ثلاثة ايام .

فهتف الفلاح : – عزيزى عم كورى ! يجب المضى بأسرع وقت والا فان دينى لصاحب الخانة سيكبر . اذهب الى قرية بولماخورون واسال كل من تراه ، من الصبى ذى السبعة اعوام الى الشيخ ذى السبعين عاما ، اين ارض خامرا رفيق ؟ سيدلك الجميع عليها ! وستتاكد اننى عملت فيها حتى جعلتها مثل الجنينة امام البيت .

– ساحاول السفر بأسرع وقت الا اننى لن احمل النقود معى . وعندما نتفق نهائيا تأتى الى المدينة لاستلامها .

ثم نهض كورى اشكامبه ، وخرجا سوية من البناية المخصصة للاغتسال والتوضؤ . وفى الطريق ترجى خامرا رفيق المرابى مرة اخرى ان يسرع بالسفر الى القرية . ثم افترقا بعد ذلك . وتوجه كل منهما نحو اشغاله .

* * *

كان كورى اشكامبه جد مهتم بامكانية الحصول على ستة تينغات عن كل مائة فهذه النسبة تكاد تتجاوز النسبة التى ياخذها عادة من ابناء المدينة بثلاثة اضعاف . كما ان المنطقة التى توجب عليه السفر اليها قد اعجبته ، فقرية بولماخورون تعود الى قضاء غالاسيا التى يشغل فيها منصب نائب القاضى احد اصدقاء كورى اشكامبه القدماء ، وهذا ما منحه الشجاعة الكاملة لخوض غمار هذه الرحلة «الخطرة تماما» .

كان يعتقد ان التلكؤ فى السفر الى القرية محفوف بدوره بنوع آخر من المخاطر ، فلو عرف «الذئبان» هناك ان خامرا رفيق قد

دبر اموره بالاتفاق مع مراب من المدينة فانها ربما عمدا الى ان يفعلا كل ما فى وسعهما لكى ينقذا «الخروف السمين» من براثن «ثعلب المدينة» .

وهكذا توجه كورى اشكامبه الى طريقه فى اليوم التالى مباشرة مهملا صلاة الفجر وقراءة اشعار «المثنوى» فى جامع ماغوك لاول مرة فى حياته .

كان قد قرر الذهاب مشيا على الاقدام . فكان يسير بسرعة كبيرة ، يكاد يجرى رغم جسامة بدنه وضخامته ، متعجلا الوصول الى غالا – اسيا قبل خروج صاحبه فى جولته التفقدية بين القرى . فقد كان ينوى اعداد وثيقة الصفقة مع خامرا رفيق اثناء زيارته لصديقه .

دخل كورى اشكامبه ديوان نائب القاضى فى الوقت الذى كان الاخير فيه على ظهر حصانه متهيئا للخروج فى جولته . واذ راى نائب القاضى صديقه القديم نزل من حصانه وركض نحوه ليستقبله بالحفاوة اللازمة لاستقبال صديق قديم .

ركض نائب القاضى لا اسرع مما تتركض السلحفاة . كان بدينا ، ذا كرش كبير لا يقل عن كرش كورى اشكامبه . وكان غبب يتدلى من تحت ذقنه ويتصل بصدره . اما قفاه الاشحم ورقبته القصيرة فقد كانا يندغمان فى ظهره اندغاما . كان يتميز عن كورى اشكامبه براس صغير لا يناسب جسده الضخم ، ولحية خفيفة ، وساقين قصيرين سمينين ، يذكران – لتورمهما ربما – بجزمتين طويلتين .

كل هذا جعل نائب القاضى يبدو شبيها بكيس مرصوص من الحنطة مشدود فى نهايته بحبل ، وكان راسه الصغير النابت فوق بدنه الضخم يذكر بما تبقى من الكيس فوق تلك الشدّة .

وعندما اقترب الصديقان بعضهما من بعض وهما يهمان بالتعانق على العادة المتبعة ، لم يستطع الواقفون قرب الحصان من مستخدمين نائب القاضى امساك انفسهم عن الضحك . كان السمينان المتعانقان اشبه بدلوين كبيرين ، لم يتماسا فى عناقهما هذا الا فى مقدمتى كرشيهما ، ومهما حاولا وفعلا فانهما لم يستطيعا الوصول

بايديهما حتى خاصرتى بعضهما . اتضح ان ايديهما جد قصيرة لضم جسد الصديق السمين .

بعد هذا اللقاء المضحك رافق نائب القاضى ضيفه الى الغرفة آمرا مستخدمه بجلب مفرش الطعام مع الارغفة واللحم البارد ، وتهيئة دجاجتين سمينتين وطبخهما جيدا ليقدمهما فيما بعد .

سأل نائب القاضى كورى اشكامبه عن السبب الذى دفعه للخروج عن عادته بالمجىء من المدينة الى القرية .

– دعهم يجلبون الشاى لالتقط انفاسى فاستطيع تنظيف مفرش الطعام لك ! وآنذاك استطيع ان اقص عليك ما الذى جاء بى الى هنا . ثمانية فراسخ من المشى جعلتنى لا اقوى على التلفظ بكلمة واحدة .

– وهل من المعقول انك سرت هذه الثمانية فراسخ كلها مشيا على الاقدام مجرجرا جسدك الهائل فى هذا الحر ؟ لماذا لم تؤجرلك حصانا ؟ ولماذا لم تبتاع لك حصانا او حمارا تستفيد منه فى مثل هذه الاحوال ؟

اجاب كورى اشكامبه : – انت تفكر يا نائب القاضى مثل بقية الناس السذج الذين لا يعرفون قيمة النقود . اى عاقل هذا الذى يصرف امواله التى يحصل عليها بعرق الجبين على اطعام حصان او حمار لا لغرض الا لكى يستخدمه ساعة او اكثر قليلا فى السفر براحة ؟ اننى لا احتفظ فى بيتى حتى بمنشار لا لشىء الا لانه مسنن . وانت تريدنى ان احتفظ فى بيتى بحصان او حمار ؟! انهما سوف يفلسانى !

جاء المستخدم خلال ذلك بالخبز والشاى واللحم البارد ، وبسط امام كورى اشكامبه مفرش الطعام ، فلما راى ارغفة الخبز الحارة والاطباق الملأى باللحم صمت ولم ينبس ببنت شفة ، ثم هجم على الاكل كثور هائج وراح يختطف اللحم والخبز دون ان يرفع راسه لحظة عن مفرش الطعام ، بل ونسى الشاى الذى طلب ان يجلبوه «ليطرد عن نفسه تعب الطريق» .

قطع نائب القاضى حديثه مع الضيف ايضا وتحول الى اللحم البارد مقتطعا منه قطعا كبيرة كان يلفها فى طيات الخبز الحار ويدفعها الى جوفه دون ان يمضغها تقريبا .

ولما رأى كورى اشكامبه النجاحات التى يحققها صاحب الدعوة ، قرب لنفسه طبق اللحم اكثر . ودمدم وفمه مكتض بالطعام :

– ألَمْ تفطر لحد الآن ؟

– فى الصباح جلبوا لى دجاجتين محمصتين ولكن جليسى كان ذا شهية لا تشجع على الاكل فافسد شهيتى معه ولم استطع ان اكل غير دجاجة واحدة . اما الثانية فقد اعطيتها الى الخدم . اننى بحاجة الى جليس مثلك لكى تنفتح شهيتى .

– اما انا فشهيتى لا تحتاج الى اى جليس بخاصة اذا كان مثلك ، يدعونى الى الطعام ليلتهم بنفسه نصف ما يُقدم ! شهيتى لا تفسد ابدا ولا تحتاج الى ما يفتحها مطلقا .

وهنا لاحظ كورى اشكامبه ان مضيفه قد مد حفرة عميقة فى اناء اللحم اثناء حديثه ذلك فقرب اليه الاناء اكثر وغطاه براسه وكتفيه العريضين وراح يأكل اشبه بحداة تفرش جناحيها فوق فريستها وتنشب مخالبها فيها .

اما المضيف فقد فكر فيما يبدو وهو يرى الاناء يبتعد عنه ان ليس من اصول الضيافة سحب الاناء نحوه ولذلك فقد ثنى حافة مفرش الطعام وتقدم بنفسه اليه ، ثم خفض راسه اكثر من كورى اشكامبه وبذلك اصبح اقرب الى الاناء من الضيف .

كان هذان الصديقان فى هذه اللحظة يبدوان كثورين مشدودين فى نير واحد ، ويأكلان من معلف واحد ، لا يتناطحان بالقرون بل يزاحمان بعضهما بعضا فقط . وكذلك كان هذان الصاحبان ، يحاولان الاقتراب من الاناء اكثر ما يمكن ليختطف كل منهما اكبر قطعة لحم وادسمها قبل الآخر .

كان نائب القاضى وكورى اشكامبه جديرين احدهما بالآخر فى مجال الشراهة بالاكل . الا ان الفارق بينهما كان يكمن فى ان المرابى قد اعتاد الاكل عند مدينيه او عند طلاب المدرسة الذين يؤجرون منه حجرتيه او يتطفل فى الاعراس والحفلات التى يقيمها الآخرون ، ويشارك فى موائد التجار الذين لهم معه صلات عمل ، دون ان يفكر باعداد الطعام فى بيته ابدا . اما نائب القاضى فقد كان يحب الأكل عند اغنياء القرى وفى بيته على حد سواء ، معتمدا فى

ذلك على ما يسلبه من الفقراء دون ان ينسى استضافة مساعديه واصدقائه من امثال كورى اشكامبه .

بعد ان انتهى نائب القاضى وضيفه من افتراس الدجاجتين المحمصتين تحولا الى الشاى ، وفى اثناء ذلك تحدث كورى اشكامبه مع صاحبه عن الغرض الذى جاء به الى القرية مبديا اهتمامه بكنه هذا الشخص المسمى خامرا رفيق .

فاخبره نائب القاضى بانه فلاح متوسط الحال ، دؤوب فى عمله ويملك قطعة ارض كما يملك ثورا مخصيا وبقرة واحدة .

– هذا الانسان نزيه ، بسيط ، يثق بالناس . ولهذا السبب وقع الارنب كما يقول المثل «فى يد الصياد بعد انهزامه من الذئب» وبكلام اوضح وقع فى حبائلك بعد تخلصه من مرابيى القرية .

ضحك كورى اشكامبه باعتداد واعتزاز :

– قل اننى حظيت بجاموسة حلابة فتية ! واذن ، يجب الاسراع بطلب خامرا رفيق لاعداد وثيقة رهن الارض ، ولنذهب بعد ذلك مباشرة الى المدينة كى اسلمه النقود . اخشى ان اتاخر فى مسعاى فتمر قطعة الملبس قرب فمى ثم يحصل عليها مراب آخر .

– يجب الذهاب اذن الى القرية التى يعيش فيها لنعد الوثيقة بحضور ارباب والشيوخ . ليس عبثا يقال «اتفق مع ارباب اولا ثم اسرق القرية ثانيا» . فكل قضية من دون مشاركتهم لا تجدى نفعا .

فهتف كورى اشكامبه :

– هيا لنسرع ، هيا . . .

– انا موافق ، لنذهب . . – قال نائب القاضى وامر خدمه ان يعدوا الخيول للسفر . .

* * *

توجه نائب القاضى ومستخدموه بصحبة كورى اشكامبه الى قرية بولماخورون . ولم يكن كورى اشكامبه قد جلس على ظهر حصان فى حياته ابدا . ورغم ذلك فقد اختير له – للمزح معه ربما – مهر شكس لم يُركب كثيرا . وهكذا راح يرفس وينتصب على قائمتيه الخلفيتين حال اعتلاه كورى اشكامبه ، داحصا بهما الى الخلف كأنما يدافع عن نفسه من الخيول وراءه .

واما كورى فقد تشبث بقربوس السرج بكلتا يديه صارخا : «اوخ ، سوف اموت ، سوف اموت ! . .» وراح يقذف نائب القاضى ومستخدميه وفلاحى قرية بولماخورون وخامرا رفيق ونفسه ايضا بسباب مقذع لتورطه فى المجىء الى هذا المكان معتقدا بامكان مضاعفة نقوده ، محملا نفسه خطر الوقوع وتهشم عظامه ، ليخسر من بعد كل ما جناه طيلة العمر !

واما مستخدمو النائب فقد راحوا يضحكون على القادم من المدينة ويسخرون منه . ولو لم يسر احدهم ، من المتمرسين على ركوب الجياد ، الى جانبه ليقود له المهر من لجامه لأخذ كورى ربما بعيدا واسقطه على الارض ، وعندما وصل نائب القاضى وجماعته الى قرية بولماخورون كان الضحك على كورى اشكامبه والسخرية منه قد تجاوزا كل الحدود . بل ان نائب القاضى نفسه كان قد تقرب اكثر من مرة من مؤخرة مهر كورى اشكامبه ونخسه بسوطه مستثيرا ، حتى تهدلت عمامة كورى الكبيرة وتدلت حول رقبته ملتفة حول جسده كله . واما رفرفا صايته الداخلية والخارجية فقد كانا يهتزان مع الريح كالخرق البالية .

خرج سكان قرية بولماخورون الى الطريق وقد سمعوا بنبأ مجىء نائب القاضى لاستكشاف كنه هذه الزيارة والغرض منها . وفلما راوا كورى اشكامبه على هذا الحال ضحك الفلاحون من جماع قلوبهم لاول مرة فى حياتهم ربما ، وعلى صيحات الاولاد راح المهر تحت المرابى يشاكس ويتمرد اكثر من قبل . .

وصل الراكبون باحة بيت مختار القرية ارباب حميد ، وترجلوا عن خيولهم . فيما احاط البعض بكورى اشكامبه يهدئون المهر ، حتى رفعوا راكبه بايديهم عنه وحملوه الى مقعد قريب مواجه للحوض . كان كورى اشكامبه يئن ويتاوه ، وكل حركة تصدر منه تسبب له الما شديدا فقد كانت اذيال ملابسه قد التصقت بفخذيه المدميين المسحوجين .

١٣

جلس نائب القاضى ومستخدموه على مقاعد الصوفى المغطاة بالسجاد والبسط ألوثيرة . اما كورى اشكامبه الذى لم يستطع

الجلوس مثل الآخرين بسبب جروحه وآلامه فقد جلس شبه مضطجع ، مستندا بكوعيه على الوسائد الموضوعة على الجانبين ، متقلبا من جنب الى آخر .

كذلك جلس رجال القرية الكبار على مقاعدهم الى جانب الضيوف . اما صاحب البيت ارباب حميد فقد جلس اوطأ من الآخرين وهو يردد التحية المعتادة «اهلا بكم ، .» فيما جرجر خدمه خروفا سمينا وذبحوه امام عينى نائب القاضى ، علامة على احترام خاص .

ثم مدوا امام الضيوف مفرش طعام ، وضعوا عليه ارغفة خبز كبيرة معجونة بالحليب وارغفة اخرى صغيرة حلوة وشتى الفواكه وبعد ذلك جاؤوا ببرادات الشاى ووضعوها مع الاقداح امام الضيوف .

نظر نائب القاضى نحو الفلاحين فى صاياتهم البالية الذين كانوا يجلسون القرفصاء ، منهم من يستند على جذع شجرة ومنهم من يتكىء على السياج الطينى ، فلم يجد خامرا رفيق بينهم . فسأل :

– اين خامرا رفيق ؟ اننى لا اراه هنا .

– انه فلاح دؤوب لا يضيع وقته عبثا . تراه الآن يحصد الحنطة فى حقله ربما .

– لا بأس ان نستدعيه .

فارسل ارباب احد الفلاحين فى طلبه دون ان يفهم ما حاجة نائب القاضى له ، وسأل اشباعا لفضوله :

– هل عرفتم شيئا ما عنه ؟ ام انه اتضح انه هو قاتل تورا مراد ؟

قال نائب القاضى : – لا . عند السيد كورى اشكامبه اتفاق لاقراضه نقود مقابل رهن الارض عنده . اليوم سنعد جميع الاوراق اللازمة لذلك بحضوركم .

وضع ارباب يديه على صدره وهو ينظر نحو كورى اشكامبه منحنيا امامه قليلا علامة الاحترام . الا انه لم يستطع اخفاء استيائه من مجىء هذا المرابى القادم من المدينة . التفت نحو نائب القاضى مغيرا تعبير وجهه ، وقال بلهجة مشوبة بعدم الارتياح :

– وماذا فى ذلك ! ولكن يوجد هناك عرف سائد وهو ان من ينوى على بيع ارضه ، بستانا كانت ام بيتا ، فان عليه ان يعرضها اولا على جاره . فاذا امتنع هذا عن شرائها يستطيع بعد

ذلك عرضها على الغير . تعرفون هذا افضل منى . ولكن ما دام المشترى هو السيد كورى فان ذلك يخفف الى حد ما من مهامنا ، لانك انت من يقوم باعباء الوسيط بين البائع والمشترى ، ولذلك لن نقف ضد شرائه هذه القطعة .

قال نائب القاضى بنبرة مصالحة راغبا بارضاء ارباب وهو شريكه الاول فى مجال نهب الفلاحين الفقراء : — اننى لا اقوم بدور الوسيط ولكن خامرا رفيق نفسه قرر هكذا . يبدو انه لا يحبذ بيع ارضه لجاره . ولا ادرى من نصحه للتوجه الى المدينة للاتفاق هناك مع السيد كورى . . . وانتم تفهمون بطبيعة الحال ان لا السيد كورى ولا غيره يرغب بتشغيل امواله فى قريتكم ، فالمسافة بين المدينة والقرية جد طويلة . اما خامرا رفيق فانه من غير المحتمل ان يستطيع تسديد ديونه الى السيد كورى مع النسب المطلوبة من غير ان يبيع ارضه . وهكذا فان الارض سوف تكون لك او لآخر من ابناء القرية اذا تنازلت له عنها . وعلى العموم فان وطأ السيد كورى ارض قريتنا بقدمه لن يجلب ضررا ، لا لك ولا لاى شخص آخر من محترمى قريتكم . فهو انسان مفيد يقدم المنفعة للناس ! — واذ انتهى نائب القاضى من كلمته هذه سأل : — من هو مالك الارض المجاورة لقطعة خامرا رفيق ؟

فقال ارباب حميد وهو يشير بيده الى رجل يدخل الباحة :

— انه ارباب رضا مختار قرية سانغساباز . ها هو يتفضل الينا !

* * *

ما ان اقترب ارباب رضا من مقعد الصوفى حتى نهض الجميع مبدين احترامهم له . فصافح نائب القاضى اولا ، ثم كورى اشكامبه وبعد ذلك مستخدمى النائب . واخيرا مد كلتا يديه الى صاحب البيت ، وجلس ارباب رضا فى مكانه دون ان يصافح كبار القرية ، مكتفيا بهزة خفيفة من راسه باتجاههم .

جلب اتباع ارباب حميد الى باحة البيت هدية ارباب رضا الى نائب القاضى وكانت عبارة عن كيس مملوء بالبطيخ دلقوه على الارض ، ثم بسطوا امام نائب القاضى مفرش طعام لفّت فيه ارغفة خبز معجون بالزبدة وعليها اربع دجاجات محمصة .

وضع نائب القاضى اثنين من الدجاجات بينه وبين كورى اشكامبه ، واحال الباقيتين الى مستخدميه الذين جاؤا معه . ولكن ذلك «الكرم» لم يعجب كورى اشكامبه كما بدا . فقد كان يخزر تلك الدجاجتين بنظرة شزراء فيما هو يمزق بيديه الدجاجة الموضوعة امامه فى نفس الوقت ، كان يعرف جيدا انهما اصبحا بعيدا عن مناله ، الا انه لم يستطع الا يشعر بالاسف .

وبعد ان التهم الضيوف الدجاجات المحمصة جيء بصحن مليء بلحم الضان المشوى ، فحصل كورى اشكامبه وصاحبه ايضا على نصيبهما من الألية ولحم الاضلاع . . .

وهكذا رفع مفرش الطعام فرميت العظام الى الكلاب واهيل الفتات الى الدجاج ، واعطيت كسرات الخبز وما تبقى من لحم قليل على بعض العظام الى الفلاحين الفقراء الذين كانوا يجلسون حول الضيوف وبمحاذاة السياج يرقبون كل شيء بعيون مفتوحة . واما خامرا رفيق الذى حضر بناء على طلب نائب القاضى ، والذى اقيمت هذه الوليمة على شرفه ، والاصح على شرف سلبه وانتزاع الارض منه ، فلم يدعه احد الى المائدة .

* * *

بعد ان انتهوا من اطعام وجاء دور البطيخ سرد نائب القاضى قصة الاتفاق بين كورى اشكامبه وخامرا رفيق على اسماع ارباب رضا الذى كان متلهفا للاستيلاء على ارض الفلاح النشيط . واخيرا امر خامرا رفيق بالتقرب من مجلسهم بعد ان انهوا اكل البطيخ ورميت بقاياه ، فجلس على مبعدة منهم يطأطىء راسه نحو الارض باستسلام . نظر ارباب حميد نحو نائب القاضى وقال :

— عندما اجرى الاتفاق بين السيد كورى اشكامبه وخامرا رفيق لم نكن حاضرين . الرجاء ان تحكى لنا ، بحضور ارباب رضا ، عما اتفق عليه ليسمع ذلك جميع اهالى القرية ، فيعرف صغيرهم وكبيرهم جوهر الامر .

وبعد ان اعاد نائب القاضى سرد قصة الاتفاق بين المرابى وخامرا رفيق الذى يشمل اقراض الاول مبلغا من المال للثانى مقابل رهن ارض الاخير عند المرابى ، سأل نائب القاضى الفلاح :

– ما هو فى اعتقادك المبلغ الذى ستحصل عليه من السيد كورى ؟

– لا ادرى . . ولكنى مدين لصاحب الشايخانة بمبلغ خمسمائة تينغ ، وهذا الدين نمى خلال اليومين الفائتين الى خمسمائة وخمسين تينغا .

– اذن ، فانت تريد مبلغ خمسمائة وخمسين تينغا منه ؟

– هذا هو المفروض .

– وهل عندك ما ستحتاجه لمصاريف الاتفاق ؟

اجاب خامرا رفيق متبعا ذلك بسؤال من جانبه :

– ابدا . ولكن اية مصاريف هذه ؟

فقال نائب القاضى بلهجة متوعدة :

– اى ساذج انت ! اولا ، كى يتم الاتفاق بينك وبين السيد كورى يجب ان يضع القاضى ختمه على ورقة الاتفاق وهذا يتطلب يوما كاملا ، واذن فدنيك سيصل حتى الخمسمائة وخمس وسبعين تينغا . اليس كذلك ؟

فوافقه خامرا رفيق :

– ثم ، الا تعتقد بانك ملزم باعطاء مبلغ قد يتجاوز الخمس وعشرين تينغ لارباب رضا مقابل اتعابه بالمجىء الى هنا مع كل هداياه كى يفض لك قضيتك ؟ – فاجاب ارباب حميد عوضا عن خامرا رفيق :

– نعم ملزم باعطائه !

– وصل المبلغ الضرورى لك الى ستمائة تينغ . وهل يعقل ان لا تعطى ارباب حميد مبلغ اربعين تينغ على الاقل وهو الذى دعانا هذه الدعوة من اجل انجاح قضيتك ؟ دع عنك انه مختار قريتك والقيم على شؤون حياتك ومماتك !

اجاب ارباب رضا هذه المرة عوضا عن خامرا رفيق :

– لا ، لا يعقل !

– اترى ؟ وصل المبلغ الذى تحتاجه الى ستمائة واربعين تينغا ! وهل تستطيع الامتناع من اعطاء تينغين لخمسة من شيوخ القرية من الحاضرين هنا لاعتبار انهم سيشهدون فى قضيتك ؟

اجاب ارباب حميد عوضا عنه :

– لا ، لا يستطيع الامتناع !

– هذا يعنى انك تحتاج الى ستمائة وخمسين تينغا . ومن اجل دمغة ديوان السيد القاضى ، وماساكتبه من اوراق ، وما سيقوم به مستخدمى ، الا يستحق كل هذا خمسين تينغا ؟ – فهتف ارباب حميد :

– هذا جد قليل بحق دمغة القاضى واتعاب السيد نائبه ! مئة ، مئة ، لا اقل من ذلك مستحيل !

– هذا صحيح ، ولكنى لا استطيع ان انسى استقامة خامرا رفيق وشطارته ، ولذلك اتنازل له من حقى عن خمسين تينغا . وليدعو لى وللسيد القاضى بالخير عن طيبتى هذه . – قال نائب القاضى ذلك بلهجة مفخمة ، ثم استانف مخاطبا خامرا رفيق:

– مع هذه الخمسين اصبح المجموع سبعمائة تينغ . واذا اخذنا بنظر الاعتبار الشرط الذى يقرضك به السيد كورى نقوده فان اثنين واربعين تينغا تضاف الى السبعمائة تينغ كل شهر ، بمعدل ستة تينغات على المئة ، وهذا يعنى ان اربع وخمسمائة تينغ ستضاف على السبعمائة فى العام ، اى ان المجموع سيصبح الفا ومئتين واربع تينغات .

بعد ان اجرى نائب القاضى هذه الحسابات تحول الى بحث طبيعة القرض . فقال لخامرا رفيق من جديد :

– وهكذا ، فعليك ان تتعاقد مع السيد كورى على بيع ارضك له مقابل الف ومئتين واربع تينغات ، تاخذ منها سبعمائة تينغ نقدا لتسدد دينك بها . اما ما تبقى فهو النسبة المئوية للعام الواحد ، فاذا استطعت فى نهاية العام تسديد كل الدين فانك تسترجع العقد وتصبح الارض ملكك من جديد ، اما اذا استطعت تسديد قيمة النسبة وحدها فان الاتفاق يبقى كما هو ، وهذا الشرط ينسحب على العام الثالث والرابع ايضا . ولكن ما ان تمتنع عن دفع قيمة النسبة او ترفض اعادة دينك الى السيد كورى فى السنة الخامسة فانه يستطيع آنذاك الاستيلاء على ارضك كلها . اليس كذلك ؟

اجاب خامرا رفيق مترددا والحيرة والقلق باديان على وجهه :

– بلى ، ربما .

فالتفت نائب القاضى الى كورى اشكامبه : – وما قولك انت ؟

فرد هذا بحدة : – حساباتك غير صحيحة !

– كيف ذلك ؟

– المسالة اننى حين اقرض احدهم فى المدينة مبلغا فاننى استلم منه النسبة كل شهر ، وهذه النسبة اشغلها فاستلم عنها بالتالى فائدة . اما بحساباتك فان نسبة الشهر الاول – اثنان واربعون تينغا – تبقى كما هى حتى نهاية العام دون ان تجلب لى الفائدة التى يمكن ان تجلبها لى طيلة الاشهر الاحدى عشر الباقية . ثم ان نسبة الشهر الثانى تبقى عشرة اشهر دون فائدة ايضا ، وهكذا دواليك . وهذا يجلب لى خسارة كبيرة بطبيعة الحال .

– فهمت الآن قصدك ، ما هى اذن قيمة الفوائد التى تضعها على نسبة قرضك للعام الواحد ؟

– اذا امكن التحدث بلغة يفهمها الفلاح فان الفوائد المنحدرة من نسبة القرض اسميها : احفاد تقودى . وهذه تبلغ مائة وستون تينغا فى العام .

فاستنتج نائب القاضى : – هذا يعنى ان خامرا رفيق يجب ان يعطيك كمبيالة بمبلغ الف وثلاثمئة وستين تينغ اذا اخذ منك سبعمائة تينغ .

فاجاب كورى : – هكذا تقريبا . ولكن هناك مسالة صغيرة اخرى تقتضى خامرا رفيق ان يعطينى كمبيالة بمبلغ الف واربعمائة تينغ .

ظل خامرا رفيق يجلس فى مكانه حتى ذلك الحين صامتا مهموما ، مفكرا بما ستنتهى اليه كل هذه الحسابات التى لم يكن يتوقعها . الا انه انفجر – وقد سمع كورى يعلن دينه بشكله الاخير – فجاة كنار ظل يعميها الدخان حتى هبت عليها ريح مؤاتية . فنهض من مكانه محتدا وصرخ بوجوه الحاضرين :

– اذا كنتم تريدون حرق بيتى فاحرقوه مباشرة . بيعوا ارضى وقسموها فيما بينكم . اما انا فاطردونى من القرية ! واذا كان هذا قليل برايكم فاحبسونى فى السجن الاميرى ، بل واشنقونى ايضا ، فهذه الشروط لن اقبل بها طوعا مهما كلف الامر !

لم يُعرف ما الذى كان يريد قوله ايضا الا انه اختنق بكلماته بسبب هياجه ولم يستطع التلفظ باكثر من ذلك .

فضحك السادة المحترمون المشاركون فى ذلك الاجتماع . وبعد ان هدأ الصخب قال ارباب حميد بهدوء :

– اخى خامرا ! اذا لم يوافقك هذا الاتفاق فالمسالة تخصك وحدك ولن يرغمك احد على الموافقة . لا تضطرب دون داع ، اجلس واستمع لما ساقوله لك .

جلس خامرا رفيق مطلقا اثقل التنهدات وطأطأ راسه نحو الارض فيما واصل ارباب حميد :

– من ذا انزل هذه المصيبة على راسك ؟ انا ام ارباب رضا ام السيد نائب القاضى ام المحترم كورى ؟

لم يرد خامرا رفيق بشىء على هذه الكلمات ، ربما لانه لم يكن يملك ما يقوله او انه لم يجرؤ على التلفظ بذلك وقد هفتت موجة غضبه وحماسه .

فاستمر ارباب حميد قائلا برصانة :

– اننى اعلم فقط انك حين اردت الذهاب الى مقبرة الامام بقاء الدين النقشبندى اثناء عيد الربيع اصطحبت معك تورا مراد فلاح ارباب رضا . وعندما عدت فى اليوم التالى لم يعد معك تورا مراد . وعندما سالوك عنه ، قلت «لا اعرف عنه شيئا فقد افترقنا اثناء الطريق وذهب كل منا فى سبيله» . ثم سرت اشاعة بين الناس مفادها انك قتلت الرجل وسلبت ماله . ورغم ذلك لم نجرجرك الى القاضى لمجرد هذه الشكوك . فالمثل يقول «الشك يطرد الايمان !» بينما اراد السيد نائب القاضى تغطية هذه القضية كى لا تثار القلاقل ، الا ان الامر وصل اسماع القاضى وميرشاب بخارى فامروا بالقاء القبض عليك . فاضطر السيد نائب القاضى مكرها الى ارسالك مخفورا الى المدينة فحُجزت هناك بتهمة القتل . اما ذنبنا نحن – انا وارباب رضا – فقد كان عملنا على اطلاق سراحك مقابل خمسمائة تينغ ! ولو لم نلتزم نحن بهذا الامر لاعدموك او اجبرت على دفع مبلغ عشرة آلاف تينغ فصلا لدمه ، او لتركت لتتعفن فى السجن .

قاطع ارباب رضا كلام ارباب حميد: – واما ذنبنا الآخر فهو فى توسطنا اليك لاستدانة مبلغ الخمسمائة تينغ من صاحب شايخانة ديوان القاضى لاطلاق سراحك .

– كما ترى لست انا ولا ارباب رضا من انزل هذه المصيبة عليك . اما السيد كورى ، فهل نحن من نصحناك بالتوجه اليه ؟

لم يرد خامرا رفيق على سؤال ارباب حميد بشىء وكانه لم يسمعه ، بل ولم يرفع عينيه عن الارض .

فشاركهما نائب القاضى الحديث موجها سؤاله الى الفلاح :

– ام لعلى انا من نصحتك بالذهاب اليه ؟

ظل خامرا رفيق محافظا على صمته .

فصرخ النائب به غاضبا : – هىْ ىْ !! انظر الىّ واجب على هذا السؤال : اهو انا من ارسلتك الى السيد كورى ؟

فدمدم خامرا رفيق دون ان يرفع راسه : – كلا !..

وقال كورى اشكامبه : – يبدو ان احتساب الفائدة على النسب لم يعجبك . فاذا كان الامر هكذا تستطيع ان تجلب لى كل شهر اثنين واربعين تينغا فتتخلص من المائة وخمس وستين تينغ الاضافية !

فصاح خامرا رفيق : – ومن اين اجلبها اليك ؟! اننى اعمل واشقى فى الحقل طيلة العام لاحصل على الحبوب والبطيخ مرة واحدة فيه ، وآنذاك فقط اجد نقودا بين يدى !

– ما الذى لا يرضيك اذن اذا كان الامر هكذا ؟ انسيت انك قطعتنى عن اعمالى ورجوتنى المجىء الى هنا ! وها انت الآن تتشكى من الجميع ، بل ومنى ايضا ! فاذا كنت تريد الرجوع عن عزمك قل لى وانا الآن امضى الى المدينة . اما ما الذى ستفعله فيما بعد فانت وصاحب الشايخانة اعرف بذلك !

قال كورى اشكامبه ذلك ونهض متظاهرا بانه ينوى العودة الى المدينة فى نفس تلك اللحظة ، فخامرا رفيق لا يستطيع الامتناع عن نقود . سيمر اسبوع او عشرة ايام ويصل دينه الى رقم لا يستطيع خامرا معه الا ان يبيع ارضه الى ارباب رضا . وهكذا سمع صوت الفلاح يصدر منه بلهجة مستسلمة :

– لقد فهمت حساباتك ياعم كورى ولم يبق لى الا الموافقة . ولكن القهر فى وصول الدين حتى مبلغ الف واربعمائة تينغ بعد اضافتك الاخيرة عليه .

فشرح كورى اشكامبه له سبب ذلك : – ولكننى لم اضف

هذا المبلغ دون سبب . فان مدينى فى المدينة يدعونى الى الغداء كل يوم او بين يوم وآخر ، فليس من المعقول اذن ان آتيك من المدينة كل يوم لاطلب منك ان تقوم لى بالواجب ! لهذا السبب تجدنى اضفت ذلك المبلغ الاخير . واذا كنت تنوى دعوتى الى الغداء كل يوم ، اوبين يوم وآخر ، فان ذلك يكلفك الكثير خلال عام واحد . ولهذا فقد اشفقت عليك وقررت تخليصك من هذه المصاريف الصعبة بهذه الاضافة الصيرة الاخيرة .

فقال ارباب حميد مخاطبا كورى اشكامبه : – لا بأس ، تنازل له عن ذلك ! وماذا يستطيع فلاح ان يقدمه لك فى الغداء غير البطيخ والرقى والبصل ؟ هذه يستطيع خامرا ان يجلبها لك معه عندما ينزل الى المدينة .

وافق كورى اشكامبه على ذلك . واعد نائب القاضى الوثيقة اللازمة للاتفاق واعدا انه سيضع عليها ختم ديوان القاضى يوم غد ، على ان يستلمها خامرا رفيق منه لينقلها الى كورى اشكامبه فياخذ منه بدلا عنها المبلغ المدين به لصاحب الشايخانة ، بالاضافة الى ما يجب ان يعطيه لارباب حميد ، الذى سيقسم هذا الجزء بين جميع المشاركين فى هذه القضية طبقا للقرار الذى اتخذ آنفا .

* * *

اعتلى نائب القاضى ومستخدموه وكورى اشكامبه حنولهم ناوين العودة . وانقسم الحاضرون جميعا صفين كى يوصلوا ضيوفهم حتى البوابة . وما كاد نائب القاضى يتجاوزها قليلا حتى جاء من يركض اليه صارخا :

– لقد عاد تورا مراد !

كان تورا مراد هو نفس ذلك الفلاح الذى اتهم خامرا رفيق بقتله . تظاهر نائب القاضى بانه لم يسمع شيئا . ولكن اصوات الفلاحين المتجمعين قرب البوابة تصاعدت من جميع الجهات :

– عاد تورا مراد ! عاد تورا مراد ! اذن فقد خدعوا خامرا رفيق ! وعلى الحكام الآن ارجاع نقود خامرا رفيق اليه كى يتخلص من الخراب المنتظر .

وسرعان ما ظهر تورا مراد بنفسه وراح يصافح اهالى القرية ، فجرى اليه خامرا رفيق :

– دع المصافحات الآن وامش معى لتخبـــر نائب القاضى باننى لم اقتلك !

اسرع تورا مراد الى نائب القاضى فانحنى له انحناءة شديدة بينما هتف خامرا رفيق بوجه النائب :

– اسأله الآن فيما اذا كنت قتلته ام لا ، او فيما اذا كنت اعرف اين مضى !

فسأل نائب القاضى تورا مراد مرغما :

– اين كنت طيلة الايام الفائتة ؟

فاجاب تورا مراد : – لقد خدمت ارباب رضا خمسة اعوام لم ار فيها ملبسا جديدا ولم اعرف الشبع خلالها . ولقد وصلنى خبر آنذاك مفاده ان اختى المتزوجـــة فى عزيز آباد مريضـــة ، فالتمست من السيد ارباب رضا مبلغ خمسة تينغات ، اردت ان اذهب لزيارتها ، ولكنه رفض ان يعطيها . فأثر ذلك بى كثيرا وقررت ان اهرب منه . خرجت من القرية صحبة خامرا رفيق وفى منتصف الطريق افترقت عنه دون ان اخبره بوجهتى . ولكننى اذ سمعت بنبأ وقوعـه فى السجن بتهمـة قتلى قلت لنفسى : »ليكن ما يكون ، سارجع لاخلصه من السجن مهما كلف الامر» .

فرفع ارباب رضا يده وهو يقترب من النائب : – اريد ان اقول كلمة ايها السيد نائب القاضى .

– تكلم !

– لقد صرفت مبلغ مائتى تينغ على دفن والدَىّ هذا الفتى . ثم اطعمته هو نفسه وسقيته وكسوته وانشأته ، وهذا كلفنى ايضا لا اقل من مئتى تينغ ايضا . الا انه بدل ان يكافئنى على هذا بعمله الخائب بعد ان شب ، هرب منى . ولذلك ارجو منك ان تلقى به فى السجن وتعاقبه على ذلك . ليكون امثولة لغيره من الحفاة . وبعد ان يلقى العقاب الذى يستحق ويندم على فعلته ليرجع الى بيتى ليخدم فيه ويسدد لى ما انفقت عليه وعلى دفن والديه !

قال نائب القاضى له وهو يوجه اوامره الى اتباعه : – انك على صواب . هيا اربطوا يدى هذا الفتى وشدوه الى حصان . ثم القوا به بعد ذلك فى المحبس التابع لديوانى .

القى اتباع نائب القاضى القبض على تورا مراد .

فخمدت ضجة الفلاحين الفرحين بعودتـه وباقتراب تخلص خامرا رفيق من مصيبته فاصابهم القنوط وسكتوا ، قال احدهم :

– لو لم يرجع لكان ذلك افضل له .

ولكن تورا مراد نفسه كان يضحك ، فسأله خامرا رفيق دهشا : – ما الذى يضحك وقلوب الناس تتفطر على اعتقالك ؟

– عمرى الآن ثلاثون عاما ، ضيعت منها خمسة اعوام فى خدمة ارباب رضا . اضحك لان سيدى يسمينى فتى فهو لا يكتفى كبقية الاغنياء بسرقة جهود خدمهم وانما يسرق منى سنواتـــى ايضا ! والعجيب ان السيد نائب القاضى يسمينى ايضا هكذا .

فقال كورى اشكامبه محتدا : – رائحة حليب امك تزال تنبعث منك وتقول ان عمرك ثلاثون عاما .

ولم يمرر نائب القاضى وقاحة تورا مراد هذه من غير عقاب ، فامر اتباعه بضربه بالسوط والاسراع بسوق الجياد لازاحته عن الاعين . فنفذ امره فى الحال ، وخرج الركب من القرية . اما اهالى بولماخورون الذين استقبلوا ذلك الركب فى البداية بالضحك على مشهد قدوم كورى اشكامبه فقد ودعوه الآن باللعنات الغاضبة والسباب المقذع .

١٤

لم يعجب اغنياء المنطقة ان كورى اشكامبه يعرف الدرب الى القرية ، بخاصة ارباب رضا اكبر مراب بين قريتى سانغسابازوبولماخورون . اذ لم يكن مستعدا للتخلى عن نسبة الستة بالمائة التى يحصل عليها من القروض التى يمنحها للناس هناك ، فى الوقت الذى لم يكن راسماله يسمح له بمناطحة الاغنياء من امثال كورى اشكامبه . الا ان اكثر ما كان يهمه ليس هو المال ذاته بل الارض التى كان يطمح الى انتزاعها من ايدى الفلاحين

ليضمها الى املاكه . وكان تحقيق ذلك باعطاء القروض بنسب قليلة صعبا جدا ويحتاج الى كثير من الوقت . وكان يفهم انه حتى لو اعطى قروضه بنسب اقل من تلك التى يفرضها كورى اشكامبه فان الفلاحين سيذهبون ايضا الى مرابى المدينة ، لانه لا يحتاج الارض ولن يترك مدينته ليأتى الى القرية لكى يمارس الاعمال الزراعية .

الا ان ارباب رضا لم يكن يستطيع قطع طريق كورى اشكامبه الى القرية ، لا بمساعدة السلطات المحلية ولا عن طريق التهديد والوعيد . فانه كان يعرف ان نائب القاضى صديق المرابى ، وان هذا سيهب للدفاع عنه فى اية لحظة .

كان لارباب رضا حصان ، ثم اشترى آخر ووضعه فى نفس الاسطبل . وفى البداية كان كلا الحصانان يتعاركان ويتعاضضان عندما يقدم اليهما العلف حتى ينهكا ، فيبقيان على جوعهما . مع الوقت اعتاد كل من الحصانين على الآخر فاخذا يقتسمان الشعير والبرسيم بوفاق . بل وكان يحدث ان شبع احدهما قبل الآخر ان يداعب صاحبه ملاطفا بحك اسنانه فى رقبته .

وكان لارباب رضا كلبان ايضا . ورغم انهما ترعرعا فى بيت واحد فانهما كانا يشتبكان بالعراك دائما حال ان تعرض عظمة اليهما بحيث يتطاير الشعر من كليهما حفنات وهما ينشبان اسنانهما فى بعض وفى نهاية الامر يخسران العظمة كليهما فلا تكون من نصيب احدهما .

«ان اصبحت العلاقة بينى وبين كورى اشكامبه مثل العلاقة بين كلبى فاننا لن نحصل على فائدة من الفلاحين . اما اذا تفاهمنا فاننا نستطيع سوية ان نشبع انفسنا كل حسب شهيته» .

بعد ان توصل ارباب رضا الى هذا القرار ذهب الى كورى اشكامبه عارضا عليه ان يأخذ منه الاموال بنسبة شهرية قدرها ثلاثة تينغات عن المائة فيقرضها بدوره للفلاحين المحتاجين بالنسبة السابقة وهى عشرة او ثمانية تينغات عن المائة مقابل رهن اراضيهم عنده . اما اذا حدث حادث اضاع نقود احدهم فانه ، هو

ارباب رضا ، سيتحمل كل الخسارة ، وبذلك لن يعرض كورى اشكامبه نفسه لأى احتمال فى الخسارة .

وافق هذا الشرط كورى اشكامبه الا ان صوت بخله الشديد لم يستطع التوقف عن الزعيق ، فابدا كورى عدم رضاه لارباب رضا :

– النقود منى ولكن الربح يعود اليك ! اقبض ثلاثة تينغات عن المائة وانت تقبض من خمسة الى سبعة تينغات ، فهل تسمى هذا عدلا ؟!

رد ارباب رضا عليه بان سرد على اسماعه قصة حصانيه وكلبيه ، فجلبت هذه القصة الهدوء والطمانينة الى نفس كورى اشكامبه . فعلا ، لم يكن عنده مبرر للاحتجاج على هذا الاتفاق ، فذلك الجزء من رأسماله الذى كان مرميا فى البنك ولا يجلب له فائدة اكثر من خمسة فى المائة سنويا اصبح بفضل ارباب رضا يجلب له الآن عشرة اضعاف تلك النسبة ، من غير هموم ، ومن غير خوف على ضياعها ، واذن فقد تحقق حلم حياته اخيرا .

كان ارباب رضا مرتاحا لهذا الاتفاق ايضا . فهو يهيىء له الآن امكانية عقد صفقات كبيرة بالاموال التى يقرضها اليه كورى اشكامبه ، واصبح يأخذ رهنا عنده اراضى واسعة جدا لم يكن يفكر بها من قبل ، ليستولى عليها من بعد ويجعلها ملكية خالصة له . كان يحرر على الفلاحين الذين يقترضون الاموال منه كمبيالات ، لا لمدة عام واحد اوعامين كما كان ذلك من قبل ، بل «لحين الطلب» . فهو الآن يستطيع بمساعدة نائب القاضى مطالبة الفلاح بدينه اى وقت يشاء ، حتى وان كان ذلك اسوا اوقات العام ، كالفترة السابقة لجنى المحاصيل .

اول ضحايا هذين الكلبين اللذين «تحولا الى حصانين» كان خامرا رفيق . فقد طالب كورى اشكامبه مدينه ، بايعاز من ارباب رضا ، بتسديد دينه فى اتعس موسم ، فلم يستطع هذا ارجاع المبلغ . وهكذا تحولت ارضه الخصبة التى تعدل قيمتها عشرة آلاف تينغ الى ارباب رضا مقابل اربعة آلاف .

ولما كان بخل كورى اشكامبه وجشعه لا يدعانه يذوق طعم الراحة فقد قرر ارباب رضا دعوته الى احدى القضايا التى

تبحث فى المحكمة للفصل بينه وبين الفلاحين لكى يطلع كورى بنفسه على جسامة المشاق التى يتحملها اثناء سير المحكمة ، ويرى بعينيه اى جهد يبذل للحصول على ذلك الربح الذى يحصل عليه من تلك القروض . وهكذا استقبل ارباب رضا ، يوم المحاكمة ، كورى اشكامبه فى بيته وقد اعد له وليمة .

كان الوقت آنذاك خريفا ، الا ان المحصول لم يكن قد جنى بعد كله . وكانت جوزات القطن قد تفتحت ، وتدلت البراعم والعناقيد الثقيلة مصبوغة بالذهب ، واصفر بطيخ الخريف يسحر العيون !

الا ان فلاحي قريـــة سانغسباباز المجتمعين قرب بيت ارباب رضا لم يكونوا ليعباوا بالقطاف ، فقد كانوا يجلسون بوجوه مهمومة على جانبى البوابة كما يجلس الناس فى المآتم . الا انـه لم تكن تتردد فى الباحة اصوات بكاء او قراءة القرآن . على العكس ، كانت اصوات مرحة تتناهى منها ، ونكات ، وضحك ، كما لو ان عرس يجرى هناك .

كانت ثمة مادبة مقامة فى بيت ارباب رضا ، زينتها كورى اشكامبه ونائب القاضى لقضاء غالا – اسيا خوجا مرزا الذى كان يدعى ايضا «عبد بطنه» . اما بقية الامكنة فى الغرفة الواسعة فقد شغلها اتباع نائب القاضى وشتى انواع اللقامة ، كمختارى قريتى سانغسابز وبولماخورون .

وبعد ان اكل كل ما يُؤكل وشُرب كل ما يُشرب قال نائب القاضى لارباب رضا :

– يمكن البدء فالنهار يقترب من نهايته .

– عظيم ! – وافقه ارباب رضا ناهضا من مكانه . ثم فتح درجا واخرج منه ربطة من الاوراق اعطاها الى نائب القاضى . وبعد ان القى هذا نظرة على ما تحتويه من وثائق سأل ارباب :

– وهل يجب النظر فى كل هذه القضايا اليوم ؟

– نعم ، فاذا اجلنا بعضها فقد يظهر من يحيد مدينينا عن الطريق .

تناول نائب القاضى فى يديه احدى الوثائق قائلا :

– هذه باسم محسن ، لنبدأ بها !

اعقب ارباب : – لا . فهذا يصرخ فى كل مكان قائلا انه اعاد لى نقودى ، ومن غير ان اقسم اليمين لا يعطينى هذا شيئا ! وانت تعرف انه يستطيع التلفظ بكل ما يخطر على باله اثناء بحث القضية ولذلك فقد يؤثر سلوكه هذا على الآخرين فتتحرك السنتهم ايضا . الافضل بحث قضيته بعد ان ننتهى من القضايا كلها .

اختار نائب القاضى وثيقة اخرى .

– هذه باسم شادمان ، هل نبدأ بها ؟

اجاب ارباب : – نعم . فالدفعة الاولى من النقود المستلمة من السيد كورى اقرضتها اليه . هذه الثمرة انضج من غيرها من ثمار شجرتنا ، اول محصول لتعاوننا . – امر نائب القاضى اتباعه باستدعاء شادمان ، فجاء احدهم ورمى حصيرة غير كبيرة قرب باب الغرفة التى يجلس فيها نائب القاضى ، ثم ذهب الى الفلاحين المنتظرين وراء البوابة وعثر على شادمان بينهم ، فاجلسه على تلك الحصيرة . دخل بقية الفلاحين وراء شادمان الى الباحة ووقفوا وراء ظهره .

فتوجه نائب القاضى بكلامه الى ارباب :

– اجلس انت ايضا على الحصيرة الى جانب الشخص الذى رفعت ضده دعواك .

فسأل ارباب بصوت ينم عن الانزعاج : – وهل من الضرورى ان اجلس على الحصيرة ايضا ؟

– نعم ، لا محيص عن ذلك . الاصول تقتضى جلوس المشتكى كائنا من كان الى جانب المستدعى .

مسح نائب القاضى الوثيقة فى يده بنظرة ، ثم سأل :

– من منكما شادمان ابن يوسف ؟

اجاب الفلاح : – انا يا حضرة نائب القاضى !

– اصحيح انك استلمت من ارباب رضا مبلغ الف تينغ دينا قبل ثلاثة اعوام ؟

– نعم ياحضرة نائب القاضى .

– وهل صحيح انك رهنت ارضك التى مساحتها اربع تانابات

عند ارباب رضا مقابل ذلك الدين ، ثم استأجرت هذه الارض منه بشرط ان تدفع له ثمانين تينغا كل شهر ؟

– صحيح يا حضرة نائب القاضى !

– الوثيقة تنص على انك اعطيت وعدا بارجاع المال حال الطلب ، وفى حالة عدم تمكنك من ايفاء الدين او تسديد مبلغ الايجار فانك ملزم بالتخلى عن ارضك لارباب . هل هذا صحيح ؟

– صحيح يا حضرة نائب القاضى !

– رفع ارباب رضا الآن دعوى عليك كتب فيها : «ان لم يستطع شادمان ارجاع دينه لى وايجار عام كامل ارجو تحويل ارضه الى اسمى» . وهكذا فانه يتوجب عليك الآن اما اعادة الدين او التخلى له عن ارضك . فماذا تقول ؟

فتوجه شادمان الى نائب القاضى بقوله : – يا حضرة نائب القاضى ! ان فوائد دينى لارباب رضا خلال هذه الاعوام الثلاثة . .

– لا تقل «فوائد» ، قل «ثمن استئجار الارض» !القاضى ونائبه لا يبحثون القضايا الخاصة بالفوائد ، فهذا محرم فى الاسلام . وقد كتب فى الوثيقة : «ثمن استئجار الارض» !

فاذعن الفلاح : – سمعا وطاعة . لقد دفعت له ثمن استئجار الارض منه طيلة هذه الاعوام الثلاثة فى المواعيد المحددة . بالاضافة الى ذلك كنت اعينه فى امور الزرع فقد اعرته ثورى وحمارى ومنجلى ومحراثى . ولذلك ارجو من ارباب ان لا ينسى جميلى معه ويمهلنى مدة اسبوعين حتى انتهى من الحصاد فاستطيع دفع دينى له !

فسال نائب القاضى ارباب :

– ما الذى تقوله ؟ اتعطيه هذه المهلة ام لا ؟

فاعلن هذا : – لا . لن اعطيه يوما واحدا ! واما يرجع لى دينى الآن بحضورك او يرجع كمبيالة الارض .

فنطق نائب القاضى خاتما بحث الدعوى . – المستدعى يرفض اعطاءك هذه المهلة . ولذا يتوجب عليك اما تسديد دينه الآن او التخلى له عن ارضك ، وليس هناك مخرج آخر .

– ولكننى لا املك مالا نقدا الآن !

– ومن اين تاتى به بعد اسبوعين ؟

– عندى قطعة مزروعة بالمارينا * منذ ثلاثة اعوام ، محصولها يسد دينى لارباب تقريبا . وهناك قطعة اخرى مزروعة بقطن تفتح وازدهر فاصبحت ارضه مثل حديقة . بعد فترة قصيرة ساجنى هذا القطن وابيعه فتتوفر النقود عندى !

فاقترح نائب القاضى على ارباب : – اعطه مهلة عشرة ايام على الاقل انّ لم تعطه اسبوعين ، ليجن مَدينك محصوله فتتوفر عنده النقود .

قال هذا : – كلا ! وكما ان الرب واحد فان كلمتى واحدة ايضا . ولن اعطه مهلة ولا حتى ساعة واحدة !

فاعلن نائب القاضى : – لا استطيع ان افعل اكثر من ذلك . وعليك يا شادمان طبقا لما تنص عليه الوثيقة ان تعطيه اما الدين واما الارض !

فقال شادمان : – لكى اعطيه الارض يجب قلع الحاصل اولا .

فهرع ارباب رضا الى نائب القاضى قائلا : – اسمح لى يا سيدى ان افصح عما عندى !

– تكلم !

– ارجو التفضل باعادة قراءة الوثيقة فاذا كان قد كتب فيها بان الارض تعود لى بعد قلع الحاصل فاننى اوافق على ذلك . واذا لم يكن ذلك فى النص فاننى ارجو ان تقوموا الآن باعداد الوثيقة اللازمة لتسجيل الارض باسمى مع كل ما عليها من محصول !

قرأ نائب القاضى الوثيقة مرة اخرى ثم نظر نحو شادمان وقال :

– لا يوجد مثل هذا الشرط فى النص . ولهذا فان الممتلكات المنقولة كالمحراث والفاس تستطيع ان تاخذها اذا كانت موجودة هناك . اما جنى الحاصل فذلك مالا يحق لك . وهكذا فانت ملزم بالتخلى لارباب عن ارضك مع كل ما عليها من زرع .

---

* اعشاب معمرة تصنع من جذورها اصباغ جيدة للاقمشة . **الناشر .**

فهتف شادمان بحزم : — لا ، لن اتخلى له عنها ! لن ارضخ لهذا القرار الجائر ! هذا سلب ! لن ارضخ حتى لو قطعتم راسى مائة مرة !

فصاح نائب القاضى به متوعدا وهو ينهض من مكانه ويعود اليه : — ما الذى قلته ؟ ما هذا الذى تدعوه بالجائر ؟ قرارى ام طلب ارباب رضا ؟ ما الذى تقصد بهذا ؟

فاعقب شادمان بعناد : — لا يهمنى من يقرر ومن يطلب ! هذا جور وسلب !

وايده فلاحون يقفون وراء ظهره :

— صحيح ما يقول . هذا جور وليس له من الشريعة شىء . انتم تسلبونه !

فسال نائب القاضى اتباعه وهو يشير بيده الى الفلاحين :

— من هؤلاء ؟

اجاب احد الاتباع : — من مدينى ارباب رضا ايضا . ينتظرون دورهم للنظر فى قضيتهم .

— اطردوهم من هنا جميعا والقوا بهم خارج الباحة ، وعندما يحين دورهم استدعوهم واحدا واحدا . لم يُطلب من احد الدفاع عن شادمان !

خشى اتباع نائب القاضى طرد الفلاحين بالقوة فطلبوا منهم باحترام الانسحاب الى خارج الباحة .

وعندما ابتعد الفلاحون توجه نائب القاضى الى شادمان قائلا : — تنقل ملكية ارضك بكل ما عليها من محاصيل الى ارباب رضا . اما انت فترسل الى السجن لتحاملك على نائب القاضى وعلى شخص محترم مثل السيد ارباب رضا ! — ثم اصدر امره فى الحال : — احبسوا هذا المجرم مؤقتا فى اسطبل ارباب رضا ، لناخذه فى المساء معنا . اما فى الغد فسنرسله مخفورا الى السيد قاضى القضاة .

القى شادمان فى الاسطبل واغلق عليه الباب . ثم اُستدعى الآخرون واحدا بعد آخر . وكان الخوف قد سيطر عليهم بعد ان راوا ما اصاب شادمان ، وهكذا وافقوا على التخلى عن اراضيهم دون مماحكات ، مع كل ما عليها من محاصيل .

* * *

وجاء دور محسن ايضا . نظر نائب القاضى الى الوثيقة المسجلة باسمه ثم قال :

— قبل عامين اخذت من ارباب رضا مبلغ الف وخمسمائة تينغ وبعت له مقابل ذلك المبلغ ارضك . هل هذا صحيح ؟

— صحيح . لقد رهنت ارضى عند ارباب رضا وعقدت اتفاقا معه استاجرت بموجبه ارضى منه . وقبل هذا العام كنت ادفع ثمن ايجار الارض فى حينه . ثم دفعت له منذ شهر دينه كاملا واسترجعت بذلك ارضى منه .

— لماذا لم تاخذ منه الايصال عندما سلمت له دينك وايجار الارض ؟

— لقد جلبت له الدين مساءا وطلبت منه آنذاك ان يرجع لى الايصال ولكنه قال بان الصعب العثور عليه فى المساء وسط الوثائق الكثيرة الاخرى التى بحوزته . واكد لى بان كل شىء على ما يرام وانه سوف يعثر عليه فى الصباح ثم يعطيه لى بعد ذلك ، فصدقته ومضيت . وفى الصباح طالبته به فانكر كل شىء بل راح يطردنى كما لو اننى اغضبته . اما الآن فهو يطالب امـا بارجاع النقود او التخلى عن الارض ! وانـا الذى اعطيته الدين فى ذلك المساء ولا شاهد لى على قولى الا الله ! — قال محسن ذلك ثم اخرج من عبه ورقة ومد يده بها الى نائب القاضى ، فقام احد المستخدمين ، وكان يقف قرب الحصيرة التى جلس عليها المشتكى والمتهم ، فتناولها منه وقدمها الى نائب القاضى فتفحصها هذا بانتباه من البداية حتى النهاية . ثم قال لارباب رضا :

— المتهم يقدم ايضاحا يفند فيه دعواك . وقد ذكر انه ارجع لك النقود بينما بقى الايصال عندك . وهو يلتمس من القاضى اجبارك على اعادة هذه الوثيقة اليه . وقد ايد بعض مفتىّ بخارى ادعاءه هذا ووضعوا اختامهم على هامش الايضاح . فهل صحيح انك استلمت فعلا كامل نقودك فى الوقت الذى ابقيت فيه ايصاله عندك ؟

– اننى لا اعرف شيئا من هذا القبيل لاننى لم استلم اى شيء من محسن !

فاستفسر نائب القاضى من محسن :

– هل تستطيع ان تقدم شاهدا يؤكد ما تدعى ام انك تريد احالة ارباب رضا على اداء اليمين ؟

– ليس عندى شاهدا ولا وثيقة تثبت ما اقول ولذلك ارجو احالة ارباب رضا على اداء اليمين ! فاذا فعل هذا فانى مستعد لدفع الدين ثانية امامكم واسترجاع وثيقتى منه .

قرر نائب القاضى تأجيل هذه الدعوى الى الاسبوع القادم . فاذا لم يتفق الطرفان على حل بسلام فانه سيستانف بحث القضية فيحيل ارباب الى اداء اليمين ويحكم على محسن بدفع الدين . .

* * *

قال ارباب رضا لنائب القاضى وهو ينهض من الحصيرة التى كان يجلس عليها اثناء بحث القضية :

– لن يصدقك احد بعد !

فهتف نائب القاضى منفعلا : – ولماذا ؟ لماذا ؟ . .

لِمَ حولت مجرى القضية لصالح محسن ؟

– ولكن الشريعة تقبل اجتهادات اشخاص آخرين غيرى وهم المفتون . ولا استطيع الاستهانة بقرارهم المثبت على هامش ايضاح محسن فان ذلك يجلب لى اكبر الضرر !

– واذن سافشل فى الاسبوع القادم ايضا فى الفوز بقضية محسن ؟

قال نائب القاضى :

– هناك طريقة مضمونة ، وهى ان تقوم باداء اليمين فتفوز بذلك بالقضية .

فهتف ارباب محتدا : – ابدا لن اؤدى اليمين !

فتدخل كورى اشكامبه : – اعرف طريقة لا ينفع معها قرار مفتى ولا تحتاج ولاداء يمين .

– قل لى ما هى ! فاذا استطعت الفوز بدعواى على محسن فاننى لن انسى لك هذا المعروف حتى يوم القيامة .

فقال كورى اشكامبه : – لقد خسرت قضية محسن ولا تفكر بالفوز بها . ولكن عليك ان تسلك مع الفلاحين فى المستقبل بطريقة اخرى . .

صاح ارباب رضا فارغ الصبر : – اية طريقة ؟ هيا تكلم ولا تتمهل ! . .

فرد كورى اشكامبه :

اريد وعدا باقتسام الفائدة التى ستجنيها من طريقتى الخاصة مناصفة . آنذاك فقط استطيع ان اخبرك بها .

– اعدك الف مرة وبحضور السيد نائب القاضى ان كل المدخول سيقتسم معك .

افضح كورى اشكامبه مستعدا للعودة الى المدينة :

– اسمعونى اذن ! هذه الطريقة تتلخص باعتماد الكمبيالات الروسية بدل الايصالات التى تصدق عند القضاة ! هذا هو الحل . . الكمبيالات الروسية !

١٥

بعد ان راى كورى اشكامبه فى بيت ارباب رضا بام عينيه كيف يجرى بحث الدعاوى مع المَدينين عقد اتفاقا جديدا مع ارباب ، اتفاق حول قروض مربحة تعتمد على الكمبيالات اساسا . واعتمادا على شروط هذا الاتفاق الجديد فان الارباح التى اخذ ارباب رضا يحصل عليها راح يقتسمها مع كورى اشكامبه مناصفة . وكانت مهمة توجيه ارباب رضا والاشراف على اعداد هذه الكمبيالات تقع على عاتق كورى اشكامبه .

وكانت اول ضحية وقعت فى مصيدتهم الجديدة هذه محسن نفسه . عزم كورى اشكامبه على مغادرة القرية والتقى قبل ذلك بمحسن وابدى امامه عدم رضاه عن تصرفات ارباب رضا رغبة منه لجذب محسن نحوه :

– هذا العديم الذمة ارباب ياخذ منى النقود بفائدة ثلاثة تينغات عن المئة والآن اتضح انه يقرضها لكم بفائدة تسعة تينغات لكل مئة . فهل هناك ما هو اكثر جورا من هذا ؟! اننى اكتفى بالثلاثة اما هو فلا يشبع بستة تينغات !

وهكذا ، بعد ان تظاهر كورى اشكامبه امام بان ارباب رضا قد خدعه هو ايضا ، قال له عارضا عليه مساعدته : — تعال الىّ فى المدينة حالما تعوزك النقود ، اننى لن اخدعك مثلما فعل ارباب !

واذ حالف النجاح محسن عند اعادة النظر فى قضيته المرة الثانية قدم الى المدينة لزيارة كورى اشكامبه الذى استقبله بحفاوة وحرارة مستفسرا عما آلت اليه القضية . فاجابه محسن :

— رفض ارباب اداء اليمين فلم يبق امام نائب القاضى الا اصدار الحكم فى صالحى وهكذا اعلن ان دعوى ارباب لا تستند على اساس وطلب منه ان يعيد لى وثيقة رهن الارض .

فهتف كورى اشكامبه منبهرا : — عفارم ! لا يخشى عليك من شىء ! ولكن ، يبدو انك تحملت الكثير من النفقات من اجل ذلك ، فكم صرفت ؟

— ثمانمائة تينغ ، مئتا تينغ لكل مفتى

— ولعلك اعطيت نائب القاضى ايضا مبلغا ما ؟

فقال محسن : — اعطيته بالطبع . من غير ذلك لا يمكن ان تفعل شيئا . كان نصيبه مئتى تينغ ايضا . ولهذا السبب اجل النظر فى القضية اسبوعا ، فقد عرف باننى سادهن بلعومه بذلك المبلغ !

— هذا يعنى انك صرفت الف تينغ من اجل ان لا تعطى ارباب الفا وخمسمائة .

فاجاب محسن : — نعم هكذا ، ولكن المهم ليس هذا . بل المهم اننى انتزعت ارضى من بين يدى ارباب ومرغت وجهه امام الملا فعرف الاصدقاء والاعداء اى شخص هو وفهموا بان لكل سلطان متسلط اعلى . اما النقود التى صرفتها فقد تجاوزت الالف لان الفوائد المترتبة عليها وصلت حتى الآن الثلاثمائة تينغ .

فتحسر كورى اشكامبه متاسفا : — اوخ ! اوخ ! كيف تحملت كل هذا ولماذا لم تات الىّ مباشرة ؟

كان كورى اشكامبه يتظاهر بالاسف على محسن ولكنه فى واقع الامر كان يتعذب لمرور تلك «اللقمة الدسمة» قرب فمه دون ان يحصل عليها . وكانت اصابعه الجشعة تتحرك كما لو انها

تحسب عدد التينغات التى ضاعت منه فى الشهر عن كل مائة يقرضها الى متحدثه .

— كنت اعتقد انك اقرب اصدقاء ارباب رضا اليه فكيف تقرضنى نقودا استخدمها ضده !

— اولا ، لا يمكن ان يكون مراب صديقا لمراب آخر . فالمرابون على عداء دائم مثل عداء الكلب والقطة . وثانيا ، لا يعجبنى انه يعطينى ثلاثة تينغات على المائة اما هو فياخذ عنها تسعة او عشرة تينغات من الفلاحين . . . ليس هذا عدلا ، لا بالنسبة لى وحدى بل بالنسبة للفلاحين الفقراء ايضا . . .

فقال محسن : — اذا اردت ان تصنع لى معروفا فلم يفت اوان ذلك بعد . اعطنى مبلغا من المال لمدة طويلة وبفائدة قليلة . فدينى اليوم يصل الى الف وثلاثمائة وعشرة تينغات ، وغدا يزداد عشرة تينغات اخرى . وهكذا احتاج الى هذا المبلغ منك .

— اذا كان الامر هكذا فخذ لك الف واربعمائة تينغ تدفع منها دينك وتصرف الباقى على احتياجاتك !

— وما هى الفائدة التى تطلبها منى ؟

— اربع تينغات اقل مما دفعت لارباب رضا . اى خمسة تينغات على المائة فى الشهر . غير ان موعد الدفع يجب ان يحدد منذ الآن .

— اعتقد اننى استطيع دفع الدين وفوائده بعد جنى حاصل السنة القادمة .

— اى سنة كاملة ؟

— نعم سنة كاملة . ولكن اى مساحة من ارضى يجب اعداد وثيقة رهن بها ؟

— لا احتاج لوثيقة رهن . يكفى ان تعطينى كمبيالة بالمبلغ الذى تستدينه مضافا اليه فوائده .

كان محسن فرحا ودهشا وخائفا فى نفس الوقت من كلمات كورى اشكامبه . كان فرحا لان كورى قال له : «لا احتاج ارضك» ودهشا للثقة التى ابداها المرابى به ، انه يعطى نقوده من غير وثيقة رهن ، فهذه نكتة بائخة ! يسمع محسن كلمة «كمبيالة» هذه

لاول مرة من كورى اشكامبه ولذا فقد سيطر الخوف عليه منها .

فكر محسن «ما قضية هذه الكمبيالة ؟ وماذا لو كانت تخفى شيئا ما بحيث تنقلب المسالة صندى ؟» الا انه راح يطمئن نفسه : «هذا غير وارد ابدا ..»

وشعر كورى اشكامبه ان صاحبه يتردد فى عزمه فقال له رغبة فى تبديد شكوكه :

– لقد اشفقت عليك لما اصابك ولذلك لا اطلب منك ورقة مصدقة عند القاضى فهذه تتطلب الكثير من النفقات ! وانا اثق بك واريد اعطاءك النقود دون اية وثيقة . الا ان المشكلة اننى احتاج الى هذه الكمبيالات لعلاقة ذلك باعمالى فى البنك . ولذلك فاننى مضطر لاخذ كمبيالة منك ايضا . ولكن لا داعى لان تعتقد بانها تحمل اليك بعض السوء ، بل لا داعى لشكوك كلها ..

كان محسن ما يزال مترددا :

– وما حاجة اعمالك للكمبيالة فى البنك ؟

فضحك كورى : – اى شخص شكاك انت ! اسمع ، ساشرح لك : لو فرضنا باننى آخذ منك كمبيالة بمبلغ الفى تينغ فاضعها فى البنك ، آنذاك يمكنهم ان يعطونى قرضا بمبلغ الف تينغ ، فاستطيع ان استخدم هذا المبلغ ايضا . اما وثائق الرهن فهذه مسالة اخرى ، لا يعترف بها البنك حتى لو كان عندك منها كيسا مليئا بها فلا يشتريه ولا بكوبيك واحد !

انتهى الامر بان وافق محسن على اعطائه كمبيالة ، وسال : – متى استطيع استلام النقود مقابل الكمبيالة ؟

– مر علىّ فى الصباح . وبالمناسبة ، هل تعرف القراءة والكتابة ؟ هل تستطيع ان توقع على الكمبيالة ؟

– ومن اين لى ان اعرف القراءة والكتابة وانا فلاح بسيط !

– ليست هذه مشكلة سنجد عند كاتب العقود مَنْ يوقع عوضا عنك .

* * *

سافر كورى اشكامبه ومحسن فى اليوم التالى الى كاغان . وباضافة ثمن اعداد الكمبيالة ، واجرة كاتب العقود ، والمبلغ الذى

يجب ان يعطى الى من يوقع عوضا عن محسن ، والفوائد المترتبة على الدين لمدة عام ، الى الالف والاربعمائة تينغ التى استدانها محسن ، اوصل كورى اشكامبه المبلغ الاجمالى الى الفى واربعمائة تينغ . اى بما يساوى ثلاثمئة وستين روبلا بالعملة الروسية . آنذاك دخل كورى اشكامبه بناية البنك وجلب كمبيالة بهذا المبلغ . ثم بحث عن شخص يعرف القراءة والكتابة ليوقع عوضا عن محسن ، ودخل الثلاثة سوية – كورى اشكامبه والمتعلم ومحسن مكتب كاتب العقود . وهناك وقع هذا المتعلم بحضور كاتب العقود – عوضا عن محسن الامى – على كمبيالة «بيضاء» بمبلغ ثلاثمئة وستين روبلا ، وكانت غفلا عن موعد التسديد . ثم وقع بعده كاتب العقود ، وعزز ذلك التوقيع بختمه .

خرج كورى اشكامبه من مكتب كاتب العقود بعد ان دفع له وللموقع عوضا عن محسن حقهما ثم امسك الكمبيالة بيده واخفاها فى عبه ، وبعد ذلك نقد محسن مبلغ الالف والاربعمائة تينغ قائلا :

– هل ترى وثيقة جيدة هى الكمبيالة ؟ لا تحتاج الى كثير من المصاريف والجهد . ومن اجل اعطاء الكمبيالة واستلام النقود لا حاجة لدفع الى القاضى لوضعه ختمه على الوثيقة ، ولا لكتبته لاستخدامهم اقلامهم ، ولا لنائبه لمساعدته فى اعداد الوثيقة ، كما لا تحتاج لمختار القرية ولشهود منها . وباختصار لا تحتاج لصرف نفقات زائدة ولا لرهن الارض . بمساعدة هذه الكمبيالة استطيع تخليص الفلاحين المحتاجين من براثن ارباب رضا ومن على شاكلته من المرابين . فهم لا يفكرون الا بكيفية انتزاع الارض منكم . فاخبر اصدقاءك وجيرانك بهذا الامر !

فوعد محسن كورى اشكامبه وهو يفترق عنه : – حسنا سأخبرهم بذلك .

* * *

بعد مرور شهرين على اعطاء كورى اشكامبه النقود الى محسن بكمبيالة اقيمت مأدبة اخرى غير كبيرة فى قرية سانغسابز ، وفى بيت ارباب رضا نفسه . وكان يحضرها من معارفنا القدماء كورى

اشكامبه حسب ، بالاضافة الى خوجا ميرزا واتباعه . اما مسنو القرية ورجالها المحترمون فلم يُدعوا الى هذه المأدبة . بل كان يشارك فيها شخصان جديدان . احدهما يناهز الاربعين بعمره ، متوسط الطول ، بوجه شاحب . اما لحيته فقد كانت مشذبة حليقة على غير عادة اهل بخارى ، وكان ثمة شاربان قصيران تحت انفه . وعلى ما يبدو من صايته الحريرية بنقوشها الكبيرة وخطوطها العريضة فقد كان من الرجال القائمين بخدمة الحكومة . كان راسه مزينا بعمامة بيضاء لا يضعها الا الموظفون والناس المتعلمون جيدا . وتحت صايته تلوح ملابس اوربية . وكان هذا الضيف يحتذى جزمة جلدية ناعمة من صنع بخارى .

اما الضيف الثانى فقد كان احمر الشعر ، لا لحية له ولا شاربان ، ويرتدى الملابس الاوربية . كان طويل القامة ، يابس العود ، ممشوق القوام .

كان الطعام يقدم خلافا للعادة هذا اليوم لا على مفرش يبسط على الارض بل على مائدة صغيرة مغطاة بشرشف ابيض وضعت وسط الغرفة ، وكان ما يقدم الى الضيوف هو نفس ما يقدم عادة كالدجاج المحمص ولحم الضان المشوى والرز باللحمة وغير ذلك من الاكلات المحلية . الا ان ما قدم الى ذينك الشخصين الجديدين كان غير ذلك من الأكلات الاوربية كالكاتليت * واللحم المقلى . وكان هذان الشخصان يختلفان باكلهما عن الآخرين فى انهما لم يكونا يستخدمان ايديهما فى الأكل بل كانا يقطعان اللحم بالسكين ويتناولاه بالملعقة ، وقد وضع امامهما كاسان من البلور وزجاجتان عليهما علامتان رسم فى اعلاهما خمس نجوم مذهبة ، فيما خطب تحتها حروف مذهبة ايضا لا تشبه الحروف العربية .

مد كورى اشكامبه قبل الجميع يده نحو اوانى الطعام محاولا ان يأكل اكثر من الآخرين ولكن عينيه كانتا مشدودتين الى الزجاجتين . رفع احد الضيوف القادمين من المدينة احدى الزجاجتين وحاول ان يقرأ ما كتب فى علامتها . فلم يستطع كورى اشكامبه الصبر اكثر وسأل :

---

* لحم مفروم مقلى يشبه الكباب البيتى . **المترجم** .

– ما هذا ؟

اجاب الضيف مبتسما : – كونياك .

– وما هو الكونياك ؟

رد الضيف وهو يصب لنفسه ولزميله : – انه دواء ! يهب الشيوخ القوة ويزيد شهية عشاق الأكل امثالك ! . . هل تريد ان اصب لك ايضا من هذا الدواء ؟

– اننى لا اشكو قلة الشهية ! ولكن ان سمحت المشاركة فلاجرب هذا النوع الجديد من الطعام . – ومن غير انتظار لرد غرف بيده نصف ما وجد من كاتليت الى انائه المفعم بالرز واللحمة ، ودون ان ينبس بحرف واحد بعد ذلك انكفأ عليه يحشو فمه الكبير منه ما استطاع الى ذلك سبيلا .

* * *

بعد ان ملأ الضيوف معدهم بالطعام قال نائب القاضى للرجل فى الملابس الاوربية :

– نستطيع الآن البدء بالعمل .

فوافقه الضيف : – نعم يجب البدء فالوقت يمضى .

فامر نائب القاضى اتباعه : – استدعوا محسن ، سفر علىّ ، بولاد ، تيمور وبقية المَدينين .

فتح الضيف ، الذى يرتدى الملابس الاوربية تحت صايته ، حقيبته الملأى بكمبيالات حفظت فى ملفات ، فاخرج من احداها بضعة كمبيالات ، ووضعها على ركبتيه .

ثم احضر اتباع نائب القاضى الفلاحين المدينين فاجلسوهم امام الباب . ولما رأى ذلك الضيف ذو الصاية والبدلة الاوربية ، والذى يبدو عليه انه موظف قال :

– انقلوهم الى غرفة الاستقبال فلسنا هنا فى ديوان القاضى او نائبه !

قاد اتباع نائب القاضى الفلاحين الى داخل الغرفة واجلسوهم امام الضيفين الجديدين . فرفع الموظف احدى الكمبيالات واجرى عليها نظرته برهة . ثم سأل المَدينين :

– من منكم محسن ؟

فاجاب احدهم :

– انا !

– لقد استدنت من السيد كورى عصمت الله مبلغ ثلاثمئة وستين روبلا ، والآن يطالب السيد بتسديد دينه . يتوجب عليك الآن ايفاءه حقه .

فاعترض محسن : – لقد استملـت من السيد كورى نقدا مبلغ مائتين وعشرة روبلات ، منها مائة وخمسون فوائد ونفقات اعداد الكمبيالة . فكيف يمكن مطالبتى الآن بعد مرور شهرين فقط باداء الدين كاملا اذا كانت الفوائد الداخلة فيه محسوبة لعام كامل !

فقاطعه الضيف : – تكلم باختصار ، هل ستدفع الآن مبلغ ثلاثمئة وستين روبلا او لا ؟ اجب : نعم او لا ؟

فكرر محسن سؤاله : – كيف يمكن ان ادفع دينا بعد شهرين تدخل فيه فوائد عام كامل ؟

– لم تحدد فى الكمبيالة المهلة المفروضة لدفع الدين . والسيد كورى يملك الحق بهذه الكمبيالة فى ان يطالبك بدينه لا بعد شهرين فقط بل وبعد يوم واحد ! وهو لطف كبير من جانبه ان لم يطالبك بشىء طيلة هذين الشهرين . اما وهو يطالب بدينه الآن فانك ملزم بادائه هذه اللحظة !

فلم يتخل محسن عن سؤاله : – كيف يمكن ان ادفع فوائد عام كامل ولم يمض على الدين غير شهرين ؟ !

– لا يهمنا ان تدفع فوائد سنة كاملة ام فوائد شهرين . مهمتنا ان تدفع الآن دينك كاملا طبقا لهذه الكمبيالة . هكذا هو القانون !

فهتف ارباب رضا : – انه قانون جلالة الامبراطور قيصر روسيا !

وصاح محسن يكان ينخرط فى البكاء : – اى عدالة هذه ! اى . .

فزمجر نائب القاضى مغضبا : – اغلق فمك والا قطعت لسانك ! كيف تجرؤ على نعت قانون جلالة الامبراطور باللاعدالة ! اتريدنى ان آمر الآن باجتثاث لسانك ؟

وقال الضيف ذو الملابس الاوربية : – لا داعى لاضاعة الوقت . يجب بيع املاك المَدين ما دام لا يريد تسديد دينه .

بعد ان صدر القرار ببيع ارض محسن وجميع ما يملك فى مزاد علنى لكى يسدد من ذلك مبلغ الثلاثمائة وستين روبلا استدعى الموظف الآخرين واحدا بعد آخر ، سفر على ، بولاد ، وبقية المَدينين . فاصاب املاكهم نفس ما اصاب املاك محسن .

كان دور تيمور هو الاخير . ولم يكن هذا قد استدان الالف تينغ من كورى اشكامبه الا قبل اسبوع واحد ولمدة عامين . وكان المرابى قد كتب عليه كمبيالة بمبلغ الفين ومائتى تينغ ، اى ما يعادل ثلاثمائة وثلاثين روبلا .

وعندما استدعى ووجهت اليه نفس الاسئلة التى وجهت لمحسن من قبل اخذ تيمور يصرخ ويعوى كالمجنون :

– لن ادفع فوائد سنتين واسبوع واحد مر على الدين ! ساقتل من يشترى ارضى ، اقتله والله بيدى ! !

فصرخ الضيف بتيمور بخشونة :

– اخرس يا قروى ! اتعرف من امامك ؟ اننى مترجم القاضى فى شؤون الكمبيالات . اما هذا فهو الحاكم القضائى لمحكمة كاغان . المتوحشون امثالك لا يستاهلون معاملة انسانية ، بل يجب معاملتهم بشراسة !

ثم امر اتباع نائب القاضى بالقبض عليه وايداعه التوقيف .

وبعد ان انتهى بحث جميع القضايا ولم يستطع احد المَدينين دفع دينه ، خرجت الجماعة كلها ، الحاكم القضائى ، مترجم القاضى ، نائب القاضى ، اتباعه ، وكورى اشكامبه ، الى حقول المَدينين التى تم الاستيلاء عليها لتقدير اثمان بيعها فى المزاد العلنى .

حضر عدد كبير من الناس المزاد العلنى ولكن احدا لم يستطع المساهمة بعمليات البيع والشراء غير ارباب رضا . ولهذا فان كل قطعة من الارض بيعت بثمن بخس لا يعقل فالتى تعدل قيمتها الفى تينغ او الفين ونصف بيع باربعمائة تينغ او خمسمائة .

وعند نهاية عمليات البيع والشراء توجه المترجم الى نائب القاضى :

– لنرحل الآن الى قرية خارغوش فنقضى بعض القضايا المتعلقة بالكمبيالات وفى طريق العودة نمر على ارباب رضا ثانية ، دعه ينهى حساباته وينتظرنا . ثم دخل العربة مع الحاكم القضائى ، وتوجها الى قرية خارغوش .

وعندما ودعوا الضيفين توجه كورى اشكامبه الى ارباب رضا :

– هيا ننه حساباتنا بدورنا .

– اى حسابات بيننا ! لقد استلمت من الفلاحين بفضل هذه الكمبيالات فوائد عام وعامين وقروضك لم يمض عليها غير ايام ، اما انا فقد استوليت على الارض التى كنت احلم بها طيلة العمر . وكما يقال «وفى الختام عليكم السلام» فاى حسابات اخرى بيننا ؟!

– ولكنك استلمت بفضل عملياتى المصرفية ارضا تقدر قيمتها بثلاثين الف تينغ مقابل اثنا عشر الف تينغ ! وهكذا فاننى اطالب بنصيبى من الثمانية عشر الف تينغ الباقية !

فاعلن ارباب : – تلك مسالة تهمنى وحدى !

فاعترض كورى اشكامبه : – مستحيل وفى اى حال من الاحوال ! الم تعدنى بحضور نائب القاضى باقتسام ما نربحه من الكمبيالات النصف بالنصف ؟

– وهل اخذت بقية المصاريف فى نظر الاعتبار ؟

فابدى كورى اشكامبه دهشته : – اية مصاريف ؟

قال ارباب رضا : – لن اتكلم الآن عن مصاريف المآدب . ولكن الا ينبغى اعطاء نائب القاضى واتباعه شيئا ما وهم الذين يواكبون كما نريد ؟

هز نائب القاضى راسه مؤيدا ما يقوله ارباب رضا . بينما وجد كورى اشكامبه الاعتراض على هذا الامر بحضور نائب القاضى نفسه مستحيلا ، وهكذا فقد اضطر الى الصمت .

واعقب القاضى هنا : – وكذلك المترجم والحاكم القضائى ينبغى اعطاءهما على الاقل ما يسد نفقات مشروبهما !

فسال كورى اشكامبه : – وهل ما شرباه من الكونياك هنا قليل لهما ؟

قال نائب القاضى : – قليل بالطبع . فلقد سمعتهما انهما ينويان المرور على ارباب رضا فى طريق العودة لانهاء «جميع الحسابات» فهل هذا لا يعنى انه يجب تهيئة حصتهما لاخذها معهما ؟

فدمدم كورى اشكامبه :

– يبدو انك تفهم على لغتهما جيدا !

فوافقه نائب القاضى : – بالطبع ! الم يقال بان «الذئاب تفهم لغة الذئاب» !

– طيب ، لنفرض ان الف تينغ تنفق على هذه المصاريف ، فما هو شان السبعة عشر الف تينغ الباقية ؟

لاحظ نائب القاضى ان المرابيين راحا يشتبكان دون مزاح مثل الكلاب المسعورة . فحسب ما اصاب كل من كورى اشكامبه وارباب رضا من ربح ثم قسمه بينهما بالتساوى ، فارضا «سلم الذئاب» بينهما .

* * *

دعانى احد زملائى فى المدرسة يوما ، وكان ابن فلاح من قرية شوركول ، وبعض الاصحاب ايضا ، لزيارتهم فى قريتهم اثناء نضج البطيخ للتلذذ بخيرات ذلك الموسم . فحصل احد المدعوين على عربة اما آخر فقد جلب لها حصانا . الا لم يكن بيننا من يملك عدة للدواب فاستخدمنا حبلا بدل حزام الجر ، ورمينا صاية قديمة على رقبة الحصان ، اخذ صاحبها على عاتقه مهمة الحوذى فجلس على السرج وقاد عربتنا بعد ان صعدنا اليها وكنا خمسة اشخاص ، وسرنا فى طريقنا .

سرعان ما عرفنا ان حوذينا لا يعرف التفاهم مع الحصان ، فقد كان هذا يتعثر بالابواب ويصطدم بالجدارن الطينية ، وبالكاد كان يسحب عربتنا خلفه فى شوارع بخارى الضيقة المتعرجة . وفى النهاية استطاع حوذينا ايصالنا الى بوابة المدينة ، وبعد ان اعتاد زميلنا الجلوس على السرج اثناء ذلك ، راح يقودنا بثقة بينة خال خروجنا الى الطريق الممتدة خارج المدينة . ولما وصلنا طريق شوركول وعبرنا الساحة كان صاحبنا قد تمكن فعلا من قيادة العربة بمهارة وحذق كحوذى اصيل ولد بالفطرة لهذه المهنة ، بحيث انه

جلس على السرج معطيـــا ظهره للحصان وراح يرمينا بالنكات والملح . وبين وقت وآخر يضرب بسوطه الحصان ليسرع خطاه ، اما هو فيغنى بصوت عال .

كانت طريقنا تمتد من ساحة ماشكى سربس حيث كان يُدرب الجنود – كان يفصلنا عنها قناة عريضـــة مملوءة بالماء – وحتى حديقة دلكوش الاميرية .

وكانت هناك فتاة تجلس فوق شجرة وراء السياج ، يبدو انها ابنة البستانى ، تجمع الاجاص . ولما رآها زميلنا الحوذى رفع صوته مغنيا ، فردت الفتاة عليه الغناء بالغناء ، اما لانها كانت ترغب هى نفسها بذلك او ان اغنية صاحبنا قد الهمتها ودفعتها الى ذلك . .

اجاص ، اجاص ، اجاص
فى البستان نضج الاجاص
فتعال . . من غيرك ليس
حلو هذا الاجاص

لم يترك حوذينا اغنيتها دون رد . فدفع عمامته الى الوراء قليلا ، ووضع الرسن على رقبة الحصان ، ثم انتصب فى مكانه على السرج ، وارسل نظرة نحو شجرة الاجاص التى كانت اوراقها تخفى الفتاة عن الاعين ، ورد عليها :

ليل عينيك ما اجمله
مطر الدمع فيه لا اقبله
ما الذى يحزنك ؟ . .
قولى ، فقد جئت الى بستانك
يا جميلتى ابتهل !

يبدو ان الاغنية الجوابية لحوذينـا قد اعجبت الفتاة ، فقد اقتطفت اجاصة من الشجرة ورمت بها المغنى الا انهـا سقطت – دون عمد بالطبع – على خطم الحصان ، فاداره الى جانب وقد ارعبته الضربة ، فاهتزت العربة دون ان تجد من يوجهها ، وزحفت العجلة اليسرى نحو القناة ، وما هى غير لحظة حتى سقطت العربة اجمع فى الماء .

كان الحذر عادتى فى لحظات الخطر ، والسير فى عربة يقودها حوذى بلا خبرة مسالة غير هينة ، ولذلك استطعت القفز منها الى الجانب الآخر من القناة ، فى آخر لحظة تسقط فيها العربة فى الماء . اما زملائى فلم يكونوا فى يقظة من امرهم وهكذا وجدوا انفسهم فى القناة مع العربة والحصان .

انطرح الحصان على جنبه داحضا بقوائمـــه فى الماء ولكن محاولاته الحثيثة للنهوض فشلت اذ لم يستطع التخلص من اسار عدته . وكانت حركته العنيفة لا تزيد حاله الا سوءا ، ورعبا .

خرج زملائى من الماء بملابسهم المبللة وراحوا يعتصرونها دون ان يفكروا بانقاذ الحصان ، بل دون ان يعرفوا كيف يفعلوا ذلك . اما زميلنا الذى استعار لنا الحصان فقد كان يشعر مقدما بالاحراج قبل ان يجابه صاحبه .

كان هناك جندى يسير على الطريق قادما من المدينة ، ولما رأى ما حل بنا هرع الينا بعد ان ترك ملابسه على جانب الطريق ، وهتف :

– ايحمل احد منكم سكينا ؟

كان زميلنا «العربجى» الذى كان يأمل التلذذ بأكل البطيخ قد حمل معه سكينا وضعها فى خرامه كعربجى مجرب اصيل . قال له :

– خذ هذه !

نزل الجندى فى القناة وقطع الحبل الذى كان يعيق حركـــة الحصان فارتفع ذراعا العربة عاليا واذ شعر الحصان بتحرره من قيده قفز على قائمتيه الاماميتين وتخلص من القناة . ثم نفض نفسه على اليابسة فتطاير الماء منه فى جميـــع الجهات . ربط الجندى الشاب نهايتى الحبل ، وشد الحصان بالعربة ، ثم جلس حوذينـا من جديد على السرج وواصلنا طريقنـا . اما الجندى الشاب فقد وضع ملابسه عليه وسار خلفنا . فناديت عليه :

– تعال يا اخى واجلس معنا !

نظر نحوى مبتسما بتهكم ثم نط الى العربة بقفزة واحدة . وبدا لى ان ابتسامته تضمر شيئا من السخرية فاصابنى غـم . «اريد ان اعرف ما الذى جعله يضحك منى هكذا ؟»

فسالته :

– ما هى وجهتك يا اخ ؟

اجاب الشاب وهو يبتسم من جديد : – قرية شانبين .

كانت ابتسامته لا معنى لها ابدا فسالته دهشا :

– ما الذى يضحكك هكذا ؟

اجاب الجندى الشاب وابتسامة عريضة تنفرش على وجهه :

– يضحكنى انك تنادنى «يا اخ» وانا لا اصلح ان اكون لكم اخ صغير ، فانتم كما يبدو فى الخامسة والعشرين او فى السادسة والعشرين ، اما انا فقد تجاوزت الاربعين .

فقلت له وانا اغير لهجتى فاجعلها اكثر احتراما :

– ومن اين لى ان اعرف كم لك من العمر ؟ وفى الظاهر لا يبدو انك قد تجاوزت الثامنة عشرة .

فقال الجندى بنبرة مهادنة : – ليس مدهشا اعتقادكم اننى شاب فقسمتى انه لم ينبت لى شارب ولم يخشوشن عظمى وتطول قامتى . ولكنى تذكرت حادثة مرت بى عندما رحتم تنادونى «يا اخ» ، كان ذلك قبل عشرة اعوام . آنذاك كنت انادى «يا اخ» ايضا .

فرجوته : – اية حادثة ، قص علينا ذلك .

– فى الثلاثين من عمرى كانت قوتى وطاقتى اكثر من الآن بالطبع . وفى احد الايام طالبت سيدى بان يدفع لى اجرة ما اشتغلت عنده طيلة خمس سنوات . فرفض هذا ان يدفع لى وقال لنائب القاضى : ما الذى يستطيع ان يفعله هذا الصبى ؟ فقلت لنائب القاضى بان عمرى ثلاثون عاما . وهنا ايد احدهم ، اسمه كورى اشكامبه وكان قادما من المدينة ، ادعاء سيدى وسخر منى قائلا بان رائحة حليب امى ما تزال تنبعث منى !

كنت قد ذكرت بانى كنت مهتما بكل ما يخص كورى اشكامبه ولذلك فقد ارهفت السمع الى الجندى وقد جاء ذكره على لسانه . سرد الجندى على قصة يعرفها القارئ فاتضح ان الجندى هو نفسه تورا مراد الذى القى ارباب رضا به فى السجن بمساعدة نائب القاضى لكى يروضه ويجعله صالحا لخدمته . ولكن تورا مراد رضى بكل المشاق والآم السجن ، وتحمل كل العذابات من اجل ان لا يعود الى ارباب رضا مرة ثانية .

لم يكن باستطاعة تورا مراد الحصول على نقود يطلق سراحه بها من السجن . وفى نهاية الامر باعه اتباع الميرشاب الى شخص هرب اخوه من الجيش ، وكان هذا الشخص بحاجة الى ان يسلم بدله احدا ما الى الجيش . فتقاسم اتباع الميرشاب النقود فيما بينهم اما تورا مراد فقد اصبح جنديا .

استفسرت منه مهتما بما آل اليه حال كورى اشكامبه :

– وهل كورى اشكامبه ما يزال يزور صاحبك السابق ارباب رضا ؟

– لا . فقد كانت بينهما قطيعة مرة . ارباب رضا مات اما كورى اشكامبه فقد كف عن الظهور فى سانغساباز وبولماخورون ، بل انه اخذ يخاف منذ ذلك الحين الخروج من المدينة .

عرفت منه ايضا ان فلاحى القرية قد هجموا على بيت ارباب رضا فى نفس ذلك العام الذى مارس فيه الاقراض بالكمبيالات بنصيحة من كورى اشكامبه ، فقتلوه واحرقوا بيته ، بعد ان دفعهم الى حافة اليأس بعد استيلائه على اراضيهم .

وهنا استدارت عربتنا الى طريق ضيقة تؤدى الى قرية شوركول . فقفز الجندى تورا مراد منها ، ثم ودعنا وهو يولى وجهه صوب قرية شانبين .

١٦

على الجانب الايمن من الزقاق الضيق المتفرع من تقاطع اسواق «سيسو» * كما يعرفه البخاريون تقع خانة صغيرة ، كنت امر الى جانبها عندما رايت حشدا من الناس يحاول الدخول اليها ، ولكن ناظرا ضخما كان يمنع الجميع من ذلك بانتصابه فى مدخلها واعتراضه بهيكله الجسيم طريقهم .

كانت الباحة تبدو للعيان جيدا من خلال البوابة ، يزدحم فيها اتباع الميرشاب ووالكوشبيك ويتخاطف بينهم مستخدمو القاضى وموظفو رئيس بلدية بخارى ، بينما لاح كورى اشكامبه بينهم وقد

---

* حرفيا تعنى «ثلاثة اتجاهات» اى تقاطع ثلاث طرق . **الناشر** .

تهدلت عمامته الكبيرة على قذاله ، وراح يهتز من جانب الى آخر كالنائح ، ناتفا لحيته ، ممزقا وجهه باظافره ، وهو يصرخ :

– لقد ضعت ! مصيبة سقطت على راسى ! هلكت !

كان دمه يسيل من خديه ، وحنجرته تضيق ببكائه ، وراح يعوى مثل كلب عصى فى سياج بستان غريب بينما ينهال البستانى عليه بالضرب .

ظهر ان اللصوص الليلة الماضية قد فتحوا ثغرة فى سقف الحجرة التى يستاجرها كورى اشكامبه فى هذا الخانة ، فكسروا صندوق النقود ونهبوا ما فيه .

اكتشف اتباع الميرشاب آثار ثلاثة اشخاص كانت تبدا من مستودع «القفقاس» اسفلا مع السلم ، ثم تمضى فى الرواق المسقوف المؤدى الى زاوية تقع تحتها هذه الخانة الصغيرة ، مباشرة حيث توجد حجرة كورى اشكامبه . وكانت الآثار تعود فترجع الى نفس المستودع الى سلم فى الطابق الثانى يقود الى باب مغلق دائما ، مفتاحه فى حوزة حارس المستودع .

استنتج اتباع الميرشاب من هذه الآثار بان حارس المستودع يعرف بالتاكيد شيئا ما عن هذه العملية ، بل قدروا انه قد يكون هو نفسه من تراس تلك العصابة التى قامت بالسطو . وقد ايد هذا التقدير اعتراف كورى اشكامبه نفسه الذى قال :

– لا احد يعرف اننى اخفى نقودى فى هذا الصندوق بهذه الحجرة غير حارس مستودع «القفقاس» ! وامس عندما وضعت فيه هذا المبلغ ، وهو يعدل حياتى ولعله اغلى منها ، كان حارس المستودع هذا بالذات معى ، وكنا قد جلبنا ذلك المبلغ سوية .

حدد كورى اشكامبه اللص استنادا على هذه القرائن ، وبالعويل والبكاء سرد على اسماع الكوشبيك ورئيس بلدية بخارى ما حدث فاستصدر منهما امرا بالقاء القبض على الحارس وهكذا اسرع بصحبة مساعد يهما وموظف آخر الى المستودع للامساك به قبل ان يفلت .

الا ان حارس المستودع استقبل ممثلى السلطة دون اى اضطراب ولم يبدو منه ما يثير الشكوك ، بل قال مبتسما بسخرية :

– اننى مستعد للذهاب الى الحكام لاثبت لهم ان هذا المرابى شارب الدماء يفترى علىّ ويكذب اشد الكذب . ولكنى لا استطيع مغادرة المستودع وترك بضائعه من غير ان يسمح لى المدير . ان شركة «القفقاس وميركورى» وضعت هذا المستودع بعهدتى وانا مسؤول عنه .

اصطحب الحارس بعد هذا الجميع الى المدير ، فقال هذا لاتباع الميرشاب :

– اولا ، اننى واثق من ان حارسى انسان نزيه ! فى عهدته مستودع كامل مملوء بالبضائع ، وهو يخدمنا منذ عدة سنوات لم نفتقد خلالها شيئا . وثانيا ، فان حارسى من رعايا الحكومة القيصرية الروسية ويحمل جواز سفر قيصرى ولا يحق جرجرته الى محاكم بخارى . تفضلوا الى السيد وزير الوزراء او الى قاضى القضاة لتستوضحوا تفاصيل هذا الامر !

كان حارس مستودع «القفقاس» من سكان بخارى الاصليين ، الا انه اتضح فى ذلك اليوم انه قد تحول الى التبعية الروسية كشان بعض قاطنى بخارى . ولما كان لا يحق لحكومة بخارى ان تستدعى احدا من رعايا روسيا الى محاكمها وتقاضيه بموجب الشريعة الاسلامية فقد اُسقط من يدى كورى اشكامبه ولم يستطع ان يفعل اى شىء .

ظل كورى اشكامبه فترة طويلة بعد ما حدث يطوف فى الشوارع كالمأخوذ . يقص لكل من يقابله عما اصابه من مصاب ، لاعنا الحارس ، ومدير الشركة ، وقاضى القضاة ، ووزير الوزراء ، والناس الذين يعملون فى امرتهم وفى النهاية يصب لعناته على نفسه وعلى اجداده لوثوقه بالحارس واتمانه على سره .

ومنذ ذلك الحين توصل كورى اشكامبه الى اعتقاد راسخ وهو ان كل الناس يسعون الى الاستيلاء على املاك الغير وانه «لم يبق انسان على وجه البسيطة لا يحاول امتلاك خيرات الغير ولا يحسد ثراء الآخرين» . . .

* * *

لم يكد الجرح الذى سببه حارس مستودع «القفقاس» لكورى اشكامبه يندمل حتى جاءته ضربة ثانية اكثر قسوة ، اصابت منه

موضع القلب ! وجه له هذه الضربة ميرزا القائم بالاعمال المالية لاحد البايات . وكانت الضربة شديدة الوجع بخاصة وقد جاءته عن طريق التعامل بالكمبيالات ، انجع وافضل طريقة على اعتقاد كورى اشكامبه ! فقد كانت حتى ذلك الحين تؤدى له اغراضه كما يشاء ، ويسلخ جلد مَدينيه الاميين كما يرغب .

كان لاحد اصحاب الملايين فى بخارى مدير اعمال اسمه ميرزا عبد الله ، مطلق اليد تماما فى جميع شؤونه المالية . طلب هذا فى احد الايام من كورى اشكامبه ، وكان موسم بيع وشراء فراء استراخان على اشده ، ان يقرضه مبلغ مائة الف تينغ بخارى «خمسة عشرة الف روبل روسى» وذلك باسم سيده المليونير ، وقد وعد باسترجاع الكمبيالة منه بعد شهرين على ان يدفع له كل شهر فائدة قدرها الفان تينغ فى الشهر .

تحمس كورى اشكامبه لهذه العملية فذهب من توه الى البنك وقد بلغ به الانفعال ذروته ليسحب له هذا المبلغ . وراح يركض فى الشارع دون ان يرى من يقابلهم من الناس ومن غير ان يسلم على احد ، بل من غير ان يلحظ ان معارفه من التجار كانوا يفطرون ذلك الوقت – وهو الذى لم يكن يفوت الفطور معهم ابدا ! – كانت عيناه قد اظلمت من الانفعال فلم يكن ينتبه لاى شىء او احد . كان يطير بين المارة دافعا اياهم بكتفيه وكوعيه ، ويتعثر بهم دون ان يسمع لعناتهم وسبابهم عليه . وما هو شانه بهذه اللعنات والسباب ، كان جُلّ همه ان يصل البنك باسرع وقت ، ليستلم النقود فيعقد هذه الصفقة المربحة وينتهى منها .

فالربح الذى سيحصل عليه خلال هذين الشهرين يساوى ربح عام كامل من البنك !

وبعد ان استلم النقود عاد بنفس السرعة الى ميرزا عبد الله ، وضعها امامه على الطاولة وتاتا اخيرا يعصف به القلق :

– ه ، ه ، هذا ه ، ه ، هووو . . المبلغ . هد ، يد ، يا !!! عطنى الكمبيا !!!الة ! !

عد ميرزا عبد الله النقود وقال :

– النقود لا تكفى . هنا ست وتسعون الف تينغ لا غير !

– وماذا فى ذلك ! ست وتسعون الف تينغ بالاضافة الى

اربعة آلاف فائدة شهرين يكون المجموع مائة الف . هيا اعطنى كمبيالة بمبلغ مائة الف تينغ ولمدة شهرين وكفى !

فمط ميرزا عبد الله كلماته :– كلا ! العب هذه الالاعيب مع الفلاحين الاميين ، اما انا فلن تستطيع ان تخدعنى !

فسأل كورى وهو يتظاهر بالسذاجة :– واين الخداع فى هذا ؟

فقال ميرزا عبد الله وهو يفتح صندوقه ويخرج منه كمبيالة بمبلغ اربع ومائة الف تينغ :– لقد عرضت عليك فائدة الفى تينغ فى الشهر لا على مبلغ ست وتسعين الف تينغ بل على مائة الف . وها انا هيأت لك كمبيالة بهذا الشرط اما انت فتريد منى ان اعطيك الفى تينغ فى الشهر على ست وتسعين الف تينغ ! هذه اللعبة لا تنجح معى . فاذا اردت ان نعقد هذه الصفقة اجلب لى اربعة آلاف تينغ اخرى وخذ الكمبيالة . اما الآن فخذ نقودك ولا تلهينى عن اعمالى !

ما ان سمع كورى اشكامبه بهذا حتى هرع الى البنك مسرعا وعاد بالاربعة آلاف تينغ قائلا :

– خذ هذا المبلغ ايضا وهيا اعطنى الكمبيالة !

– اى مبلغ هذا ؟ واية كمبيالة ؟ اننى لا افهمك !

فقال كورى اشكامبه :– لا تمزح ، هذا ليس وقت مزاح ! خذ النقود واعطنى الكمبيالة ! لقد جريت حتى كاد قلبى ينفطر ! بل اوصى لى على شاى لاشرب لى قدحا والتقط انفاسى .

– عندى مشاغل كثيرة ولا وقت لى لتوصية على شاى والجلوس لشربه ! تعال لى عندما تقل مشاغلى فاقدم لك الشاى بالسكر . اما الآن فاخرج كيلا اخلط فى حساباتى .

– طيب ، اعطنى الكمبيالة لاخرج !

– اية كمبيالة ؟ ! خذ آلافك الاربعة فاننى لا احتاجها ، لا اريد ان اخذ منك نقودا ولا ان اعطيك كمبيالة !

– اذن ارجع لى الست وتسعين الف التى اعطيتها لك للتو !

– لا تتحامق يا عم كورى ! لا وقت لدى فهيا اخرج لاقوم باعمالى . . .

– اننى افهم بانك تمزح ! ولكن قلبى رغم ذلك يكاد ينفطر بسبب هذا المزاح ، فهلا اعطيتنى الكمبيالة او النقود ؟

فصرخ ميرزا عبد الله وهو ينهض من مكانه دافعا كورى اشكامبه الى الباب :

– هل جننت يا كورى ! اخرج من هنا باسرع وقت فمكان المجانين فى بيت خوجا اوبانى * لا فى مكاتب العمل !

عوى كورى اشكامبه وهو يتخرط فى البكاء كطفل سُلبت منه لعبته المفضلة :

– لقد ضعت !

ونادى ميرزا على خدمه وامرهم بطرد هذا «المجنون» فراح هؤلاء يدفعونه نحو الباب الا انه حرن فى مكانه فاخذوا يجرجرون به حتى طرحوه ارضا :

فصرخ كورى :– كيف يمكننى الذهاب وروحى تركتها هنا وهل يستطيع الجسد الابتعاد عن روحه !

اكد هذا الصراخ للخدم جنون هذا الرجل ، فحملوه من يديه ورجليه كما يُحمل الاموات وابعدوه لا عن المكتب فحسب بل القوه ايضا خارج البوابة واوصوا حارسها ان لا يدعوه يدخل مرة ثانية . الا انه لم يبرح البوابة ككلب طرده سيده ، محاولا ان يرجع مرة اخرى الى المكتب بكل ما فى وسعه ، دون ان تنفع دموعه وتأوهاته مع الحارس ، الذى طوقه كالاسد ورمى به بعيدا كقطة ذليلة .

ولما تاكد كورى اشكامبه اخيرا بانه لن يستطيع الوصول الى المكتب ثانية انتزع عمامته من رأسه وطرحها على رقبته كما يفعل الناس الذين يصلون اقصى درجات اليأس عادة ، وصرخ :

– يا لهذا الظلم ! آخ ، يا لكبر مصابى ! لم يعد مكان للعقيدة الاسلامية فى نفوس الناس ! لم يعد لها مكان ...

وجرى باكيا الى السراى الذى يضم دواوين الحكومة وقصر الامير . لم يعد احد ممن رأوه لا يعتقد بانه قد فقد عقله حقا . ولم يكن الامير خلال ذلك الوقت فى قصره ، كان فى روسيا .

* الامام خوجا اوبانى كان اهالى بخارى يأتون بمجانينهم الى بيته يأمل اشفائهم . **ملاحظة المؤلف** .

فكان قاضى القضاة والكوشبيك ينوبان عنه فى تدبير شؤون الامارة . فهرع كورى اشكامبه اليهما مباشرة ، ارتمى امامهما على الارض وراح يقص على اسماعهما باكيا ما حدث له مع ميرزا عبد الله عديم الذمة راجيا منهما ان يتدخلا لارجاع نقوده اليه .

– ليس عندى اولاد ولا من يرثنى غير زوجتين ، اذا بقيتا على قيد الحياة فلن ينالا غير ربع ما املك اما الباقى فسيكون من نصيب الخزينة . ولكن اذا رأيتما بان ذلك ضرورى فاننى حتى ساطلق زوجتىّ ليبق كل ما املك من نصيب الخزينة حسب ! فكروا بهذا الامر يا اصحاب المعالى ، يا ممثلا الشريعة ويا نائبا سيادة عظمة الامير ، اعتبروا نقودى نقود عظمته ، وارجعوا لى اياها من ذلك الكافر الزنديق . اعيد وهالى وسالهج لكم بالشكران حتى مماتى !

الا ان الحاكمين لم يفعلا غير ان ضحكا على كورى اشكامبه . فالسيد الذى يعمل ميرزا عبد الله فى امرته يشغل منصبا اعلى من منصب كورى اشكامبه . وقد افهماه بأن :

– شكواك شكوى غير عادية . نحن لا نملك الحق فى بحثها . عندكم ايها الاغنياء من ينوب عنكم ومن يقف فوق رؤوسكم ، وكل معاملاتكم الآن ترتب بالكمبيالات . فلماذا نسبب الازعاج لشخص محترم وشكواك لا يدعمها راى من كبيركم ولا تسندها وثيقة تحملها بين يديك !

هاج كورى اشكامبه صارخا بجنون رافضا الخروج من السراى ، وفى النهاية امر قائد حرس القصر اتباعه بطرده الى الشارع .

وفى طريق عودته كان كورى اشكامبه يقص لمن يعرفه ولا يعرفه عما اصابه من بلوى سائلا منهم النصح ليدلوه على سواء السبيل .

– لا بأس يا عم كورى ، لا يستحق الامر ان تقتل نفسك من اجله ! وتلك النقود جاءتك فى كل الاحوال بطريق وسخ ، والماء الوسخ كما يقال نهايته المجارى ! راحت نقودك حيث كان يجب ان تروح !

تهدئة كهذه كانت تزيد نار كورى اشتعالا فكان يرمى محدثه بالسباب عاويا صارخا كان ملحا يهال على حروفه . ثم كان يبحث عن محدث آخر ، الا انه لم يكن يلق عطفا من احد ، بل كان لا يجد غير الضحك والسخرية منه عند الناس .

فى تلك الايام التقى كورى اشكامبه بى ايضا ، اعترض طريقى رواح يحدثنى عن مصيبته طالبا منى النصح فيما يجب عليه ان يفعل . كنت اعرف بالطبع ما اصابه الا اننى تظاهرت وكأننى اسمع بذلك لاول مرة ، وقد ابديت له اسفى وتعاطفى معه ، ثم قلت :

– ما الذى يمكن ان ننصحك به نحن الناس الصغار فى مثل هذه «القضية الصعبة» ومثل هذه «الساعة الحرجة» اذهب الى الحكام واطلب النصح منهم .

– آخ ! لتحل اللعنة على حكام المدينة ، لتحترق بيوتهم ، ليهلك اولادهم ، لم يرغبوا حتى بالاستماع الى !

وانخرط فى سباب طويل على آباء المدينة والذين عمّروها .

بعد هذه الحادثة استسلم كورى اشكامبه نهائيا ، اصابه يأس مقيم ، بل تغير حتى مظهره الخارجى فقد راح يضعف ويضعف مع الايام حتى اصبح جلده فضفاضا عليه ، اشبه بكيس فارغ !

١٧

لم يثب كورى اشكامبه الى صوابه بعد ما حدث له مع ميرزا عبد الله الا بعد مرور شهرين – ثلاثة . اصبح الآن ينتهى الى القول اذ يسرد على احدهم مصابه ، دون ان ينسى بالطبع انزال شتائمه على رأس ميرزا عبد الله وحكم المدينة :

– ما حدث قد حدث ! كل شىء عابر فى هذه الدنيا الفانية . والمرء يعتاد على كل شىء !

كان يبدو فى الظاهر وكأنه قد تخلص من يأسه المقيم الا انه ظل بعيدا عن حياته الممتلئة السابقة ، والى الابد كما يبدو . فجسده اخذ يفرغ من محتواه شيئا فشيئا ، وملأت التجاعيد العميقة جبهته وخديه ، فيما حال لون وجهه واصبح ابيض رماديا كاحشاء حيوان ذبيح .

بدأت الحرب العالمية الاولى فازدهرت اعمال كورى اشكامبه وامثاله من المرابين والتجار . وظهر مستغلون يتعيشون على المتاجرة بالبضائع وبيعها باسعار عالية ترتفع يوما بعد يوم فكانوا يحصلون على اموال طائلة فى فترات وجيزة . وكان هؤلاء المستغلون بحاجة دائمة الى راسمال اكبر فكانوا غالبا ما يطرقون ابواب المرابين ليأخذوا منهم القروض بفوائد خيالية ليشتروا بها البضائع العابرة والنادرة . واتيح لكورى اشكامبه خلال تلك الفترة ان يعقد العلاقات مع اولئك المضاربين الناشئين ، فأخذت النقود تنهال على جيوبه ، اما بطنه فقد كادت تنفجر من كثرة ما عباها بالأكلات الدسمة التى كان يصيبها عند مَدينيه الاغنياء .

وفى عام الحرب الثانى انتفخ جلده من جديد حول جسده المشبع بالدسم ، فتدلى غبيبه ثانية تحت ذقنه ، وارتفع كرشه اعلى من ذى قبل . فيما تجاوز راسماله المليونين ، فقد كان دخله ، الذى كان يأتيه من اقراض نقوده بفوائد عالية ، ينمو ويتكاثر كالذباب فى المزابل ، ناسلا له الكثير من «الاحفاد» .

ورغم ارتياح كورى اشكامبه لدخله فلم يكن يستطيع نسيان ميرزا عبد الله فكان يذكره قبل البدء بتناول الطعام – وكان هذا يحدث الآن عدة مرات فى اليوم – فينزل عليه اشد اللعنات واكبر والشتائم .

فى عام الحرب الثالث ، عام ١٩١٦ ، انهك الجوع الناس البسطاء فكانوا يحلمون بالحصول على كسرة خبز يابسة تكون لهم «القوت ، اذن لن تموت» حسب تعبير المسلمين . اما المضاربون فى السوق السوداء فقد كانوا يعيشون بشكل لا يعرفون معه كيف يصرفون نقودهم . واما التجار الذين كانوا يتعاملون مع موسكو فلم يكن حتى للذهب والاحجار الكريمة قيمة عندهم . لم يكونوا اذن بحاجة للنقود وهكذا فان اعمال كورى اشكامبه وغيره من المرابين قد ساءت فى العام الثالث بشكل ملحوظ ، فاضطر الى ايداع جميع امواله فى البنك والاكتفاء بالنسبة القليلة التى كان يمنحها البنك عادة لودائعه .

غير ان الفائدة التى كان يحصل عليها من ايداع مبلغ كبير كمليونيه من الروبلات ، كانت جد عالية الا انها لم تكن تشبع

تعطشه الشديد للمال ، فقد كان جشعه يزداد طرديا مع ازدياد راسماله .

كان يرغب فى الحصول على فائدة الخمسة والعشرين ، الثلاثين ، عن المائة التى كان يحصل عليها فى العامين الماضيين . الا ان تحقيق هذا الحلم لم يكن فى مناله ، ولذلك فقد كان غالبا ما يتحسر على تلك الايام قائلا : «ايه ، راحت تلك الايام مع مجرى الماء ! تحطمت تلك الكاس واندلق ماؤها !»

بل ان الاحوال ساءت عنده حتى بالنسبة لأكلته . اذ كف الاغنياء عن دعوته الى موائدهم بعد ما انتفت حاجتهم اليه . واما البنك – حيث كان يودع امواله – فقد كان لا يقدم اليه شيئا غير شاى حلو ، ومرة واحدة فى اليوم ، الساعة العاشرة صباحا . ولهذا فقد اكتفى على مضض بالرز واللحمة الذى كان يقدمه له مستاجرو حجرتيه ، وما كان يصيبه من ولائم الاعراس التى يفرض نفسه عليها ، وما يحصل عليه من فطائر توزع فى المآتم والمزارات . ومنذ عام ١٩١٦ اخذ كورى اشكامبه يضعف مرة اخرى .

التقيت به صدفة مرة فسالته عما جعله يضعف هكذا فراح يقص على :

– سابقا كنت آكل عدة مرات فى اليوم لحم الجياد والرز باللحمة واكلات فارسية ومعجنات ودجاج محمص ولحم الضان المشوى والباذنجان ، اما الآن فقد ذهبت البركة من تلك البيوت التى كانت تدعونى الى مادبها رغم ان اصحابها اصبحوا اغنى من قبل ، وهكذا فانى لم احظ حتى بتبليل الريق فيها ومنذ زمن بعيد . وكما يقال «الخراف لا تسمن بغير علف !» فكيف يمكننى ان لا اضعف عندما لا اجد ما يناسب شهيتى من طعام !

ثم صمت برهة واستانف ممتنا : – ليحفظ الله البنك ، ما ان ادخل عليهم فى الصباح حتى يضعوا امامى الشاى واناء السكر ، فاضع فيه ما يمكن ان يوضع من السكر واشربه حلوا كالعسل ، والمدير لا يعترض مطلقا حتى عندما اشرب ثلاثة اقداح ، بل انه يفرح لذلك !

قلت للعم كورى اشكامبه :

– ولكنك جمعت حتى الآن ثروة كبيرة ، ولقد كبرت . ولن

تاخذ هذه الثروة معك الى القبر . فلماذا لا تطهو لنفسك كل مساء ما تشتهيه من الطعام وتاكل كما تريد وترغب ؟

فرد علىّ بابيات من الشعر نظمها احد شعراء ذلك الوقت عن المرابين :

لا يمكن ان يفهم المرابى ابدا
كيف يمكن اعطاء فتات الخبز لفقير
ومستحيل برأيه ايضا
كسر الفولاذ بالزجاج !

* * *

حتى نهاية عام ١٩١٦ كانت هناك اسباب اخرى لاستنزاف قوى كورى اشكامبه . منها محتالو بخارى «الاغبياء» كما كان المرابى يصفهم .

فاذا كانوا قد علموا مثلا بان كورى اشكامبه قد اودع نقوده فى «البنك الاتحادى» فان احدهم يقترب منه ويقول له هامسا :

– هل سمعت يا عم كورى بما يحدث للبنك الاتحادى ؟ اعماله تسير من سيئ الى اسوا وقريبا سيعلن افلاسه فقد وقع راسماله فى ايدى جنود الاعداء ، كن حذرا !

فكان كورى اشكامبه بعد هذا يركض الى البنك الاتحادى مباشرة ويسحب منه نقوده ليودعها فى البنك الاسيوى «الروسى – الصينى» . وكان من الطبيعى ان لا يبقى هذا سرا على محتالى بخارى فكان آخر غير الاول يقترب من كورى اشكامبه ويهمس له بما سيحدث للبنك «الروسى – الصينى» بنفس الكلمات التى قالها صاحبه لاشكامبه الليلة البارحة عن «البنك الاتحادى» . فكان كورى اشكامبه يسرع بتحويل نقوده الى بنك ثالث . ثم ينصحه آخرون : ضع نقودك فى البنك الحكومى فهو راسخ رسوخ الامبراطورية الروسية . ولكن الفائدة التى يمنحها هذا البنك اقل مما تمنحه بقية البنوك الخاصة الاخرى ، ولهذا لم يكن باستطاعة كورى اشكامبه تحمل هذه الخسارة .

غير ان البنوك الخاصة لم تعد اخيرا تحتمل «عمليات» كورى

اشكامبه هذه فاخذت ترفض قبول راسماله وهكذا اضطر لايداع جميع نقوده فى البنك الحكومى .

ولكن ما ان مر وقت قصير حتى وصلت اسماع كورى اشكامبه اشاعات مفادها ان البنك الحكومى نفسه على وشك الانهيار . وكان محبو المزاح والمشاكسون ينقلون اخبار اخفاقات الجيش القيصرى فى الجبهة اليه كلما نشرت ذلك الجرائد ، مبالغين بالاخطار التى تتهدد البنك ، ناصحين اياه بالحذر اذ من الممكن جدا ان يسقط ذلك البنك وبذلك تضيع تحصيلة العمر ، التى جمعت «بسفح ماء العين وعرق الجبين» .

ولكن كيف كان بامكان المرابى الحفاظ على نقوده ؟ واذا كان الانهيار يهدد البنوك ذاتها فماذا يستطيع هو ان يفعل لانقاذها من هذا المصير ؟ فلشدة خوفه من اللصوص والمحتالين لم يكن كورى اشكامبه يستطيع الاحتفاظ بها فى بيته او فى احدى الحجر التى يمكن استجارها فى خانة . فاين يمكن اخفاءهـــا فى غير خزانات البنك ؟

ففى النهاية اخذ كورى اشكامبه يفهم بانهم يضحكون عليه لا غير . فراح يستفسر عما يكتبون فى الجرائد رغم انه من قبـل كان حتى يهرب من المكان الذى تقرأ فيه . لم يعد يثق بما يسمعه من انباء بل راح يطلب ان يُقرأ عليه ما يُكتب فى الجرائد بصوت مسموع ليسمع ذلك باذنيه مباشرة لا عن طريق النقل والتاويل .

وشيئا فشيئا كانت تظهر فى الجرائد انباء تشير فعلا الى اقتراب واحتمال وقوع الانهيار . فكان المشاكسون يدفعون المرابى الى حافة الخوف دون مزاح هذه المرة . فراح يتقاسم مخاوفه مع مدير البنك الحكومى متسائلا :

– اذا منى القيصر بالهزيمة لاسمح الله فما الذى سوف نفعله انا وانت ؟

فهدأ هذا المرابى : – سلطة القيصر اصلب من الحجر واشد ثباتا من الضحور الغرانيتية . فوزراء عظمته يوجهون دفة الامور وليس هناك اذكى منهم فى العالم .

ولهذا ، ولله الحمد ، ليس هناك اى خوف مما قد يحدث . اما الاعداء الذين يكتبون فى الجرائد التركيـــة والتتاريـــة ضد

الامبراطور فانهم لا يفعلون شيئا غير نشر اشاعات كاذبة لا صحة لها .

صمت هنيهة ثم اضاف : – بل انه لا يمكن تصديق كـل الجرائد الروسية ، فحتى بين الصحفيين الروس هناك اعداء لسمو الامبراطور . ولذلك لا تصدق بما ينشر فى كل الجرائد ، تعال الى مباشرة فانني استطيع ان اقرأ لك كل اليوم اكثر الجرائد الروسية اتزانا وآنذاك تعرف الحقائق كما هى .

بعد هذا الحديث اخذ كورى اشكامبه يظهر فى البنك حتى قبل تقديم شاى الصباح . كان يذهب الى المدير مباشرة فيقرأ له هذا ما يقع بين يديه من الجرائد بصوت مسموع . ولكنـه بدل ان يقرأ فعلا ما كتب فيها كان يختلق بنفسه بعض الاخبار التى تمنح كورى اشكامبه الطمأنينة ، فكان هذا يقول عندما يسمـــع بهذه «الاخبار» :

– الله يعطينا . لن ينال اى سوء حكومة سموه الامبراطور ، حامى حمى هذا البنك واعتماده ، وبالتالى ذخرى ونصيرى . ليفقد اعداء سموه البصر ولتُقطع السنتهم ، مختلقى الاكاذيب .

ثم كان يخرج من مكتب المدير ويذهب الى مقصف البنـك فيضع اكثر ما يمكن من السكر فى قدح الشاى ، ويشربه حارا ، متمهلا ، متلذذا به . ثم يخرج الى الشارع ، واذ يلحظ بعضهـم يقرأ فى جريدة قرب احد الدكاكين يقترب منه ويستفسر منه عما كتب فيها ، ثم يدحض بعد ذلك بثقة ما يقال له ، ساردا بكثير من المبالغة ما كان قد سمعـــه من مدير البنك . الا انهم ، لكى يخيفوه ، كانوا يعترضون عليه فى كل مرة قائلين :

– ليس هناك ما يدهش اذا ما حدثت الثورة قريبا . سيكف الناس آنذاك عن الانصياع لاوامر القيصر ووزرائه ، ويرفع الفقراء رؤوسهم فيمضون الى الاغنياء لانتزاع اموالهم ، آنذاك ستكون فى وضع لا تُحسد عليه !

ورغم ان كورى اشكامبه كان يخاف اشد الخوف من كلمة «ثورة» التى تعنى فى مخيلته شيئا واحدا وهو هدم بيوت الاغنياء على رؤوسهم فقد كان يحاول ان يظل هادئا :

– وماذا فى ذلك ؟ لتكن الثورة ! وما شأنى بها ! وما الذى اخافه منها وبيتى لا شىء فيه يستحق السلب ؟

* * *

وحدثت ثورة فبراير عام ١٩١٧ ، واطيح بعرش القيصر الروسى . حدث ما كان كورى اشكامبه يخافه ويخشاه . ولم تنفع دعواته بالخير «الامبراطور العظيم» اية فائدة . اما ان القيصر قد اطيح به فذلك ما لم يستطع مدير البنك انكاره ، ورغم ذلك فقد كان يطمئن كورى اشكامبه :

– امر تافه ان الامبراطور لم يعد فى مركز المسؤولية ، لان التجار الكبار والاقطاعيين ، وكل من هو قريب من بنوكنا ، ما يزالون فى راس الحكم . فهل يقبل هؤلاء ان تضيع اموال جماعتنا من امثالك ؟ ومن الممكن ان ينصبوا على العرش بدل سمو الامبراطور عمه الامير العظيم .

الا ان كورى اشكامبه لم يعد يجد فى هذه الاحاديث ما يهدئ من روعه ، فقد تناهى الى سمعه ما حدث من فظائع بالنسبة اليه بعد خلع القيصر ، ووصلته اشاعات عن تمرد الفلاحين فى روسيا وتهديدهم الاقطاعيين بانتزاع الارض منهم وحرق بيوتهم . فكان المرابى يخشى ان تعم الفوضى بقية المدن ايضا ، فيستولى الجياع على البنوك القيصرية فى موسكو وبطرسبورغ ، وينهار البنك الحكومى فى بخارى فتضيع نقوده هباء ، وهى عنده اغلى من حياته .

فكانت هذه الافكار السوداء تدفعه الى البكاء والعويل فكان ينعى نفسه :

– اوخ ! نزلت الطامة الكبرى على راسى ! حدث ما كنت اخشاه ! جاءت نهايتى ! جاء هلاكى !

ومهما كان يفكر ويقدح زناد الفكر لم يكن يستطيع ايجاد مخرج له فينقذ نفسه من «قدر السماء» هذا وهكذا لم يبق له الا التالم والتاسف والضعف وهو الذى اصبح «يطعم نفسه من كرشه» .

وما الذى كان بامكانه ان يفعله ! فهو لا يستطيع ان يسحب نقوده من البنك واخفاءها فى البيت او فى حجرة فى مكان ما وهو

الذى يخاف اللصوص اشد الخوف ، كما انه لا يستطيع ان يعهد بها الى الامير فقد ياخذها ولا يعيدها اليه ! ثم انه لا يستطيع اعطاءها دينا لاحد البايات فليس هناك من يريد ذلك . فما العمل اذن ؟ ! قرر كورى اشكامبه ابقاءها فى البنك الحكومى مفكرا : «ليرتاح الراس قبل ان تنزل عليه الفاس» .

اصبح كورى اشكامبه هذه الايام لا يظهر فى الشوارع الا نادرا ، واذا خرج اليها فقد كان يسلك الازقة والدروب الضيقة خشية الالتقاء باحد يحمل له انباءا سيئة . كان يذهب الى البنك لشرب الشاى ، ولا يزور الا ساكنى حجرتيه لتناول الطعام معهما ، وكذلك المآتم ايضا للحصول على قطعة قماش . اما الاسواق ودكاكين التجار فقد كان يبتعد عنها متجنبا المرور قربها ...

١٨

خريف عام ١٩١٧ سمع كورى اشكامبه بان احدهم واسمه : البلشفى ، قد اصبح على راس السلطة . وهذا البلشفى قد اضحى الآن يحكم الدولة الروسية . لم يكن كورى اشكامبه قد سمع بمثل هذا الاسم من قبل مطلقا . كان مدير البنك قد اخبره بان اميرا ما سيكون فى مكان القيصر . ولكن اسم ذلك الامير الذى لا يحضره الآن لا يشبه هذا «البلشفى» الغريب . فتساءل كورى اشكامبه فى دخيلة نفسه : «ايمكن ان يكون هذا اسما ثانيا لذلك الامير ؟ يجب فى كل الاحوال استيضاح هذا الامر ومعرفة ما هو هذا البلشفى» .

ولكن يستوضح كورى اشكامبه ما غمض عليه توجه مباشرة الى مدير البنك . وعندما وصل بناية البنك كان مستخدموه فى تلك اللحظة قد انتهوا من تحميل عربة بصناديق واكياس ملأى بالنقود ، وانطلقوا بها الى كاغان ، فلم يبق من مستخدمى البنك فى بخارى غير شخص واحد مترجم خرج من بناية البنك وتوجه الى بيته .

كان هذا المترجم فى عداد محبى المزاح الذين كانو يخيفون كورى اشكامبه بشتى التقولات ولهذا قرر المرابى اول الامر عدم التوجه اليه كى لا يسمع منه اخبارا سيئة تربكه . الا انه تفكر

قليلا فتذكر المثل القائل «ان لم تسمع السيئ لا ترى الطيب» . فقال لنفسه : «ليكن ما يكون ! لاسأله فلعله يسمعنى اخبارا طيبة !» فتقدم منه وسأله :

– يقولون ان السلطة فى روسيا الآن بيد البلشفى ، أهذا صحيح ؟

اجاب المترجم : – صحيح .

بل ان جوابه افرح كورى اشكامبه .

– أليس هو نفس ذلك «الامير الاعظم» الذى قال المدير عنه بانه سيصبح مالك السلطة ؟

– لعلك تقصد «الامير العظيم» الذى كان يبشرنا به نحن ايضا ؟

– نعم ، نعم ، الامير العظيم ، الامير العظيم ، لا انسانى الله هذا الاسم المقدس ، الامير العظيم . . .

وراح يكرر هذا الاسم عدة مرات .

فمط المترجم لاه : – لا ! البلشفى شىء والامير العظيم شىء آخر يختلف تماما !

فجفل كورى اشكامبه وقال مذعورا :

– دع المزاح جانبا وقل لى الحقيقة : هل هذا البلشفى اسوأ من الثورة ام احسن منها ؟ تلك الثورة التى اطاحت منذ عدة اشهر بقيصر رائع كنيقولاى ! وهل يعطف هذا البلشفى على اولئك الذين لم ياكلوا ولم يلبسوا من اجل ان يجمعوا لهم خمسة تينغات او ستة ؟

فكر المترجم برهة ثم اجاب :

– الثورة التى كنت تسمع عنها حتى الآن وترتجف امامها كالحمار امام الاسد كانت اول خطوة للبلشفى وجماعته البلشفيين ، هؤلاء لا يسمحون للمرابين امثالك امتصاص دم الناس لتحويله الى ملايين تضعها فى البنك . لا يسمحون بالتبطل ومسح البطن باليدين فى الوقت الذى تستلم فيه مئات الآلاف وغيرك يموت من الجوع . ولهذا فانا لا اعتقد انهم سيرافون بك .

عندما سمع كورى اشكامبه بهذا ، شحب وجهه وارتجف

جسده فاستند الى الجدار يلوذ به من الخور . ثم قال مطمئنا نفسه رغم ذلك :

– حسنا ، ولكن بنككم الذى احفظ فيه نقودى ما يزال موجودا ، وكما يقال «لا تخف على البذرة ما دام الجذر يصل الماء» فلِمَ اياس ، ولم ارتجف من الخوف ، ولماذا الموت مائة مرة فى اليوم ، والتعذب كل ساعة اشد العذاب ؟

فاعترض المترجم عليه بنبرة واثقة كاد قلب المرابى ينفطر معها :

– هذه هى المسألة ، فالجذر لم يعد يصل الماء . وفى بيتروغراد وفى موسكو وفى مدن كبيرة اخرى استولى البلاشفة على البنوك والمصانع والمعامل والبواخر وسكك الحديد بعرباتها وقاطراتها ! وعمموا مرسوما ينص على ان «جميع اراضى الاقطاعيين الكبار بكل ما عليها من وسائل انتاج يتملكها الفلاحون الفقراء والشغيلة» . فكيف يمكنكم تعليق الآمال على البذور فى مثل هذا الوضع ؟ الجذور الآن ليست فى الماء بل فى النار ! احترقت وتحولت الى رماد . . «البيت يهدم من اساسه !» وانت فرحان : السقف سليم ! . .

كان كورى اشكامبه يعتقد بان المترجم يضفر له احدى احابيله المعتادة وانه يريد بمزاحه الاخرق هذا دفعه الى القبر . فكيف يمكن التصديق ان يقول شخص ما اسمه بولشفيك : «هذا لى» ، فيصبح كل شىء ملكه فى غمضة عين ! لا يمكن ان يحدث ذلك من غير اعتراض !

بعد ان توصل كورى اشكامبه الى هذا ، صرخ بالمترجم :

– اغرب عن وجهى وانقلع من هنا ! يا محتال ، يا ثرثار ، ليت الله يقطع لسانك ! سترى ما سوف افعله بك غدا ! سانقل لمديرك ما قلته الآن فيطردك شر طردة ! ولن اكون آدميا ان لم افعل هذا . . .

ضحك المترجم قائلا له من خلال ضحكه :

– وهل كنت فى يوم ما آدميا ! – ثم مضى عنه .

نزل هذا الضحك على قلب كورى اشكامبه بردا وسلاما ، وشعر بشىء من التخفف ، ولكنه تذكر فى نفس الوقت كلمات المترجم

المخيفة ، ففكر : «ما الذى سيحدث معى ان كان قوله صحيحا ؟» ولفه الرعب فمكث فى مكانه ساكنا دون احساس . وظل هكذا دقائق يستند الى الجدار . ثم فكر «ما الذى افعله هنا ! البنك اغلق ، والمستخدمون رحلوا الى كاغان . واذن لن استطيع ان اعرف الحقيقة من احد بعد !» .

مع هذه الافكار جر نفسه كارها الى بيته .

ورغم انه كان يائسا هذا اليوم ، يشعر بالوهن ، ويسير فى الازقة الخالية من الناس على عادته الجديدة فى الايام الاخيرة ، فانه اسرع الخطى خشيـــة ان يلتقى باحد الماكرين الذين قد ينقلون له خبرا يصيبون به منه مقتلا ، كان يخشى الموت قبل اوانه والافتراق عن راسماله . ولكنه لم يكن يخشاه ، بل لكان قد تقبله بفرح لوانهم دفنوا نقوده معه . كان يستفظع الافتراق عن النقود . وفى كل مرة يفكر بمثل هذا الموت «الفظيع» يتذكر بيتا للشاعر بديل * يتحدث فيه عن «العشيقة» . الا ان المرابى كان يتغنى به وهو يفكر بنقوده التى يجدها اجمل من كل الجميلات :

ان جاءنى الردى ما حزنت
لافتراقى عن الحياة
بؤسى ان اذيال ثوبك
تنزلق من يدى هاربة .

كل معنى الحياة بالنسبة لكورى اشكامبه يكمن فى النقود ، فالافتراق عنها عنده اصعب من الافتراق عن الحياة نفسها وعن كل ما يمكن ان تمنحه من طيبات .

* * *

وصل كورى اشكامبه بيته يلفـه قنوط سادر فآوى الى فراشه بوقت مبكر الا ان النوم لم يزر جفنيه ، بل كان يتقلب من

* هو ميرزا عبد القادر بديل (١٦٤٤–١٧٢١) الشاعر الهندو–طاجيكى والفيلسوف . مؤلف عدد كبير من الاعمال الشعرية والنثرية ، اشهرها «ايرفون» وهو مكون من قصص واساطير وحكايات ، وكذلك ملحمته الشهيرة «كومدى ومدان» . افكار واسلوب بديل وجدت لها الكثير من الاتباع حتى ان هناك تيارا ادبيا باسمه «البديلية» ظل ينتشر حتى مطلع القرن العشرين . **الناشر** .

جنب الى جنب ، يفح كافعى هشم راسها ، محاولا ان يجلب لنفسه الهدوء . الا ان كل محاولاته باءت بالفشل ، وظل هكذا لا يغمض له جفن حتى ترك فراشه فى الغبش ، قبل الفجر بكثير . . .

وما ان سمع صوت المؤذن يتعالى قبل شروق الشمس بساعة داعيا الناس الى الصلاة حتى خرج من البيت متوجها الى جامع ماغوك فادى هناك صلاته ، ولكنه لم يبق ، خلافا لعادته ، للاستماع الى «المثنوى» مولانا الروحى ، بل اسرع فى الخروج من الجامع متعجلا الذهاب الى مبنى البنك الحكومى .

جلس كورى اشكامبه عند مدخل البنك على عتبته المرمرية منتظرا قدوم المديد من كاغان ، مترقبا «الاخبار الثابتة والسارة» منه ، متعطشا للحصول على امر بفصل ذلك المترجم اللئيم الماكر ، الذى افصح عن عدائه للامبراطور العظيم بمثـــل ذلك الشكـــل المكشوف . . .

حلت الساعة الثامنة ولسبب ما لم يصل المدير من كاغان . الساعة التاسعة . ولا شاردة او واردة عنه ايضا . بل لم يظهـر حتى مستخدمو البنك . فعنف قلبه يخفق بحيـــث تصور كورى اشكامبه ان صدره شينشق ويقفز قلبه الى الخارج .

العاشرة صباحا . الحادية عشرة . ولا من ياتى من كاغان !

«الا ياتى ولو ذلك المترجم الماكر ، حتى لو سمعت منـه اسوا الاخبار ، ليكذب ما شاء ! ليخدعنى ! فقط ليأتى ، على الاقل سيقول شيئا ما ، لاعرف ما الذى ينتظرنى !» ولكن ، حتى هذا لا ياتى . . .

كان قلب كورى اشكامبه يجمد حينا كما لو انه توقف عن الخفقان تماما ، ويعنف حينا آخر بقوة يسمع معهـــا ضرباتـــه واختلاجاته . .

وصعب عليه التنفس ، وكانت حنجرة تنغلق عليه احيانـا بحيث لا يكاد يستطيع التقاط انفاسه ، وراح لهب حار يتصاعد حوله فلم يعد يستطيع الوقوف على قدميـــه ، الا انـه حاول النهوض وقد فكر ان ذلك افضل له ، ولكن راسه دار ، وعتمت الدنيا امام عينيه ، وتارجحت قامته قليلا حتى كاد يسقط عـلى

الارض . فاستند الى الجدار وراح ينشق انفاسا عميقة ، حتى تحسن حاله قليلا .

وما ان عادت له روحه بعض الشيء حتى اخرج ساعته من عبه وفتح غطاءها فراى عقارب الساعة تشير الى الثانية عشرة . لم يصدق او لم يرد التصديق ان الوقت اصبح متاخرا هكذا . وفكر مهدئا نفسه : «لعل ساعتي تسبق» .

ثم سال احدهم للتاكد :

– كم الوقت عندك ؟

فلم يتوقف هذا بل تباطئ قليلا وهو يخرج ساعته ويجيب :

– الثانية عشرة .

عرف كورى اشكامبه ان ساعته لا تسبق ، بل تقصر قليلا . فهجم عليه اليأس ، الا ان بصيصا من الامل لاح له ، ففكر : «ربما مرض مدير البنك ، او ان ساق حصانه كسرت ، او ان شيئا ما حدث لعربته ، او انه تاخر لا اكثر . . .»

وفكر كورى اشكامبه : «حسنا ، الوقت الآن الثانية عشرة . ولكن لِمَ الوقوف هنا وليس فى ذلك غير الخسارة ، اذ لن احظى بالطعام الذى سيقدم فى المأتم . حماقة ان اخسر هذا وذاك ، ويكفينى اننى فوت على نفسى فرصة تناول الرز باللحمة عند احد مستأجرىّ بانتظارى هنا طيلة الصباح . . .» واذ توصل كورى اشكامبه الى هذا توجه فى الطريق المبلطة المحاذية للبنك باتجاه حوض ديوان بك . الا انه ما كاد يخطو خطوتين حتى توقف مفكرا : «الافضل ان اذهب عبر مجموعة محلات الاقمسة من هناك استطيع ملاحظة القادمين من كاغان ، فلعلى اقابل مدير البنك او احد المستخدمين فاسمع منه ما يهدئنى» .

فانعطف كورى اشكامبه الى اليمين نازلا نحو مجموعة المحلات باتجاه الشرق محاولا ان يتعرف على القادمين من جهة كاغان . وكانت الطريق مزدحمة بالخيول والحمير والعربات بمختلف انواعها ، الا انه لم تلح بينها عربة البنك ذات العجلات الاربع والخيول الثلاث التى كانت الاموال تنقل بها يرافقها المسلحون ، وكذلك عربة مدير البنك المغلقة المطهمة بالجياد الاصيلة . . .

وصل كورى اشكامبه بناية الصيدلية الواقعة مقابل مدخل جامع ديوان بك توقف هناك لخطة ثم مسح الطريق الاتية من كاغان بنظرة متفحصة – لعله فعل ذلك للمرة المائة – فلم يجد احدا ممن يبحث عنهم . . .

خرج الى الطريق المكشوفة ، وكانت هناك ملأى بالطين بعد مطر الايام الفائتة ، ولم يتقدم الى مدخل الجامع آملا ومنتظر ظهور العربة المرجوة . وهكذا فقد واصل سيره والطين يكاد يصل حتى الركب ومع كل خطوة يخطوها ينغرس كالوشه فى الطين فيضطر الى انتزاعه منه انتزاعا فيضعه فى قدمه من جديد ويواصل سيره .

وبعد ان فقد كورى اشكامبه كل امل القى نظرة اخيرة باتجاه السوق وهو ينوى دخول جامع ديوان بك الا انه ويا لدهشته الشديدة راى عربته المرجوة ذات العجلات الاربع محصورة بين عربات دفع متجمعة على مدى الشارع . مسح كورى عينيه بردني صايته ونظر الى هناك مرة اخرى : لم تخذعه عيناه ولم يكن ثمة شك فيما يرى . كانت تلك العربة تقف فعلا قرب السوق ، لا يميزها اى شيء عن العربة التى كان مستخدمو البنك يجلبون بها النقود من كاغان . الا انها كانت تختلف عنها فى الحقيقة بشيء واحد وهو ان هذه العربة ذات حصانين بينما عربة البنك لها ثلاثة خيول ! ولكن كورى اشكامبه وجد فى الحال ايضاحا لهذا :

«لعل شيئا ما حدث للحصان الثالث ولهذا هى اليوم مشدودة بحصانين ! . .»

اندفع كورى اشكامبه لاستقبالها اذ لم يعد باستطاعته الصبر اكثر فى انتظار سماع الاخبار المفرحة الا ان الطين كان من العمق فى هذا المكان بحيث لم يكن بالامكان عبور الشارع مطلقا . وهكذا اضطر على الاصطبار ، ضاغطا على نواجذه ، بانتظار ان تفرغ الطريق وتمر العربة . . .

راحت العربات تمر واحدة بعد اخرى بالقرب من كورى اشكامبه ، واخيرا جاءت العربة ذات العجلات الاربع ، ولكن ويالأمر دهشته لم يكن فيها لا مستخدمو البنك ولا اكياس النقود ، بل كانت تحمل ميتا يرافقه ممرضون . كانت تلك عربة المستشفى اذن تحمل جثة رجل اوربى ما مات بشكل طارئ للفحص .

ولما راى كورى اشكامبه هذا تذكر دون وعى منه شعرا لعبد الرحمن جامى * كان قد حفظه فى الصغـــر ، لم يكن هناك افضل من تلك الابيات تناسب وضعه آنئذ :

ليس هناك امام ناظرى وفى روحى العليلة
غيرك وحدك
اينما كنت ومهما ابصرت فلست أرى
سواك انت .

جر كورى اشكامبه نفسه الى حوض ديوان بك والياس يلفه لفا ، ومضى الى ساحة الصلاة . الا ان الناس كانوا يحتشدون فى الجامع حتى مدخله ، يجلسون جميعا على سجاداتهم الصغيرة بانتظار آذان المؤذن . راى كورى اشكامبه فى الزارية الامامية ثلاث نقالات مدد عليها امواتها ، كانت احدى النقالات مكفنـــة بقماش ابيض بسيط ، والاخرى بنسيج مذهب قديم عديم اللون ، اما الثالثـة فقد كانت مغطاة بقطيفة جديدة بديعة مطرزة بوردات حمراء .

فرح كورى اشكامبه عندما راى النقالات الثلاث . وفكر فى نفسه : «ليت ربى ، ينقلون كل هؤلاء المرحومين الى مقبرة واحدة ، فاننى استطيع آنذاك الحصول على ثلاث قطـــع من القماش ، والتعويض عـن طبق الرز باللحمة الذى فقدته هـــذا الصباح . ياربى ، حتى لو ينقل منهم اثنان الى مقبرة واحدة ! . .»

الا انه فكر والخوف يعتريه : «وماذا لو حملوا الى مقابـر مختلفة ؟ . . ما العمل آنذاك ؟ . . ساسير خلف جنازة الرجل ذى كفن القطيفة المطرز بالوردات الحمراء . يبدو ان المرحوم من عائلة غنية افجع الجميع بموته ، بخاصة امه واباه ، بل واقاربه ايضا . فهم لن يبخلوا فى مصابهم بشىء ، وسيوزعون بالتاكيد قماشا من نوع جيد . الاغنياء يحبون دائما تمييـز انفسهم عن الآخرين ، ولهذا فانهم سيقدمون ايضا اطعمة طيبـــة على الاكثر ، يبدو ان المرحوم ما يزال شابا غنيا . . .»

* عبد الرحمن جامى (١٤١٤–١٤٩٢) المفكر والشاعر الطاجيكى – الفارسى العظيـــم مؤلف ثلاثـــة دواوين كبيرة فى الشعر وعدة اعمال فلسفية وعلمية . اشتهر مؤلفه «حديقة الربيع» فى الشرق وترجم الى عدة لغات اوربية . **الناشر** .

ثم راح كورى اشكامبه يبحث له عن مكان يؤدى فيـــه صلاته . ولما لم يكن يحمل معه سجادة يفرشها تحت قدميه لاداء الصلاة فقد راح يتنقل بين المصلين حتى وجد له زاوية خالية على احدى سجادات المصلين فوقف عليها متهيئا لاداء الصلاة .

سرعان ما دعـــا المؤذن الناس لاداء صلاة الظهر فنهضوا مستعدين لذلك ، وبينهم كورى اشكامبه ، وكان يرفع يديه آنذاك ملامسا باطراف اصابعه الكبيرة شحمتى اذنيه ناويا ذكر كلمات الصلاة الاولى عندما تقدم احدهم اليه فجاة من الصفوف الخلفيـة وهمس فى اذنه مناديا :

– عم كورى !

التفت كورى اشكامبـــه قليلا نحو مصدر الصوت ، فهمس صاحبه :

– الم تسمع يا عم كورى بما حدث ؟

فسأل كورى اشكامبه : – ماذا ، ماذا حدث ؟

– البلاشفة سيطروا على السلطة فى كاغان واستولوا على كل البنوك ، وبضمنها البنك الحكومى بكل ما فيـــه من اموال ، ورقية ام نقدية ، ذهبية ام فضية !

لم يستطع كورى اشكامبه وهو يسمع بهذا الا ان يهتف :

– اوخ ، نقودى ! – وتهاوى على جنبه ويداه ما تزالان قرب اذنيه بهيئة الصلاة .

فلم يلق احد اهتماما لذلك . ولم يقطع احدهم صلاته . الا ان الجميع لاحظوا بعد انتهاء الصلاة كورى اشكامبه وقد انطرح فى صحن الجامع الصخرى ، وخيط رفيع من الدم يسيـــل من بين شفتيه ، فيما انسحج جلده فى موضع الخد والذقن اثناء سقطته . كان وجهه قد اكلوح واصبح بلون الرماد ، اما اصابعه فقد جمدت فى مكانها عند شحمتى اذنيه . .

كان ميتا !

ملاحظات

يضم هذا الكتاب مختارات من اعمال صدر الدين عينى وهى حصيلة جهود الكاتب ، التى يرسم فيها على خلفية مذكراته الشخصية عن طفولته واعوام الشباب لوحة فنية واسعة تصور حياة شعبه فى الثمانينات من القرن الماضى . ويكتمل الكتاب برائعته الساخرة «موت مراب» ، هذه القصة التى يعرض فيها بعمق نفسى مدهش شخصية مراب جشع ، وقح ، فظ ، منافق ، «ويسلخ جلد الفلاحين الجهلة» من اجل الاثراء على قول الكاتب نفسه .

كتب الفنان هذين العملين بوقتين متباعدين واسلوبين مختلفين ، بل وصاغهما بلحنين متميزين . واخيرا فانهما يختلفان ايضا عن بعضهما ببنائهما الفنى وتركيبهما المعمارى . وهكذا فانهما يقدمان افضل صورة لفن هذا الكاتب العملاق . ففيهما يلوح افقه الفنى للقارئ بكل سعته واندياحه . كما ترى فيهما الوانه الثرة ومرونة اشكاله المدهشة ، ويلمس قوة اسلوبه وكلماته الفنية . فليس عبثا اذن ان اعتبر هذان العملان مرحلة جديدة مضيئة ، بل وعصر باكمله ، فى تاريخ تطور الادب الطاجيكى السوفييتى .

العملان اللذان يضمنهما هذا الكتاب يجمعهما عنوان واحد : «بخارى» . فالاحداث التى تجرى فيها مسرحها اما المدينة القديمة نفسها

او قرية صغيرة تقع على مقربة منها . وتربط شخصية المؤلف ايضا هذين العملين الى بعضهما ، فهو ينهى سرد مذكراته «فى القرية» بسفره الى بخارى ليحصل على تعليمه هناك بعد ان فقد امه واباه . بخارى عند صدر الدين مدينة للعمل والدأب . وهى مدينة حرفيين ، ومدينة فلاحين يقصدها هؤلاء طلبا لحاجة ماسة لديهم . كما انها مدينة طلاب علم شباب لا يحصلون على المعرفة فيها الا ببذل الكثير من الجهد ...

بقوة واقعية كبيرة يقص الكاتب لنا عن ماضى مدينته الثقيل .

فى القرية

«بخارى» او «مذكرات» هى آخر وافخم ما كتب صدر الدين عينى وإن لم يكتمل بعد . منذ عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٥٤ كتب صدر الدين ونشر ، خلال هذه الفترة القصيرة ، اربعة اجزاء من «المذكرات» فكانت عملا كبيرا لامن ناحية الحجم حسب ولكن ايضا من ناحية المادة الحياتية الوافرة التى قدمها فيه ، والتجربة الشخصية والوثائقية الصادقة ، وعمق وسعة تفكير الكاتب ، وبالطبع ، وقبل كل شىء ، وضوح شخصية الكاتب ، نفسها فى هذا العمل .

تضم هذه المختارات الجزء الاول من «مذكرات» وهو بعنوان «فى القرية» . وقد سطره يراع الكاتب عام ١٩٤٨ . وكان هذا الجزء قد صدر فى كتاب منفصل عام ١٩٤٩ ، فى طبعة واحدة مع القسم الثانى منها «فى المدينة» وكان كتابا «بخارى» («ومذكرات») هذان بالذات هما وراء حصول الكاتب على جائزة الدولة التقديرية فى مجال الادب لعموم الاتحاد السوفييتى .

يقص صدر الدين عينى فى كتابه هذا «فى القرية» والذى ينشر هنا مع شىء من الاختصارات الطفيفة ذكرياته عن اعوام طفولته التى مرت فى بيت ابيه فى قريتهم ، بحيث يحصل القارئ منها ، لثرائها ومدلولاتها ، على انطباع ساطع عن حياة امارة بخارى ايضا . فالحياة فى قرية ساكتاره ومحلة بالا حيث مرت طفولة الكاتب تعكس تماما حياة الفلاحين فى القرى المجاورة ايضا ، بل وتعكس كل اعماق معاناة الناس فى بحثهم عن الحقيقة وفى محاولة العثور على طريق الكفاح الصائب من اجل الحرية .

موت مراب

انتهى الكاتب من قصته «موت مراب» عام ١٩٣٦ . فنشرها جزئيا فى حلقات على صفحات المجلة الطاجيكية «نحو ادب اشتراكى» لسان حال اتحاد الكتاب الطاجيك السوفييت . ثم نشرت فى كتاب واحد عام ١٩٣٩ فى دوشانبه العاصمة .

عاد صدر الدين عينى عام ١٩٥٢ الى قصته ثانية رغم اشغاله برباعيته «مذكرات» . «منذ زمن بعيد وانا اريد اعادة النظر بـ«موت مراب» ولكننى لم استطع ان افعل ذلك ابدا لانشغالى . وليس الا هذا العام سنحت لى فرصة الاهتمام بهذا الامر» . . . هذا ما كتبه المؤلف فيما بعد فى مقدمة قصيرة لطبعتها الجديدة . اكمل صدر الدين عينى كتابة قصته ، وكتب لها بضعة فصول جديدة ، واعطاها القا والوانا معبرة فى الاماكن التى كان قد اكتفى بتخطيطها من قبل . فكان هذا النص الجديد الكامل بالذات والذى راى النور عام ١٩٥٣ هو الذى اصبح رائعته البديعة ، واصبحت لا من نفائس الادب السوفييتى وحسب بل ومن نفائس الادب العالمى ايضا .

صور الكاتب فى قصته هذه ومن خلال شخصية المرابى كورى اشكامبه نموذجا واقعيا مقرفا ، جشعا ، قاسيا ، بفنية عالية جعلته يقف جنبا الى جنب مع روائع فنية غوبسك عند بلزاك ، وغولفليف عند شدرين ، حتى اصبح اسم بطل صدر الدين عينى هذا رمزا للشخصية السلبية .

استلهم الكاتب بطله هذا من شخصية واقعية لمراب عاش فى بخارى فى ذلك الزمن البعيد ، وقد صارح الكاتب قراءه ايضا : «فى هذه القصة شخصية واقعية اخرى تمثل حكام بخارى شخصية نائب قاضى القضاة واسمه ميرزا خوجا ، الذى عرفته عن قرب ، فى حياته الخاصة والعامة ، معرفة جيدة» .

هذه القصة مشبعة بتفاصيل واقعية طريفة عن الحياة فى بخارى ما قبل الثورة بحيث تبدو لنا وكانها سرد وثائقى يصور بدقة متناهية تراجيديا الناس البسطاء فى ظل مثل تلك العلاقات الاجتماعية التى كانت تسود بخارى القديمة .

محتويات

مقدمة ٣
فى القرية ١١
البداية ١٣
الختان ١٨
بعد المادبة ٢٣
البيت الذى تحضر الحلاوة فيه ٢٨
الرمال المتحركة ٣٠
صراع مع الرمل ٣٦
فى قرية ساكتاره ٣٩
توتا-باشا ٤٢
الافعى ذات الرؤوس السبعة ٤٩
خيبر ٥٤
العجوز ٥٧
العم اسطه خوجا ٥٨
لطف الله السمين ٦٣
جدول شافريكان الجديد ٦٧
قناة منطقة شافريكان الجديدة ٧٨

حبيبة ٨٢
الشاعر ٩٢
تعلم الكتابة ٩٩
عيد فى درويش آباد ١٠٣
الخوجا الجبار ١١٥
ابى ١١٧
اول سفرة الى بخارى ١٢٠
كبرياء الخوجات ١٣١
الارض ١٣٣
الوباء ١٣٦
ليلة فى الحقل ١٤٣
جنى الغلال ١٤٦
رب البيت ١٤٨
قرابك ١٥٢
المطاردة الشعرية ١٥٤
التهيؤ للسفر الى بخارى ١٥٩
موت مراب ١٦١
ملاحظات ٣١٤

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ٢١
موسكو – الاتحاد السوفييتى